بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القـــرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : محمد بن عبد الله بن محمد الحلواني كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : العقيدة

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراه في تخصص : العقيدة

عنوان الأطروحة : ((القاضي أبو السعود وآراؤه الاعتقادية عرض ونقد))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٢٩ / ١ / ١٤٢٠هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم : د/ محمد بن ناصر [illegible]	الاسم : د/ محمد [illegible]	الاسم : أ.د/ ناصر بن عبد الكريم العقل
التوقيع : [توقيع]	التوقيع : [توقيع]	التوقيع : [توقيع]

يعتمد

رئيس قسم العقيدة

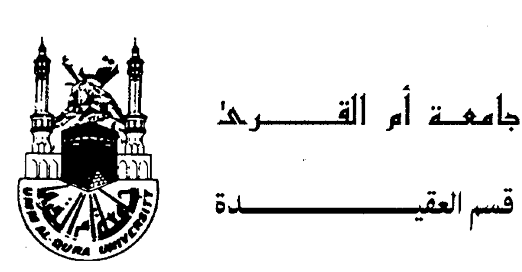
الاسم : د / عبد الله القرني

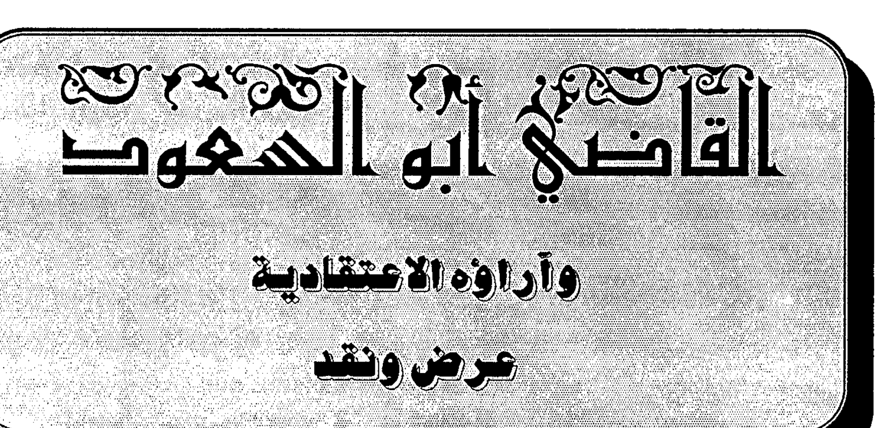
التوقيع : [توقيع] ١٤٢٠/١/٢٩

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

جامعة أم القرى
قسم العقيدة

كلية الدعوة وأصول الدين
الدراسات العليا





إعداد الطالب :

مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ الْحَلْوَانِي

إشراف الدكتور :

أَحْمَدَ بْنِ نَاصِرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْحَمَد

رِسَالَةٌ عِلْمِيَّةٌ لِنَيْلِ دَرَجَةِ الدُّكْتُورَاه فِي العَقِيدَةِ

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

الجزء الأول



بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على مَن لا نبي بعده ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ، أما بعد :
فقد اشتملت هذه الرسالة العلمية والتي هي بعنوان : « القاضي أبو السعود وآراؤه الاعتقادية : عرض ونقد » على مقدمة وبابين وخاتمة .

فأما المقدمة : فقد ذُكِر فيها أهمية الموضوع ، وأسباب اختياره ، وطريقة البحث فيه .

وأما الباب الأول : فهو عن عصر أبي السعود وحياته من مختلف الجوانب : السياسية والاجتماعية والعلمية والدينية .

وأما الباب الثاني : فهو دراسة مفصّلة عن آرائه الاعتقادية عرضاً ونقداً فيما يتعلّق بالإلهيات والنبوات والسمعيات .

وأما الخاتمة : فقد وُضِعَت فيها نتائجُ البحث والدراسة باختصار .

وأبو السعود العمادي هو موضوع هذه الرسالة ، وهو من علماء القرن العاشر الهجري في عهد الدولةِ العثمانية ، وكان يكتب بثلاث لغات : العربية والتركية والفارسية ، وبلغت مصنفاته ستون مُصَنّفاً ، وقد شَغل عدّة مناصب ، كان آخرها منصب شيخ الإسلام . وهو ماتريدي العقيدة حنفي الفروع ، إلا أنه وافق السلف الصالح في بعض المسائل العقدية .

فأما الأمور التي سار فيها أبو السعود على منهاج السلف ، فمنها : إثباته لكثير من أسماء الله تعالى ، وإثباته لصفة المعيّة ، ومنها : قوله : إن رؤية الله جائزة في الدنيا في الجملة وإنها ليست ممتنعة ولا مستحيلة ، وأثبت رؤيته في الآخرة . ومنها : قوله : إن الإيمان يزيد وينقص . ومنها : إثباته القضاء والقدر . ومنها : قوله في خَلْق الأفعال ومسألة الكسب ، وهي مخالفة لكسب الأشاعرة ؛ حيث أسند جميع الحوادث من حيث الخَلْق إلى الله تعالى ، وبيّن أن أفعال العباد الاختيارية هي خَلْق الله وكسب من العباد ، وأن للعبد اختياراً وقدرة مؤثّرة ، لكن تأثير قدرته في كون الفعل طاعة أو معصية ، فقدرته مؤثّرة في وصف الفعل ، وأما قدرة الله فهي مؤثرة في أصل الفعل وهو خَلْقُه وإيجاده . ومنها : إثباته لمباحث النبوات . ومنها : إثباته لكثيرٍ من المسائل المتعلّقة بالسمعيات كاليوم الآخر والنفخ في الصور والشفاعة والجنة والنار .

وأما الأمور التي تابع فيها الماتريدية والمتكلّمين ، فمنها : إثباته ثماني صفات هي : الحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام والتكوين . ومنها : تأويله لبعض الأسماء كالجبار وغيره ، وتأويله لكثير من صفات الله . ومنها : اتباعه لبعض المتكلّمين في إثبات رؤية الله مع نفي الجهة . ومنها : ترجيحه في الإيمان لقول الحنفية ومرجئة الفقهاء بأن الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان . ومنها : تأثره بما جاء في كتاب « أنوار التنزيل » للبيضاوي الأشعري ، وكتاب « الكشاف » للزمخشري المعتزلي في كثيرٍ من المسائل ، ومنها : مسألة إنكار مسّ الجنّ ، على الرغم من أنه ردّ على كثيرٍ من آراء المعتزلة الأخرى .

وقد كانت الطريقة في العرض والنقد مبنيةً على جَمْع آراء أبي السعود وأقواله ونقوله من خلال تفسيره ، ومن بعض رسائله المطبوعة والمخطوطة ، ومن ثَمّ عَرض آرائه على منهج أهل السنة والجماعة وعقيدتهم ، مع التدليل والتعليل والتوجيه والمناقشة والترجيح ، وذلك على ضوء المنهج العلمي عَزواً وتخريجاً وتوثيقاً وتعليقاً . وقد احتوى آخر الرسالة على ملاحق وفهارس علمية متنوعة .
والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات .

الطالب	المشرف	يعتمد
	١/٦/١٤٢٠هـ	عميد كلية الدعوة وأصول الدين
محمد بن عبد الله بن عمر العلواني	**الدكتور أحمد بن ناصر الحمد**	**الدكتور محمد سعيد بن محمد حسن**
		١/٦/١٤٢٠هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر وتقدير

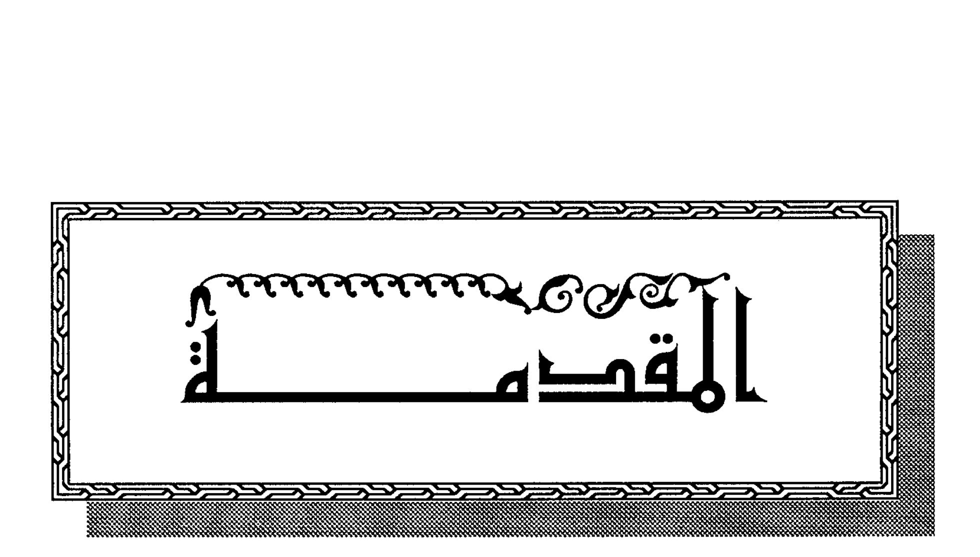
الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على مَن لانبي بعده ، نبينا محمد وعلى جميع صحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : فإنه لا يسعني في هذا المقام - اعترافاً بالفضل وعِرفاناً بالجميل - إلا أن أتقدّم بالشكر والتقدير إلى كل مَن أسهم في إخراج هذه الرسالة العلمية ، وعلى رأسهم جامعة أم القرى بمكة المكرّمة شرّفها الله عزّ وجلّ ، ممثّلة في كلية الدعوة وأصول الدين ، وفي قسم العقيدة .

كما أشكر كلّ مَن قدّم لي نصحاً ، أو توجيهاً ، أو فائدة ، أو عوناً في إنجاز هذه الرسالة من مشايخنا وأساتذتنا وإخواننا الكرام حفظهم الله تعالى .

وأخصّ بالذكر منهم فضيلة المشرف الدكتور أحمد بن ناصر بن محمد الحَمَد عميد الدراسات العليا وعضو هيئة التدريس في قسم العقيدة .

وكذلك من قام بترجمة الرسائل من اللغة التركية إلى اللغة العربية ، وهم : فضيلة الدكتور سعد الدِّيْن أُوْنَال من مركز أبحاث الحج بمكة المكرمة ، وفضيلة الدكتور محمد الصَّادق آيدِيْن من كلية التربية بالطائف ، والأخ محمد سعد اللّه بن دِرْمِش إِلِيْكلِي خرّيج قسم العقيدة بجامعة أم القرى ، فجزاهم اللّه تعالى جميعاً خير الجزاء .


المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيّئات أعمالنا ، مَن يهده اللهُ فلا مُضلّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن نبيّنا محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . أما بعد :

فإن الله عزَّ وجلَّ فضّل بعض عباده على بعض ، وجعل بعد الأنبياء في الفضل العلماء ، الذين هم ورثة الأنبياء ، ألا وإن للعلماء العاملين في نفوس المسلمين قَدْراً كبيراً ، ومكانةً عاليةً وحُبّاً وتقديراً ، فهم حُمَاةُ الدِّين وحُرَّاسُ العقيدة ، يدعون إلى الله بموعظة حسنة وحكمة سديدة ، قَمَع الله بهم رؤوس الضَّلال ، وشهّر بهم أهل البدع والانحلال ، فمنهم من بَلَغ إلى المناصب الجليلة ، وإن كانوا متفاوتين في العلم والفضيلة ، ومنهم من جمع الله له بين قوّة البيان ، وأيّده بسيف السلطان .

فمن نصرهم نصره الله ، ومن أعزّهم أعزّه الله ، ومَكّن له في الأرض، ونصره يوم العَرض ، ومن خذلهم خذله الله ، ومن أذلهم أذله الله ، وجعله عبرةً للمعتبِرين ، وفضَحه على رؤوس الخَلق أجمعين .

وقد كان للعلماء في الدولة العثمانية المكانة العالية ، والمنزلة الرفيعة السامية ، على تعدّد مواهبهم ، وتنوع مشاربهم . حتى أصبحت للهيئة الإسلامية في دولتهم أهمية دينية وسياسية لا نظير لها في البلاد الإسلامية الأخرى .

وما يدلّ على عناية الحكام بعلماء الدِّين في ذلك الزمان أنهم قد وكّلوا التخطيط الإداري والتنفيذ إليهم ، وجعلوا لهم المكانة والحصانة ، حتى إنهم جعلوا منصب شيخ الإسلام في دولتهم من أعلى المناصب الدينية والسياسية على الإطلاق ، ويأتي ترتيبه بعد الصَّدْرِ الأعظم (رئيس الوزراء) مباشرة ، ثم صار مساوياً له في الرُّتْبَة ، وله السَّبْق على سائر الوزراء بموجب القانون العثماني الذي ورد في أحكامه أن شيخ الإسلام والصَّدر الأعظم يتمّ تعيينهما من قِبَل السلطان نفسه ، أما سائر الوزراء فيتمّ تعيينهم من قِبَل الصَّدر الأعظم .

وقد ظهرت عدة شخصيات تحمل لقب شيخ الإسلام في الدولة العثمانية[1] :

فأوّلهم : شيخ الإسلام محمد الفناري [2] .

وآخرهم : شيخ الإسلام مصطفى صبري[3] .

ومن هؤلاء أيضاً شيخ الإسلام في زمانه أبو السعود العمادي ، وهو من علماء القرن العاشر الهجري ، ومن علماء الترك المستعربين ومن بيت عُرف أهله بالفضل والعلم[4] .

---

(١) بلغ عدد مشايخ الإسلام في الدولة العثمانية مائة وأربعين . انظر الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي للدكتور إسماعيل ياغي ص : (٢٨٥) .

(٢) انظر ترجمته في ص : (٧٩) من هذه الرسالة .

(٣) انظر ترجمته في ص : (٦٤) .

(٤) ويأتي ترتيبه : الرابع عشر من بين مشايخ الإسلام في الدولة العثمانية ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى في ص : (٨١) .

قرأ أبو السعود كثيراً من كتب العلم على والده ، وتتلمذ على يد جُلّة من العلماء ، فأفاد منهم عِلمـاً جمّاً ، وتولى التدريـس في كثير مـن المـدارس التركيـة ، ثم قُلّد القضـاء في عدّة مـدن ، ثم انتقـل إلى قضاء العسكر[1] .

ثم بعد ذلك تولى أمر الفتـوى ، ثم ارتقى إلى منصب شيخ الإسـلام ، ومكث في منصب الإفتاء نحواً من ثلاثين سنة ، أظهر فيها الدِّقَّة العلمية التَّامـة ، والبراعـة في الفتوى ، والتَّفنّن في الجواب .

وقد ذكروا عنه أنه كان يكتب جواب الفتـوى على منوال ما يكتبه السـائل من الخطاب ، فإن كان السؤال منظوماً كان الجواب منظوماً كذلك ، مع الاتفاق بينهما في الوزن والقافية ، وإن كان السؤال نثراً مسجّعاً ، كان الجواب مثله ، وإن كان بلغة العـرب ، فالجواب بلغـة العـرب ، وإن كان بلغـة التُّرك ، فالجواب بلغـة التُّرك ، وإن كان بلغـة الفُرْس ، فالجواب بلغـة الفُـرس ، وهـذا مما يشهـد له بِسَعَة أُفُقِه ، وغَزارة مادّتـه .

وكان أبو السعود مـن العلمـاء الذين حاربوا الصوفيـة والرافضـة محاربة شـديدة ، بِبَيَـانِه وسِنَـانِه ، فقـد أصـدر الفتـاوى ضـدَّهم ، وجعل سيف السلطان مسلولاً على الغُلاة منهم .

وهذه الشخصية لم يَسْبِق لأحدٍ من الباحثين - حسب علمي - أنْ

---

(١) قضاء العسكر : هو رئاسـة قضاة الدولة العثمانية . انظر إشارات المرام من عبارات الإمام للبياضي ص : (١٧) .

تناولها بالدراسة والبحث من الناحية العقدية ، ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة العِلْميَّة لهذه الشَّخصيَّة .

وقد خلّف أبو السعود مُصنَّفَاتٍ عديدةً بلغت ستين مُصنَّفاً ، ومن أهمها : تفسيره المسمى بـ « إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم » ، والذي يُعرف بتفسير أبي السعود .

ومعظم آراء أبي السعود يَضُمُّها تفسيره هذا الذي يُعَدُّ من أَهمّ كتب التفسير بالرأي ، وقد طُبع أكثر من مرة ، وكان ولا يزال يُدرَّس ويُوزّع على طلبة العلم في بعض الجامعات وغيرها .

وتفسير أبي السعود تَغْلِبُ عليه الصناعة النحوية ، وقد اعتنى ببيان إعجاز القرآن الكريم وبلاغته ، ولذلك فهو من أحسن التفاسير من حيث النواحي اللغوية والنحوية والبلاغية ، وهو تفسير ليس بالطويل المملّ ، ولا بالقصير المخلّ ، يمتاز بحسن تعبيره ، وسلامة تفكيره ، في النواحي المذكورة آنفاً .

فهل هو كذلك من الناحية العقدية ؟ وهل حظي كغيره من كتب التفسير بكثرة الحواشي والتعليقات التي تكشف عن مُراده ، أو تتعقَّبه في بعض ما يقول ، أو تبيّن منهجه في العقيدة وغيرها ؟[1] .

---

(١) هناك بعض الرسائل التي بيّنت منهجه في التفسير ، مثل كتاب « أبو السعود أفندي وأسلوبه في التفسير » للدكتور عبد الله آيديمير ، وفي غير التفسير هناك كتاب بعنوان : « حياة الأتراك في القرن السادس عشر في ضوء فتاوى شيخ الإسلام أبي السعود أفندي » لمحمد أرطغرل دوز داغ ، وكلاهما باللغة التركية .

لقد صرّح أبو السعود في مقدمة تفسيره بأنه اعتمد على تفسير « الكشاف » للزمخشري ، و« أنوار التنزيل » للبيضاوي ، وغيرهما ممن تقدمه ، وقد أثنى على تفسيريهما ، وذكر بأنه قرأهما قبل أن يؤلّف تفسيره[1] .

ومعلوم أن الزمخشري أحد علماء المعتزلة الذين أظهروا مذهبهم ، وحملوا ألفاظ القرآن الكريم على ذلك .

وأما البيضاوي فهو من الأشاعرة ، وقد وضع تفسيره المسمى بـ « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » ، وجمع فيه بين التفسير والتأويل ، واختصر تفسيره من « الكشاف » ، فتأثّر به وتبعه في كثيرٍ من الآراء ، ولذلك يُعَدُّ تفسيره من بين التفاسير التي دخلتها أفكار أهل الأهواء والبدع .

- فهل اغترّ أبو السعود بماجاء في « الكشاف » من الاعتزالات ؟ أو ذكرها على وجه التحذير ؟

- وهل وافق الأشاعرة في مباحث العقيدة وغيرها ؟

- وهل كان على منهج أهل السنة والجماعة في تفسيره ؟

- وما هو منهجه في العقيدة ؟

- وما هي آراؤه الاعتقادية ؟

---

(١) انظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : (٤/١ - ٦) .

وللإجابة على تلك الأسئلة المذكورة آنفاً ، فقد استخرت الله تعالى في أن تكون أطروحتي لنيل درجة الدكتوراه تتناول شخصية أبي السعود من الناحية العقدية ، وموقفه من العقيدة الصحيحة ، وهي بعنوان :

« **القاضي أبو السعود وآراؤه الاعتقادية : عرض ونقد** » .

وجعلتها في مقدمة وبابين وخاتمة :

فالمقدمة : لذكر أهمية هذا الموضوع ، وأسباب اختياره ، وطريقة البحث فيه .

وأما الباب الأول : فهو عن عصر أبي السعود وحياته ، وذلك من مختلف الجوانب التي تتعلق به وهو في فصلين :

الفصل الأول : عصره ، ويشتمل على أربعة مباحث :

الحالة السياسية ، والحالة الاجتماعية ، والحالة العلمية ، والحالة الدينية .

والفصل الثاني : حياته . ويضمّ اثني عشر مبحثاً :

اسمه ونسبه ، ومولده ونشأته ، وصفاته ، وطلبه للعلم ، وشيوخه ، وأقرانه ، ومذهبه ، وتلاميذه ، ومصنفاته ، وجهاده وأثره ، ومكانته ، وأخيراً وفاته .

وأما الباب الثاني : فهو دراسة مفصّلة عن آرائه الاعتقادية ، عرضاً ونقداً ، ويشمل ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الإلهيات ، ويحتوي على أربعة مباحث : الأسماء والصفات والإخبار عن الله تعالى ، والرؤية ، والإيمان ، والقضاء والقدر .

والفصل الثاني : النبوات ، ويشتمل على ثلاثة مباحث : تعريف النبي والرسول ، والإيمان بالأنبياء والرسل ، وصفاتهم .

والفصل الثالث : السمعيات ، وتحته أربعة مباحث :

المسّ والصَّرْع ، والموت ، واليوم الآخر وأحداثه ، والجنة والنار .

وأما الخاتمة : فوضعت فيها نتائج البحث والدراسة باختصار .

وطريقتي في العَرض والنَّقد مبنيَّة على جمع آراء أبي السعود وأقواله ونقوله من خلال تفسيره، ومن بعض رسائله المطبوعة والمخطوطة، ومن ثَم عَرض آرائه على منهج أهل السنة والجماعة وعقيدتهم ، مع التدليل والتعليل والمناقشة والترجيح .

واتبعت في ذلك - بحول الله وقوته - قواعد وضوابط تنطلق من مبدأ العدل والإنصاف ، مستمداً عناصر ذلك من نصوص الكتاب



والسنـة ، وأقوال الأئمة وعلمـاء السلف الصـالح رضي الله عنهم . متحرّيـاً في النقـل ، فلا أجزم إلا بما أتحقّقـه ؛ لأن الكلام في نقد الرجال وإصـدار الحكم عليهم منزلق خطير ، لابد مـن ضبطـه وإحكامه ؛ حتى لا يُجرّح العدل ، ويُقْدَح في الثقة . ذاكراً الجانبين : جانب الصواب ، وجانب الخطأ إن وُجد .

وذلك لأننا نرى كثيراً من الذين ينتقدون المخالفين لهم يركّزون على ذكر الأخطـاء والنقـائص والعيوب ، ويغفلون الصواب والخير والحسنات .

وهذا بخسٌ وظلمٌ للناس ، ومخالفةٌ لمنهج أهل الحقِّ والعدل ، وقد نهـانا الله عزّ وجلّ أن نبخس الناس أشيـاءهم ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ [1] .

وقد اتّبعت في عمـلي وبحثي في هـذه الرسالة المنهج العلمي الصحيح - في نظـري - عزواً وتخريجاً وتوثيقـاً وتعليقـاً ، فأَثْبَتّ في هوامش الرسالة ما يأتي :

١- عَزْو الآيات القرآنية الكريمة إلى مكانها في المصحف الشـريف .

٢- تخريج الأحاديث النبوية الشـريفة ، وذلك بتعيين راوي الحـديث مـن الصحابة إن لم يكن في المتن ، ثم بعَـزْوِه لكتب السُّنَّـة

(١) سورة الأعراف ، الآية : (٨٥) . وسورة هود ، الآية : (٨٥) . وسورة الشعـراء ، الآية : (١٨٣) .

حسب ترتيب الكتب السِّتَّة .

وإذا لم يكن في الصحيحين أو أحدهما فبعَزْوِه للمتقدِّمين من الأئمة حسب وفياتهم ، مع ذكر اسم الكتاب والباب ورقم الجزء والصفحة ورقم الحديث إن وُجِد ، ثم أختم ذلك بذكر أقوال العلماء والمتخصّصين في التصحيح والتضعيف إذا كان الحديث في غير الصحيحين .

٣- التعريف بأعلام الرسالة تعريفاً موجزاً في أوّل موضع يُذكَر فيه العَلَم ، ولم أترجم للمشاهير منهم مثل الخلفاء الراشدين ، وغيرهم من كبار الصحابة ، وأمهات المؤمنين ، والأئمة الأربعة ، وأصحاب الكتب الستة ، وغيرهم مِن الأئمة الأعلام الذين هم أَشْهَرُ مِن أنْ يُذْكَروا ، وأَعْرَف مِن أَنْ يُنْكَروا .

٤- شرح الألفاظ اللغوية الغريبة ، وضبطها ، وتعيين مصدر التوثيق .

٥- التعريف بالفِرَق وأسماء المواضع والبلدان ، وذلك بالرجوع للمعاجم المختصة ، وكتب الفِرَق والمذاهب الفكرية وغيرها .

وقد وضعت في قسم الملاحق في آخر الرسالة صوراً لبعض المخطوطات التي جمعتها ، وصوراً لبعض الخرائط الجغرافية للدولة العثمانية التي تدلّ على أسماء المدن والمواضع المذكورة في الرسالة ، حيث أُحِيل في بعض الأحيان إليها .

هـذا وأسـأل اللَّه العظيم ربّ العـرش العظيم أنْ يلهمني التوفيق والسَّـداد ، ويجمع لي بين الصَّوابـ والثَّواب ، ويعيـذني مـن الخطأ والحـــرمان ، ويجعـــل عملي خالصاً صوابـاً ، ويتقبَّله مني بقبولٍ حَسَن ، إنه على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير ، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والحمد للَّه رب العـالمين ، وصلى اللَّه وسلّم على نبيِّنا محمد ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

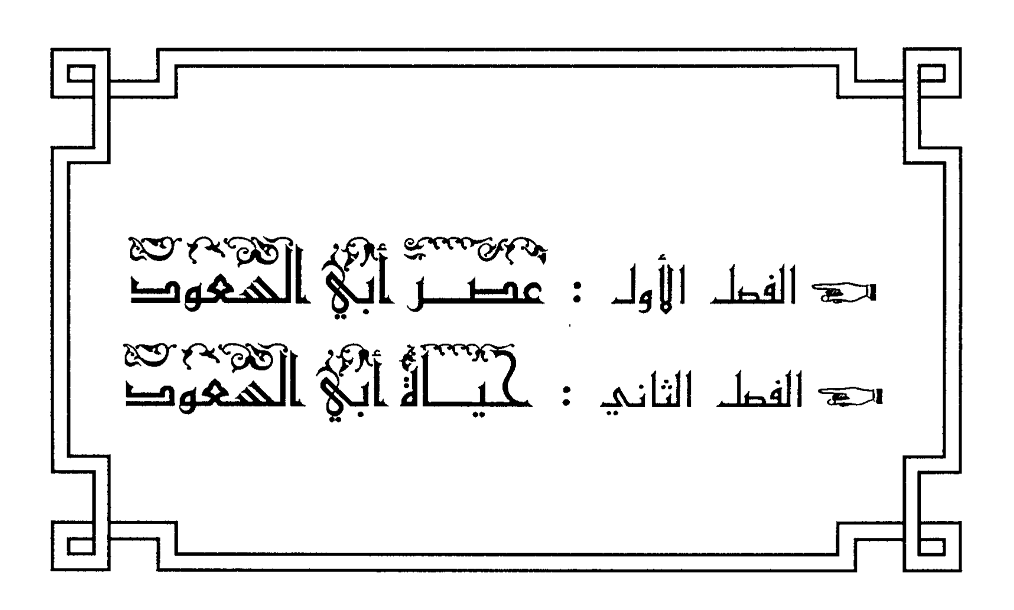
كتبه طالب العلم الشرعي :

محمد بن عبد الله الحلواني



الباب الأول

أَبُو السُّعُودْ : عَصْرُهُ وَحَيَاتُهُ



- الفصل الأول : عصر أبي السعود
- الفصل الثاني : حياة أبي السعود

الفصل الأول

عصر أبي السعود

- المبحث الأول : الحالة السياسية .
- المبحث الثاني : الحالة الاجتماعية .
- المبحث الثالث : الحالة العلمية .
- المبحث الرابع : الحالة الدينية .

المبحث الأول

الحالة السياسية

عاش أبو السعود العِمَادي في القرن العاشر الهجري في تركيا ، وفي أيام خلافة العثمانيين وحكمهم .

والدولة العثمانية التي ترامت أطرافها في ثلاث قارات : آسيا وأوربا وأفريقيا يكتنفها الغموض فيما يتعلّق بالأصول العِرْقية التي انحدر منها العثمانيون ، فليس للفظة عثماني مدلول عِرْقي محدّد ، وإنما هي لفظة تدلّ على أسرة اشتُقّت من اسم رجل يُعتبر المؤسّس الأوّل للدولة العثمانية ، وهو عثمان الأول ، وتحكي الروايات التاريخية أن أسلاف عثمان كانوا قد جاؤوا من أواسط آسيا إلى بلاد الأناضول ، وكانوا عبارة عن فرقة صغيرة من الفرسان ، فما أتى مطلع القرن السابع الهجري إلا وأصبح لهم كيانهم القوي على حدود بيزنطة في شمال غرب الأناضول[1] .

ثم أعقب ذلك توسّع مستمر حتى تمكّن العثمانيون من الاستيلاء على الركن الشمالي الغربي في أقصى آسيا الصغرى في منتصف القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي ، واتسعت رقعة الدولة العثمانية بصورة مطّردة ، حتى فتحوا بلاد البلقان ، وتوغّلوا شرقاً إلى بلغاريا وغرباً إلى مقدونيا ، وأصبحت بلاد الصرب تابعة للعثمانيين ، ثم بسطوا نفوذهم على

(١) انظر كتاب نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان لابن أبي السرور البكري تحقيق الدكتور يوسف الثقفي ص : (٢٠) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (١٠) .

الأناضول ، كما فتحوا جميع ممتلكات بيزنطة ، وامتدت دولتهم إلى ألبانيا وبلاد الصرب وهنغاريا ، وأصبحوا بحلول منتصف القرن التاسع الهجري قوة مرهوبة الجانب لا يُستهان بها [1] .

وقد وصلت الدولة العثمانيـــة في القرن العاشر الهجري الذي عاش فيه أبو السعود إلى ذِروة مجدها وأَوْج عظمتها في آسيا وأوربا وأفريقيا ، وقدّر الله تعالى لها أن تعيش طويلاً وتتولى قيادة العالم الإسلامي ما يقــرب من ستّة قرون ، أخضعت فيها لسلطانها دولاً كثيرة امتدت عبر قارات ثلاث .

يقول الشيخ محمد قطب : « كانت الدولة العثمـانية في وقت ازدهـارها وتمكّنها تمثّل قوة سياسية وعسكرية هـائلة ، وتمثّل كذلك رغبـة مخلصة في خدمـة الإسـلام ونشـره في الأرضـــ ، ولكنها لم تكن تمثّل الصورة العلميـة والحضارية الصّحيحة للأمّة الإسلاميّة[2] »[3] .

وتحقّقت في العثمــانيين السُّنن الربَّانيّـــة التي لا تَخْتَلف ولا تَتَخَلّف في المُصْلِحِين والمُفْسِدِين في كلّ زمان ومكان .

ذلك أن الله عزّ وجلّ يبيّن لنا في كتابه الكريم أن ما فعله بالصّالحين هو جزاء لهم على استقــامتهم ، ومـــا أَوْقعــه بالمفســـدين هو عقوبة لهم على طغيـانهم . ويرينا الله عزّ وجلّ أنّ هذه سُنّته ، وأنّ الشّعوب والدّول نسبتها إليه ســواء ، يمكّن لها في الأرض ، ويغدق عليها من النعم إذا هي وقفت عند

---

(١) انظر كتاب نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان ص : (٢٠ - ٢٢) .

(٢) يعني صورة الأمة الإسلامية حين كانت محافظة على رسالتها في جميع جوانبها ، كما كانت بالفعل في فترة من تاريخها .

(٣) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ص : (١٩٠) .

ما رسم لها من حدود ، وما شرع لها من أحكام ، ويريها العذاب ألواناً ، ويسلّط عليها من يَسْلبها عزّها وسلطانها إذا هي تنكّبت طرق الهدى ، وخرجت على قوانين الفطرة ، ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [1].

وقال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ [2] .

والدّولة العثمانيّة تحقّقت فيها تلك السُّنن الرّبّانيّة ، ذلك أن سلاطين آل عثمان نصروا الدّين وأهله فنصرهم الله ، وأعزّوا الدّين وأهله فأعزّهم الله ، ومكّن الله عزّ وجلّ لدولتهم في الأرض .

وقد جعلت الدولة العثمانية الجهاد في سبيل الله تعالى الركيزة الكبرى لوجودها ، فاشتغلوا ببناء الجيش للدولة ، وإعداد الأنظمة والقوانين .

وتضافرت عدّة عوامل بعد ذلك ساعدت العثمانيين على التّوسّع الإقليمي الواسع النطاق في مختلف الجبهات ، وكان من بين هذه العوامل : الشعور الديني الإسلامي المتّقِد الذي كان يغمر نفوس الجنود العثمانيين ، والذي كان حافزاً قَوِيّاً لهم على الاستبسال في القتال واسْتِرْخاص الموت ، فحقّقوا بفضل الله تعالى ثم بفضل هذا الشعور أروع الانتصارات . كذلك ساعدت غزارة الموارد المالية السلاطين على بناء قوات مسلّحة برّية وبحريّة على درجة عالية من الكفاءة

(١) سورة الأعراف ، الآية : (٩٦) .

(٢) سورة النور ، الآية : (٥٥) .

والكفاية والتسليح والتدريب ، فصارت الدولة العثمانية أقوى دول العالم وأكثرها تقدّماً في المدفعية والأسلحة النارية والأساطيل البحرية[1] .

السلاطين العثمانيون إلى زمن أبي السعود :

١- السلطان الأول عثمان خان الغازي ابن ساوجي (٦٥٦ - ٧٢٦ هـ)[2] .

٢- السلطان أورخان الأول ابن السلطان عثمان (٦٨٠ - ٧٦١ هـ) .

٣- السلطان مراد خان الأول ابن السلطان أورخان (٧٢٦ - ٧٩١ هـ) .

٤- السلطان با يزيد خان الأول ابن السلطان مراد (٧٦١ - ٨٠٥ هـ) .

٥- السلطان محمد جلبي خان الأول ابن السلطان با يزيد (٧٨١- ٨٢٤ هـ).

٦- السلطان مراد خان الثاني ابن السلطان محمد (٨٠٦ - ٨٥٥ هـ) .

٧- السلطان محمد الثاني الفاتح ابن السلطان مراد (٨٣٣ - ٨٨٦ هـ) .

٨- السلطان با يزيد خان الثاني ابن السلطان محمد الثاني (٨٥١- ٩١٨ هـ).

٩- السلطان سليم خان الأول ابن السلطان با يزيد (٨٧٢ - ٩٢٦ هـ) .

١٠- السلطان سليمان القانوني الأول ابن السلطان سليم (٩٠٠ - ٩٧٤ هـ).

١١- السلطان سليم خان الثاني ابن السلطان سليمان (٩٣٠ - ٩٨٢ هـ) .

وقد عاصر أبو السعود أربعة من السلاطين العثمانيين ، وهم : السلطان با يزيد الثاني ابن محمد الثاني ومن بعده من أولئك .

وفيما يلي نبذة مختصرة عن كل واحد من هؤلاء السلاطين :

---

(١) انظر الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي للدكتور إسماعيل ياغي ص : (١٧ ، ١٨) ، والقوة العثمانية بين البر والبحر للدكتور نبيل عبد الحي رضوان ص : (١١٤) .

(٢) التاريخ الأول يدل على تاريخ مولد السلطان ، والثاني على تاريخ وفاته .

(١) السلطان الأول عثمان خان الغازي :

هو عثمان خان الغازي ابن ساوجي بك بن أرطغرل بك بن سليمان شاه بك بن قياألب رئيس قبيلة « قايي » إحدى قبائل الغزّ التركمانية بآسيا الوسطى ، وإلى هنا ينتهي النسب الصحيح ، وما بعده مختلف فيه(١) .

وإلى السلطان عثمان تُنسب الدولة العثمانية ، وهو أوّل مَن تقلّد زمام الحكم من ملوك آل عثمان .

وكان مِن أمرهم أنه لما ظهر التّتار من أقصى آسيا واستولوا على البلاد الإسلامية ، وقتلوا الخليفة المُستَعْصِم بالله(٢) آخر الخلفاء العباسيين ، وأسقطوا دار السلام (بَغْداد) في ٦٥٦/١/٢٠ هـ ، وأفسدوا في الأرض بالقتل والسّلب والنّهب .

عند ذلك هاجر سليمان شاه من وطنه « مَاهَان »(٣) بقبيلته العظيمة البالغ عدد محاربيها ألفا فارس إلى « الأناضول » ، فأقام بمدينة « أَخْلَاط »(٤) ، فلما انتشر التّتار وقربوا من تلك المدينة ، هاجر منها إلى

---

(١) انظر التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العليّة لإبراهيم بك حليم ص : (٣١) .

(٢) هو عبد الله بن منصور بن محمد من سلالة هارون الرشيد العباسي ، وكنيته أبو أحمد ، وهو آخر خلفاء الدولة العباسية في العراق . قُتل سنة ٦٥٦ هـ وبموته انقرضت دولة بني العباس في العراق . انظر سير أعلام النبلاء : (١٧٤/٢٣) ، وفوات الوفيات : (٢٣٧/١) ، والأعلام : (١٤٠/٤) .

(٣) ماهان : هي بلاد قرب بَلْخ تقع في شمال فارس . وبَلْخ مدينة بخراسان تقع في شمال أفغانستان . انظر معجم البلدان : (٤٧٩/١) ، (٤٩/٥) .

(٤) أخلاط : بلدة في شرق تركيا الحالية بالقرب من بحيرة وآن في هضبة أرمينيا . انظر الدولة العثمانية والغزو الفكري للدكتور خلف الوذيناني ص : (٢١) .

« أَذَرْبِيْجَان »[1] ، وبعد مدّة أراد الرجوع إلى وطنه الأصلي ، فسار مع قبيلته إلى قلعة « جَعْبَر »[2] من أعمال ولاية « أُوْرْفَه »[3] ، وعند عبورهم نهر الفرات وقع سليمان شاه ، ومات غريقاً ، ودُفن تحت القلعة المذكورة ، وكان له أربعة أولاد ، منهم أرطغرل بك ودندان ، وهذان سارا بالقبيلة إلى « أَرْضُرُوم »[4] بالأناضول ، ووضعوا خيامهم هناك .

وصار أرطغرل بك رئيساً على القبيلة ، وأرسل ابنه ساوجي بك إلى السلطان علاء الدين السلجوقي يلتمس منه مسكناً له ولقبيلته ومرعى لمواشيهم ، وكان سلطاناً على جزء عظيم بالأناضول ، فأجاب له الطلب ، وتوفي ساوجي بك وهو عائد إلى أبيه .

وكانت فرقة من التتار تحارب عساكر السلطان علاء الدين ، وإذا بأرطغرل بك مارّ عليهم ، فهجم بقبيلته على التّتار فهُزموا شرّ هزيمة ، فكافأه السلطان علاء الدين بـ « طُوْمَانيج » و« أَسْكِيْ شَهِرْ »[5] بواديهما .

---

(١) أذَرْبِيْجَان ، ويُقال : أَذْرَبِيْجَان : مدينة في أرمينيا في الاتحاد السوفييتي ، ويسمونها الآن كيروف آباد ، وهي لا تبعد كثيراً عن نهر الفرات ، والغالب عليها الجبال ، وفيها قلاع كثيرة ، وخيرات واسعة ، وبساتين عظيمة ، وفواكه عديدة . انظر معجم البلدان : (١٢٨/١) ، وتاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك المحامي بتحقيق الدكتور إحسان حِقّي ص : (١٧٣) .

(٢) جَعْبَر : قلعة على الفرات بين بالس والرّقّة قرب صفّين . انظر معجم البلدان : (١٤٢/٢) .

(٣) أورفه : بلدة تركية في جنوب شرق الأناضول ، قريبة من الحدود السورية . انظر الملحق رقم : (١٣) .

(٤) أرضروم : يلفظها الأتراك أرز روم ، وتقع في شرق الأناضول ، وإلى الجنوب الشرقي من طرابزون . انظر الملحق رقم : (١٣) .

(٥) أَسْكِي شَهِر ، معناه : البلد القديم ، وهي بلدة قديمة تقع في وسط بلاد الأناضول ، وعلى مفترق الطرق إلى غرب أنقرة . انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ص : (١١٦) .

ثم إن أرطغرل مات سنة (٦٨٠ هـ) بالغاً من العمر أكثر من تسعين سنة ، فصار حفيده عثمان بن ساوجي بك رئيساً على القبيلة ، وهو المؤسّس للدولة العثمانية .

وكان من مواقفه قبل توليه السّلطنة أن والي دولة « بزنتيس »[١] المجاور لعثمان وقبيلته ، وهي تابعة لإمبراطورية القسطنطينيّة[٢] ، كان هذا الوالي وأعوانه يَعتدُون على قبيلة عثمان ، فيضطرّ للمقاومة ، وفي أغلب الوقائع يكون النّصر لعثمان .

حتى استولى على جملة قلاعٍ وجهاتٍ كثيرة ، وصار يضمّ ما يكتسبه إلى ممالك السلطنة السلجوقية ، حتى إنه استولى في سنة (٦٨٥ هـ) على « قَرَه حِصَار »[٣] ، فلقّبوه بالغازي ، ودعوا له في الخطبة .

وقد خاف والي دولة بزنتيس وكان يُدعى « تَكْفُور بِلَه جِكْ » من استفحال الأمر بعد أن قُتل أخوه في إحدى المعارك ، فأراد الغَدْر بعثمان ، فدعاه في سنة ٦٨٩ هـ إلى وليمة عرس ، وأعدّ رجالاً للفَتك به ، وكان رسول الدعوة يُسمّى « كوسه ميخال » ، وكان وفياً لعثمان وصديقاً له ، فأخبره

---

(١) بزنتيس : أي إمبراطورية الآستانة . انظر التحفة الحليمية ص : (٣٤) .

(٢) القسطنطينية سُمّيت باسم الملك قسطنطين الأكبر ، حيث بناها سنة ٣٢٤ م ، وكانت من قبل تُسمّى بيزنطة ، ثم صارت عاصمة الدولة العثمانية بعد أن فتحها السلطان محمد الفاتح كما سيأتي إن شاء الله ، وظلّت كذلك إلى أن نقل الأتراك عاصمتهم إلى مدينة أنقرة عام ١٣٤٢ هـ ، وسمّوا القسطنطينية باسمها التركي وهو استانبول ، وتقع القسطنطينية على ضفتي البوسفور الآسيوي والأوربي . انظر معجم البلدان : (٣٤٧/٤) ، وتاريخ الدولة العلية ص : (٦٨) .

(٣) قَرَه حِصَار ، أي : القلعة السوداء ، وتوجد بضعة أماكن في تركيا باسم قره حصار ، والمقصود هنا البلدة القريبة من قُونْيَه . انظر تاريخ الدولة العلية ص : (١١٨) .

سـرّاً بما نواه تكفور من الغدر ، فشكره عثمان على ذلك ، وأجاب الدعوة ، وقال له : إني سأحضر ، وبعـون الله لا يحصـل لي ضـرر . ثم جمع عثمان فرقة من شجعان الفرسان ، وجعل بعضهم كميناً ، وأرسل ٤٠ شجاعاً في زي مسـاكين إلى قلعـة بله جك ، وأمـرهم بضبط القلعـة حال إشـارته إليهم . ثم ذهب عثمـان إلى الوليمـة ، وجلس متيقظاً ، وإذا برسول أتاه بضبط القلعـة بمن أرسلهم ، فقـام وأظهـر شبـه الفـرار ، وإذا برجال الغـدر ظهـروا وراءه ، وعند وصولهم إلى مكان الكمين ظهـر عليهم ودار بينهم قتـال ، فانهزم رجال الغـدر ، واستولى عثمان على القلعة ، وأرسل في الحـال محافظاً لها ، وغنم العروس وما معها ، وزوّجها عثمان لابنه أورخان[1] .

وفي سنة (٦٩٩ هـ) انقرضت السّلطنة السّلجوقيّة بموت السلطان علاء الدين السلجوقي في « قُونْيَه »[2] بلا ذرية ، فاجتمع الوزراء والأعيان ، وقرّروا أنه لا يليق للسلطنة سوى عثمان الغازي ، فعَرَضوا عليه هذا الأمر ، فأجاب طلبهم ، وصار سلطاناً من ذلك التاريخ ، وجعل مقرّ سلطنته «يَكِي شَهِرْ»[3].

واشتغل في تنظيم البلاد ، حتى إذا أمن اضطرابها تجهّز للقتال ، فأرسل إلى جميع أمراء الروم ببلاد آسيا الصغرى يخيّرهم بين ثلاثة أمور : الإسـلام أو الجزية أو الحرب .

---

(١) انظر نصرة أهل الإيمان ص : (٥٤) ، والتحفة الحليمية ص : (٣٢) .

(٢) قُوْنِيَه : هي مدينة تقع في وسط تركيا إلى الجنوب من أنقرة ، وإلى الشمال من البحر الأبيض المتوسط . وكانت من أعظم مدن الإسلام بالروم . انظر معجم البلدان : (٤/٤١٥) .

(٣) يَكِي شَهِرْ ، معناها البلد الحديث ، وتلفظ الكاف نوناً ، أي : يني شهر ، وتقع إلى الشمال الشرقي من بروسه . انظر تاريخ الدولة العلية ص : (١١٨) .

فأسْـلَم بعضهم وانضمّ إليـه ، ودفع بعضهم الخراج والجـزية ، واستعـان الباقون بالتتار على السلطان عثمان ، فلم يعبأ بهم .

ثم إنّ السلطان عثمـان مَـرِض في سنـة (٧٢٦ هـ) ، وكان قد قضى معظم عمره في تأسيس هذه الدولة ، وأوصى بالملك من بعده لابنه أورخان ؛ لاتصافه بعلوّ الهِمَّـة والشَّجاعة والإقدام ، ثم تُوفي بعـد ذلك ، وكان مولده في سنـة (٦٥٦ هـ)[١] ، ودُفن في مدينـة « بُروسَـه »[٢] التي فتحهـا ابنـه السلطان أورخان الأول[٣] .

---

(١) قال إبراهيم بك حليم في تحفتـه « التحفة الحليمية » ص : (٣٣) : « من المصادفات الغريبة أن مولد هذا السـلطان كان قبل انقراض الخلفاء العباسيين في بغداد بسنة واحدة ، ولله تعالى في خلقه شؤون » اهـ . والصواب أنه في السنة نفسها ، والله تعالى أعلم .

(٢) بروسَـه : مـدينة بآسيـا الصغرى ، تُكتب أحيـاناً بالسين ، وأحيـاناً بالصـاد ، وبعضـهم يكتبهـا هكذا : بُورَصَـه ، وهي شهيرة بجودة هوائهـا ، وجمـال منـاظرها الطبيعيـة ، وكانت أول عاصمة للدولة العثمانية ، وظلت عدّة سنوات كذلك ، ثم انتقلت العاصمة إلى أدرنة ، ثم إلى استانبول انظر تاريخ الدولة العلية ص : (١١٩) .

(٣) انظـر نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان ص : (٥١) ، والتحفة الحليمية في تاريخ الدولة العليّة ص : (٣١ - ٣٣) ، وتاريخ الدولة العليّـة العثمـانية ص : (١١٣ - ١٢٠) ، وتاريخ الشعوب الإسـلامية لكارل بروكلمان ص : (٤٠٧ - ٤١٠) ، والدولة العثمانيـة والمسألة الشرقية للدكتور محمد كمال الدسوقي ص : (١١) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٩ - ٢٥) .

(٢) السلطان أورخان الأول :

هو السلطان أورخان الأول ابن عثمـان ، ولد سنـة (٦٨٠ هـ) ، وتولى السلطنة في : ٧٢٦/٩/١٧ هـ وعمره ٤٦ سنة ، ومدة سلطنته ٣٥ سنة ، وكانت عاصمته أولاً « يَكِي شَهِرْ » ، ثم نقل مقرّ الحكومة إلى مدينة « بروسه » لحُسْن موقعها ، واتخذ أخاه علاء الدين وزيراً له ، وفوّض له الأمور الإدارية ، وتنظيم الشؤون الداخلية ، وضرب النقود من الذهب والفضة باسم السلطان، فكان علاء الدين أول وزير في تاريخ الدولة العثمانية .

وقد انصرف أورخان أيضاً إلى العمليات الحربية ، فسارت العمليتان : البناء الداخلي والفتح العسكري جنباً إلى جنب ، وقد اتخذ لنفسه لقب سلطان ، وبذلك يكون أول العثمانيين في تلقيب نفسه بهذا اللقب .

وأما ما يتعلّق بالفتوحات العسكرية ، ففي سنة (٧٢٨ هـ) فتح السلطان أورخان بنفسه « إزْمِيْد»[١] و «قُيُوْنْ حِصار »[٢] ، وغيرهما .

وفتح مدينة « نِيْقْيَا »[٣] - إزْنيك الحالية - ، بعد أن حاصرها حصاراً شديداً لمدّة سنتين ، فسقط بسقوطها نفوذ الروم في بلاد آسيا .

---

(١) إزميد : مدينة يونانية قديمة بآسيا الصغرى ، وأصل اسمها : نيكوميدس . انظر تاريخ الدولة العليّة ص : (١١٨) .

(٢) قُيُونْ حِصار : مدينة تقع في شمال شرق بروسه ، وفي غرب مدينة يكي شهر . انظر الملحق رقم : (١٣) .

(٣) نِيقْيا : مدينة يونانية قديمة بآسيا الصغرى ، تقع في شرق بُروسَه بنحو ثمانين كيلومتراً ، وهي من أعمال استانبول على البرّ الشرقي ، وتُسمّى إزنيك أو إزنيق ، وفيها عقد النصارى أول مجمع لهم ، ولهم فيها اعتقاد عظيم . انظر معجم البلدان : (٥/٣٣٣) ، وتاريخ الدولة العليّة ص : (١١٩) .

وفي سنة (٧٣٦ هـ) ضمّ السلطان إلى مملكته الأراضي المطلّة على بحري مرمرة وإيجة ، وذلك باستيلائه على إمارة « قَرَه سِي »[1] ، بعد أن وقع الخلاف بين أمرائها ، ثم حاصر القسطنطينية ولكنه لم يتمكّن من فتحها .

وفي سنة (٧٥٩ هـ) استولى على جزيرة « غَالِيْبُولي »[2] بعد أن ضربها زلزال شديد أدّى إلى سقوط جزءٍ من أسوارها .

وأقام السلطان أورخان جيشاً منظماً من المسلمين . وهو أول جيش نظامي في تاريخ العالم ، وكان يُعرف باسم : « يَكِي جَرى » أي : العسكر الجديد أو القوة الجديدة ، وقد عُرف فيما بعد بالانكشارية .

وأصل فكرة تكوين الانكشارية كان للاستفادة من أعداد الأسرى الكبيرة التي كانت تقع في أيدي العثمانيين ، بتجنيدهم في الجيش العثماني[3] .

---

(١) قره سي : إمارة صغيرة في غرب الأناضول جنوب بحر مرمرة ، وإلى الشرق من بحر إيجة . انظر تاريخ الدولة العليّة ص : (١٢٤) .

(٢) غاليبولي أو جاليبولي تقع على ضفة بوغاز الدردنيل الذي هو الممر الوحيد بين بحار أوربا وبحر مرمرة ، وتبعد عن مدينة أدرنه بمائة وأربعين كيلومتراً ، وتقع في آخر مضيق الدردنيل في الجانب الأوربي . انظر تاريخ الدولة العلية ص : (١٢٦) .

(٣) وصاحب هذه الفكرة هو « قَـرَه خليل » ، وهو الذي صار فيما بعد وزيراً أولاً باسم : « خير الدين باشا » ، حيث أشار على السلطان أورخان بأخذ الأطفال والشبان من أسرى الحرب ، وفَصْلهم عن كل ما يذكّرهم بجنسهم وأصلهم ، وتربيتهم تربية إسلامية عثمانية ، بحيث لا يعرفون لهم أباً إلا السلطان ، ولا حرفة إلا الجهاد في سبيل الله ، ولعدم وجود أقارب لهم بين الأهالي فلا يُخشى من تحزّبهم معهم ، فأُعجب السلطان أورخان بهذا الرأي ، وأمر بإنفاذه . وأصل هذه الكلمة باللغة التركية : « يَكِي جرى » أو « يني جرى » ، ثم حُرّف بالعربية فصار يقرأ : انكشاري . وقد زاد عدد هذا الجيش ، حتى صار لايعوّل إلا عليه في الحروب . انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ص : (١٢٣) .

ثم فَرَض السلاطين منذ عهد أورخان على المناطق النصرانية التي فتحوها ضريبةً آدمية على العائلات النصرانية ، تسمّى ضريبة الغلمان[1] ، ويُطلق عليها في اللغة التركية : « دِيُوْ شِيرْمَه » ، فكان السلطان يرسل مندوبيّة إلى تلك الجهات ، ويكلّف كلا منهم بإحضار عددٍ معيّنٍ من الأطفال ، في سِنٍّ تتراوح ما بين العاشرة والرابعة عشرة ، وذلك عن طريق قسّيس القرية أو الناحية[2] .

ولم تكن هناك قاعدة ثابتة لاختيار الأطفال ، ولكن المندوبين كانوا بصفة عامة لا يأخذون طفلاً وحيد أبويه ، ولا يأخذون طفلاً في سنّ الرضاعة ، كما أن بعض المدن قد أُعفيت على مرّ السنين من أداء تلك الضريبة .

ومما يجدر ذكره أن الكثيرين من النصارى كانوا يُرحِّبون بهذا النظام ، الذي كان يتيح لأولادهم فرصة مستقبَلٍ لابأس به في ظِلِّ نظام الدولة العثمانية ، التي كانت تهتم بهؤلاء الأطفال أشدّ الاهتمام ، وتُخَصِّص لهم المدارس والمدرِّبين والمعلِّمين ، ليعلموهم اللغة التركية وفقه الإسلام وشريعته .

وكان الأطفال يُدرّبون جسمياً وعقلياً حتى تظهر مواهبهم ، ثم يُقَسّمون ؛ لكي يتلَقّى المتازون منهم دراسة خاصة تُؤهِّلهم لأن يشغلوا

---

(١) يقول الدكتور خلف الوذيناني : « وليس صحيحاً أنّ هؤلاء الغلمان كانوا يُقدّمون كجزية أو ضريبة كما يدّعي البعض ، ولا توجد وثيقة واحدة تشير أو تؤيّد هذا القول ، بل إن هذه الأسر نفسها كانت تتنافس في تقديم أبنائهم لإعجابهم بالانكشارية ... وطمعاً أن تنفتح أبواب وظائف الدولة أمام أبنائهم » . الدولة العثمانية والغزو الفكري ص : (٩٥) .

(٢) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان ص : (٤١٤) ، والدولة العثمانية والمسألة الشرقية للدكتور محمد كمال الدسوقي ص : (١٧ - ١٨) .

المناصب الإدارية في الحكومة والبلاط ، وقد وصل بعضهم إلى أرفع مناصب الدولة ، وكان منهم الوزراء ، أما بقية الأطفال فكانوا يُدَرَّبون تدريباً عسكرياً ، ثم يحوَّل أغلبهم إلى وحدات المشاة .

وقد وصل عدد الانكشارية عند منتصف القرن السادس عشر الميلادي إلى عشرة آلاف مقاتل ، يرأسهم آغا منهم أو ضابط ممن تربوا تربية عسكرية عالية في القصر السلطاني ، وكان يختار منهم مائة وخمسين من أمهر الرماة يحيطون بالسلطان إحاطة تامة عند خروجه للقتال ، وكان الانكشارية بمثابة القلب الأساسي للجيش العثماني ، وكان من أكبر وأهمّ العوامل التي ساعدت على امتداد سلطة الدولة العثمانية[1] .

وعلى كل حال فقد اتّسمت فترة سلطنة أورخان بأمرين :

الأول : اتّساع الفتوحات العثمانية في عهده .

والثاني : تنظيم الحكم في الدولة بعد اتّساع رقعتها ، وإصدار مجموعة من القوانين لاستتباب الأمن بالداخل ، وانتشار العمران ، وفتح المدارس ، وبناء الجوامع ، وقد عمل هذا التنظيم على استقرار الدولة .

مات السلطان أورخان بن عثمان سنة (٧٦١ هـ)[2] .

---

(١) انظر الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص : (٦٧) .

(٢) انظر نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان ص : (٥٤) ، والتحفة الحليمية ص : (٣٦) ، وتاريخ الدولة العلية العثمانية ص : (١٢٢) ، وتاريخ الشعوب الإسلامية ص : (٤١٠)، والدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص : (١٥) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٣٥) .

(٣) السلطان مراد الأول ة

ولد سنة (٧٢٦ هـ) ، وجلس على سرير الملك بعد وفاة والده السلطان أورخان سنة (٧٦١ هـ) ، وعمره ٣٥ سنة ، ومدة حكمه ٣٠ سنة .

كان السلطان مراد الأول محارباً قديراً ذا نزعة دينية قوية ، وكان عادلاً مع رعيته ، كريماً مع جنوده ، وقد أُولع ببناء المساجد والملاجىء والمدارس ، وجمع إلى جانبه مجموعة من خيرة القادة والخبراء العسكريين ، واستطاع أن يمضي في فتوحاته العسكرية في أوربا وفي آسيا الصغرى في وقتٍ واحدٍ تقريباً .

وكانت فاتحة أعماله احتلال مدينة « أَنْقَرَه »[١] مقرّ سلطنة القَرَمَان[٢] ، وافتتح في عهده مدينة « صُوفْيَا »[٣] و« سَلاَنِيْك »[٤] ، وحمل على أمراء البلقان فتساقطوا واحداً إثر واحد في قبضة العثمانيين .

وفي سنة (٧٦٢ هـ) فَقَدَ البيزنطيون مدينة « أَدِرْنَه »[٥] ذات الأهمية الاستراتيجية في البلقان ، حيث استولى عليها الجيش العثماني ، فاتخذ السلطان مراد من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية منذ عام (٧٦٧ هـ) ، واستمرت كذلك حتى سقوط القسطنطينية عام (٨٥٧ هـ) ، وبذلك انتقلت

---

(١) أَنقَرَه : مدينة قديمة تقع في قلب البلاد التركية ، وهي العاصمة الحالية منذ الحرب العالمية الأولى . انظر معجم البلدان : (٢٧١/١) ، وتاريخ الدولة العليّة ص : (١٢٩) .

(٢) تقع بلاد القَرَمَان مابين أنقره شمالاً ، والبحر الأبيض المتوسط جنوباً ، وقيصرية شرقاً ، وقونيه غرباً ، وكانت عاصمتها قونيه . انظر تاريخ الدولة العليّة ص : (١٣٤) .

(٣) صوفيا : هي عاصمة بلغاريا . انظر الملحق رقم : (١٤) .

(٤) سلانيك : مدينة رومية قديمة جداً، تقع في جنوب بلاد مقدونية . انظر الملحق رقم : (١٤) .

(٥) أدرنه : مدينة رومية تقع على ملتقى ثلاثة أنهر ، في الشمال الغربي من استانبول ، وفي شمال غاليبولي . وكانت ثاني مدينة في الإمبراطورية البيزنطية . انظر الملحق رقم : (١٣) .

عاصمة الدولة من آسيا الصغرى إلى أوربا ، وتحوّلت « أدرنه » من مدينة بيزنطية نصرانية إلى عاصمة عثمانية إسلامية .

وكان لانتصارات وفتوحات السلطان مراد الأول أصداء بعيدة ، فقد تكوّن تحالف أوروبي بلقاني صليبي باركه البابا أوربان الخامس ، وضمّ هذا التحالف كلاً من الصربيين والبلغاريين والمجريين ، واستطاعت دول التحالف أن تحشد جيشاً بلغ عدده ستين ألف جندي ، وقد تصدّى لهم القائد العثماني « لاله شاهين » بقوة تقلّ عدداً عن القوات المتحالفة ، وقابلهم على مقربة من « تشيرمن » على نهر مارتيزا ، حيث وقعت مذبحة مروّعة ، واضطرب نظام الجيش المتحالف ، ولاذ بالفرار الأميران الصربيان ، ولكنهما غرقا في نهر مارتيزا ، ونجا ملك المجر ، واستمر السلطان مراد يستولي على مدن الدولة البيزنطية وبلغاريا وصربيا الواحدة تلو الأخرى .

وما لبث أن واجه العثمانيون تحالفاً بلقانياً صليبياً ، فقد عقد « لازار » ملك الصرب معاهدة تحالف مع « شيشمان » ملك بلغاريا ، واستهدف الملكان إعداد حملة جرّارة ضد العثمانيين ، فضمّت هذه الحملة قوات من الصرب وبلغاريا ، وكذلك من البوسنة والهَرْسَك ، ومن ألبانيا وبولندا والمجر ، وبلغت القوات التي حُشِدت قرابة مائتي ألف جندي .

وقد استطاع السلطان مراد الأول الانتصار على ذلك التحالف الكبير سنة (٧٩٢ هـ) في معركة « قُوصْ أُوه »[١] العظيمة ، فقد التقى العثمانيون بتلك القوات الضخمة في ميدان الطيور السود «قُوص أوه» حيث تنبع الأنهار

(١) قوص أوه : هي مدينة كوسوفو اليوم ، ومعنى قوص : كبير أو واسع ، وأوه معناه السهل انظر تاريخ الدولة العليّة ص : (١٣٥) .

الثلاثة : إيبار وفارادار ودَرِينة .

وكان السلطان مراد يقود الجيش العثماني بنفسه ، وكانت المعركة عنيفة تنازع فيها الفريقان راية النصر غير مرة ، بيد أن العثمانيين مالبثوا أن حملوا على الأعداء حملةً منكرةً ، فأدهشتهم وانهزموا شَرَّ هزيمة ، وأُسِر منهم كثيرون ، وقُتل ملك الصرب « لازار نوفتش » ، بعد أن انْفَضَّ حلفاؤه من حوله .

وبعد تمام النصر والغلبة للعثمانيين مرّ السلطان مراد بين القتلى ، فقام من بينهم جندي صربي جريح اسمه « ميلوش كوبلوفتش » ، وأظهر حركة يرى منها أن مراده تقبيل قدمي السلطان بعد أن أظهر إسلامه ، وإذا به قد أخرج خنجراً من ملابسه ، وطعن به السلطان طعنة في بطنه ، كانت هي القاضية عليه ، وذلك سنة (٧٩١ هـ) ، ونُقلت جثته إلى مدينة «بُروسَه» .

وكان من أهم نتائج معركة قوص أوه ما يأتي :

١- ضياع استقلال بلاد الصرب .

٢- انتشار الإسلام بين الصربيين[1] .

---

(١) انظر نصرة أهل الإيمان ص : (٥٥ - ٥٧) ، والتحفة الحليمية ص : (٣٩ - ٤٥) ، وتاريخ الدولة العلية ص : (١٢٩ - ١٣٦) ، وتاريخ الشعوب الإسلامية ص : (٤١٦ - ٤١٩) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٣٧ - ٤٠) .

(٤) السلطان بايزيد الأول :

وهو الملقّب بيِلْدِرِمْ ، أي : البرق أو الصاعقة ، وسبب تلقيبه بذلك هو سرعة حركاته الحربية ، وشدّته على الأعداء ، وقد ولد سنة (٧٦١ هـ) ، وجلس على سرير الملك عقب وفاة أبيه سنة (٧٩١ هـ)، وعمره ثلاثون سنة .

وبويع له بميدان الحرب في « قُوصْ أُوه » ، ثم قام بالجيش وعاد إلى العاصمة ، وبنى المسجد المشهور باسمه في « بروسَه » .

لم يكن السلطان بايزيد الأول أقلّ حماساً من أبيه في الفتوحات ، فاهتمّ اهتماماً كبيراً بالشؤون العسكرية ، وتوجّه صوب الإمارات البيزنطية في الأناضول .

وقد أغار على الدولة العثمانية الأعداء من عدة جهات ، وفي كل مرة يقوم السلطان بمحاربتهم إما بنفسه وإما بأعوانه ، ثم يعود منتصراً عليهم في كل مرة .

وفي سنة (٧٩٦ هـ) اتفق حكام الونديك والإفرنج والجَنَويز براً وبحراً على محاربة العثمانيين ، فأرسلوا سفنهم إلى « سَلاَنيك » ، ومنها تجاوزوا الحدود العثمانية ، فذهب السلطان إليهم وانتصر عليهم براً وبحراً ، واستولى على قلعة « سَلاَنيك » و « يَكِي شَهِرْ » وتوابعهما ، ثم عاد إلى « بروسه » .

ورأى السلطان بايزيد أن يقيم علاقات ودّية مع ماتبقّى من دولة الصِّرْب ، هادفاً من هذه السياسة اتخاذ الصِّرب دولة حاجزة بينه وبين المجر ، إذ كان يخشى أن تنتهز فرصة انشغاله في الجبهة الأناضولية فتغير على الأقاليم في البلقان ، إضافة إلى أنه كان يريد أن يتخذ من دولة الصرب حليفة له في

الحـروب التي كان لابد له مـن خوضهـا ؛ لأنه وطّد العـزم على اتّبـاع سيـاسة حربيـــة نشيطة تستهدف ضمّ الإمـــارات السلجوقية التركية في آسيـــا الصغرى ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وبعد أن فرغ من هذا التخطيط السياسي قام السلطان بايزيد عام (٧٩٧ هـ) باكتسـاح بلغـــاريا ، وإخضـاع سكانهـا ، وبذلك فقدت البـلاد استقـلالها السياسي ، وكان لسقوط بلغاريا في أيدي العثمانيين دويٌّ هائل في أوربا .

وقد أدّى ذلك إلى مواجهة الدولة العثمانية تكتّلاً دولياً نصرانياً صليبياً ، كان أكبر التكتلات في ذلك القرن من حيث عدد الدول التي اشتركت فيـه ، والقوات والأموال والسـلاح التي أُسهِمت فيـه ، وقد دعت إلى هـذا التّكتّـل شخصيتان هما : سيجسموند ملك المجر ، والبابا بونيفاس التاسع .

وقد بلغ عدد قوات هذه الحملة الصليبية أكثر من مائة وعشرين ألف مقاتل من مختلف الجنسيات : من ألمانيا وفرنسا وإنجلترا واسكتلندا ولوكسمبرج وبعض الإمارات الإيطالية .

وسارت الحملة عام (٨٠٠ هـ) إلى المجــر ، ولكن قادتهـــا اختلفوا مع سيجسموند قبل بدء المعركة ، فقد كان سيجسموند يؤثر الانتظار حتى يبدأ العثمــــانيون بالهجوم ، ولكن قواد الحملة رأوا أن يبــــدؤوا هم بالهجوم ، فانحدروا مع نهر الدانوب حتى وصلوا إلى مدينة « نِيكُوبُولِسْ »[1] ، وشرعوا في حصارها ، وتغلّبوا في أول الأمر على القوات العثمانية ، إلا أن بايزيد ظهر

---

(١) نيكوبولس ، وتسمى نيكوبلي أو نيكوبول ، ومعناها مدينة النصر ، وهي مدينة رومية تقع في شمال بلغاريا على حدود رومانيا . انظر تاريخ الدولة العليّة ص : (١٣٥) .

فجأةً ومعه حوالي مائة ألف جندي ، وهو عدد يقلّ قليلاً عن الصليبيين ، ولكنه يتفوّق عليهم نظاماً وسلاحاً ، فاضطر معظم الصليبيين إلى الفرار ، بعد أن قُتل بعضهم ، وأُسِر آخرون ، وخرج العثمانيون من هذه المعركة بغنائم وفيرة ، وأسلحة كثيرة .

وقد أدّى انتصار العثمانيين على هذا التكتّل الدولي الصليبي إلى توطيد أقدامهم في البلقان ، وخضعت كل من البوسنة وبلغاريا خضوعاً تاماً ، وحاول السلطان بايزيد الأول الاستيلاء على القسطنطينية ، بعد حصارها والضغط عليها ، وبينما كانت أوربا تتوقّع سقوط القسطنطينية بين يوم وآخر إذا بالسلطان ينصرف عن فتحها ليوجّه كلّ طاقاته لدفع خطر كبير في آسيا الصغرى .

ففي سنة (٨٠٢ هـ) استفحل أمر تيمورلنك المغولي ، وصار يسلب بلاد الإسلام من أيدي ملوكهم في آسيا الوسطى، حتى وصل إلى بغداد وأذربيجان .

وفي سنة (٨٠٣ هـ) ازداد تسلطه على أملاك الدولة العثمانية يوماً بعد يوم ، فهدم قلعة « سيواس »[١] ، وقتل محافظها أرطغرل بك ابن السلطان با يزيد ، ثم ذهب إلى الشام واستولى على حلب وحماه وحمص وبعلبك .

وفي سنة (٨٠٤ هـ) دعاه السلطان با يزيد للحرب ، فحضر ومعه عشرين أميراً مستقلين تحت حمايته ، ووصل السلطان با يزيد بجيشه إلى «تُوْقَات »[٢] والتقى الجمعان في أنقرة في يوم الجمعة ١٩ ذي الحجة سنة (٨٠٤ هـ) ، وكان

---

(١) سيواس : مدينة تقع في شمال شرق تركيا . انظر الملحق رقم : (١٣) .

(٢) توقات أو توكات : مدينة تقع في شمال شرق تركيا . انظر الملحق رقم : (١٣) .

جيش تيمورلنك سبعمائة ألف ، وجيش السلطان بايزيد مائة وعشرين ألفاً ، فلما رأى العساكر التتار الموجودون ضمن جيش با يزيد أن جيش تيمورلنك تتراً مثلهم ، تركوا با يزيد وانضموا إلى جيش تيمورلنك ، وكانوا خمسين ألفاً ، فانهزم جيش با يزيد ، وأما هو فلم ينهزم ولم ييأس من النّصرة ، بل صعد مع خواص رجاله على ربوة . وأما تيمورلنك فإنه أرسل محمود خان من نسل جنكيز خان بفرقة للقبض على با يزيد ، فلما وصل إليه انكب فرس با يزيد به ، فأُخذ إلى تيمورلنك أسيراً ، وبعد أربعة أشهر من أسره مات السلطان با يزيد سنة (٨٠٥ هـ) بالغاً من العمر أربعاً وأربعين عاماً ، فأرسل تيمورلنك جنازته مع ابنه موسى جلبي إلى « بروسَه » ، ودفن بجوار مسجده[1] .

وبعد موت السلطان با يزيد حصل اختلالٌ كُلّي في الممالك العثمانية ، وحدثت وقائع مدة اثني عشر سنة بدون سلطان ، وتزاحم أولاد با يزيد على السلطنة ، وهم : سليمان شاه ، وموسى جلبي ، وعيسى جلبي ، ومحمد جلبي، وقاسم جلبي ، ومصطفى جلبي . وقد وصل الأمر بهم إلى حدّ المواجهة العسكرية ، فقُتل بعضهم ، واستولى بعضهم الآخر على الخزينة وبعض الممالك ، لكنهم لم يلبثوا في الملك مدّة طويلة .

وفي سنة (٨١٧ هـ) عاد محمد جلبي إلى روم إيلي وأُعلن بجلوسه على عرش السلطنة بعد أن قتل أربعة من إخوانه حرباً[2] .

---

(١) انظر التحفة الحليمية ص : (٤٦ - ٤٩) ، وتاريخ الدولة العلية العثمانية ص : (١٣٧ - ١٤٨) ، وتاريخ الشعوب الإسلامية ص : (٤١٩ - ٤٢٤) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٤٠ - ٤٤) .

(٢) انظر التحفة الحليمية ص : (٤٦ - ٥١) .

(٥) السلطان محمد جلبي الأول :

ولد هـذا السلطان سنـة (٧٨١ هـ) ، واشتهـر باسم السلطان محمد جلبي الغـازي ، وكانت مـدة حكمـه كلها حروباً داخلية لإرجاع الإمارات التي استقلّت في مدة الفوضى ، ومع أنه لم تكن له فتوح حربية ، إلا أنه قد أسدى إلى الدولة خدمة جليلة ؛ إذْ أزال آثار هزيمة معركة أنقرة ، وعمل على تنظيم الدولة ، بحيث مهّد الطريق أمام خلفائه السلاطين ليتابعوا سياسة التوسّع الإقليمي من جديد ، سواء في أوربا أو في غيرها .

ومما يؤثر عن هـذا السلطان أنه كان شـديد البأس وافر النشـاط ، وقد استعمل الحزم مع الحلم في معاملة من قهرهم ممن شقّ عصا الطاعة للدولة ؛ فإنه لما استقل أمير القرمان ببعض البلدان عفا عنه بعد أن أقسم له بألّا يخون الدولة فيما بعد ، وعفا عنه ثانية بعد أن حَنَثَ في يمينه ، وفي سنة (٨١٩ هـ) غـدر حاكم الأفلاق المسيحي ، وعصى السلطان بدسـائس واتفـاق من ملك المجـر ، فاضطـر السلطان إلى الذهـاب إليـه ، ولما رأى الحـاكم كثرة جيش السلطان خاف وطلب العفـو على أن يدفع ذخيرة ثلاث سنوات ، فقبـل منه ، وسحب جيشه ، وذهب به إلى بلاد المجر ، فلما وصل ونظر الملك كثرة الجيش أرسل إلى السلطان ثلاثة أمراء من عائلته بهدية عظيمة طلباً للصلح متعهـداً بعـدم غَدْرِه مـرة أخرى ، فقبـل ورجع ، ثم قام السلطان محمد جلبي بإخماد عدة فِتَنٍ داخلية بنفسه ، ومات سنة (٨٢٤ هـ) ، وخلفـه في السلطنة ابنه مـراد الآتي[١] .

---

(١) انظـر التحفـة الحليمية ص : (٥٢ - ٥٤) ، وتاريخ الدولة العليّة ص : (١٤٩ - ١٥٢) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٤٤) .

(٦) السلطان مراد الثاني :

ولد سنة (٨٠٦ هـ) ، وتولى الحكم وعمره ثماني عشرة سنة ، ومدة حكمه أكثر من ثلاثين سنة ، وافتتح أعماله بإبرام الصلح مع أمير القَرَمَان والاتفاق مع ملك المجر على هدنة خمس سنوات ، حتى يتفرّغ لإرجاع من شق عصا الطاعة من ولايات آسيا ، ثم إنه اجتهد في الإصلاحات الداخلية .

وحدث في مستهلّ حكمه أن مانويل إمبراطور الدولة البيزنطية عمل على إثارة المتاعب في وجهه ، فاتخذ من مصطفى بن با يزيد عمّ السلطان مراد الثاني وسيلة لهذه الغاية ، وقام بتحريضه وإغرائه بأنه أحق بالملك من ابن أخيه ، وأخرجه من منفاه ، وأعطاه عشرة مراكب بحرية ، وجمع حوله من العساكر عدداً كبيراً ، فسار مصطفى بعد ذلك لمقابلة ابن أخيه مراد الثاني ، فدبّر السلطان ووزراؤه أن يفهموا أعوان مصطفى بأن هذه مكيدة وفتنة من ملك الروم ، فتفرّق عنه جيشه ، وخانه بعض قواده ، فلاذ بالفرار إلى مدينة « غَالِيْبُولي » ، فلحقه السلطان وقبض عليه وقتله .

وبعد ذلك أراد السلطان مراد الانتقام من ملك الروم ، فسار إليه بخيله ورَجله ، وحاصر مدينته ، ثم هاجمها في رمضان سنة (٨٢٥ هـ) ، وبعد قتال عنيف رجع العثمانيون بدون أن يتمكنوا من فتحها .

ومع ذلك فمازال الإمبراطور مانويل الثاني يكيد للسلطان كيداً ، فاستطاع أن يحتضن شقيقاً للسلطان مراد الثاني اسمه مصطفى ، ولم يكن يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، ووضعه على رأس قوة استولت على مدينة «نيقيا » واستعان ببعض أمراء آسيا الصغرى على شق عصا الطاعة ، وعندما بلغ

السلطان خبر عصيان أخيه مصطفى ، ســـار إليه ، فقبض عليه وقتله ، فقتل السلطان عمّه مصطفى وأخيه مصطفى .

وبعد ذلك قرّر السلطان مراد أن يقتصّ من الإمبراطور باحتلال مدينة « سلانيك » ، فهاجمها ودخلها عنوة في سنة (٨٣٣ هـ) ودمّرها تدميراً .

وقد تجدّدت الحرب بين العثمانيين والمجريين ، فهزمهم السلطان شرّ هزيمة ، وأَسَر منهم سبعين ألف جندي ، وتقدّم لفتح « بَلْغِراد »[1] عاصمة الصّرب ، وسرعان ماتكوّن حلف صليبي كبير ، شمل المجر وبولندا والصرب وبلاد الأفلاق والبندقية وألمانيا والتشيك ، وحدثت معارك ضارية استمرّت عدّة سنوات انتهت بفوزٍ ساحقٍ للعثمانيين .

وفي سنة (٨٣٣ هـ) ظهر في « بروســـه » وبـــاءٌ عظيمٌ ، ثم زلزلة ، ثم قحط ، فمات كثيرون ، ومنهم أولاد السلطان .

كان السلطان مراد الثاني قائماً بدفع الكفار والتّوجّه لغزوهم ، فكان خير ملوك زمانـــه حزماً وعزماً وكرماً وشجاعة .

وفي سنة (٨٥٥ هـ) مرض السلطان ، وكتب وصيته ، واستدعى ابنه محمداً ، وأمر الصدر الأعظم بتنفيذ وصيته ، ثم مات ودفن ببروسه [2] .

---

(١) بلغراد : معناها المدينة البيضاء ، وهي مدينة حصينة على نهر الطونة بالقرب من مصبّ نهر ساف ، وهي عاصمة مملكة الصرب . انظر تاريخ الدولة العليّة ص : (١٥٥) .

(٢) انظر التحفة الحليمية ص : (٥٦ - ٦٣) ، وتاريخ الدولة العليّة العثمانية ص : (١٥٣ - ١٥٩) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٤٤ - ٤٧) .

(٧) السلطان محمد الثاني الفاتح :

وُلِد سنة (٨٣٣ هـ) ، وتولى الحكم بعد وفاة أبيه ، ومدة سلطنته إحدى وثلاثون سنة ، وكان مَلِكاً عظيماً ، اقتفى أثر أبيه في دفع الفِرَنج ، وفاق عليه بمزاحمة العلماء ورغبته في لقائهم ، وتعظيم من يرد عليه منهم .

وقد بنى مدارس العلم ، وأجزل العطية للمدرسين وطلبة العلم ، وجعل لهم مرتبات شهرية وسنوية ، وصار إذا سمع بعالِم في أي مكان ، أُحضر إليه ، ولما رأى العلماء رغبة السلطان في العلم وأهله أتوا إليه من سائر الجهات[١] .

وحقق الله تعالى على يديه بشرى نبينا محمد ﷺ بفتح القسطنطينية ، التي امتنعت على من قبله من الحكام والسلاطين، فسُمّي السلطان محمد الفاتح .

روى الحاكم بسنده عن عبد الله بن بِشْر الغَنَوي[٢] قال : حدثني أبي[٣] . قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِيْنِيَّة، وَلَنِعْمَ الأمِيْرُ أَمِيْرهَا ، وَلَنِعْمَ الجَيْشُ ذَلِكَ الجَيْش »[٤] .

---

(١) انظر نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان ص : (٦٧) .

(٢) ويُقال الخَثْعَمِي، أبو عُمَيْر الكوفي الكاتب . قال أبو حاتم : شيخٌ كان كاتبَ شيخٍ كان لشعبة. وذكره ابن حِبّان في الثِّقات ، وقال الذهبي وابن حجر : صَدُوق . انظر الجرح والتعديل : (٦٣/٥)، وتهذيب الكمال: (٣٣٩/١٤)، والميزان: (١٧/٧)، وتقريب التهذيب ص: (٢٩٧) .

(٣) بِشْر الغَنَوي ويُقال الخَثْعَمِي، مصري له صحبة . انظر الإصابة في تمييز الصحابة: (١٦٢/١) .

(٤) المستدرك على الصحيحين : (٤٢٢/٤) ، وانظر مسند الإمام أحمد : (٣٣٥/٤) ، والمعجم الكبير للطبراني : (٣٨/٢ ح ١٢١٦) ، ومجمع الزوائد : (٢٢٢/٦) ، وسلسلة الأحاديث الضعيفة : (٢٦٨/٢ ح ٨٧٨) . وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي : «رجاله ثقات » ، وقال الألباني : « وجملة القول إن الحديث لم يصح عندي لعدم الاطمئنان إلى توثيق ابن حبان للغنوي هذا » .

لقد كان السلطان محمد الثاني منذ الأيام الأولى لحكمه يفكر في الاستيلاء على مدينة القسطنطينية ؛ لأنها كانت تتخذ وكراً للمؤامرات التي تُدبّر ضدّ الدولة العثمانية ، ولذلك استعدّ السلطان سياسياً وعسكرياً للاستيلاء على القسطنطينية .

وكان من بين تلك الإجراءات السياسية التي اتخذها أنه جدّد المعاهدات والهدنات مع جميع جيرانه الذين تربطهم بالدولة علاقات معيّنة مثل البندقية وجَنْوَة والصِّرب وغيرها ، وكان هدفه من وراء ذلك عزل الدولة البيزنطية سياسياً وعسكرياً عن الدول والإمارات المجاورة أو المتاخمة لها .

وأما عن الإجراءات العسكرية ، فقد أكمل إقامة المنشآت التي بدأها السلطان بايزيد الأول على مقربة من القسطنطينية ، وكان هذا السلطان قد شيّد قلعةً على الجانب الآسيوي من البوسفور ، فشيّد السلطان محمد الثاني على الجانب الأوربي للبوسفور قلعة أخرى على بعد لا يتجاوز سبعة كيلو مترات من أبواب القسطنطينية عند أضيق نقطة من البوسفور ، وبهذا العمل فقد سيطر العثمانيون على ضفتي البوسفور .

وقد وصف محمد فريد بك المحامي[1] فتح القسطنطينية ، فذكر أنه في عام (٨٥٧ هـ -١٤٥٣ م) حاصر السلطان المدينة من جهة البر بجيش يبلغ عدده مائتين وخمسين ألف جندي ، ومن جهة البحر بمائة وثمانين سفينة ، وأقام حول المدينة أربعة عشر مدفعية جسيمة ، صنعها صانع مجري شهير اسمه

---

(١) هو محمد فريد بك ابن أحمد فريد باشا المحامي ، وُلد بالقاهرة من أصل تركي ، وتعلّم في مدرستي الألسن والحقوق ، وولي نيابة الاستئناف ، ثم احترف المحاماة ، ثم انتخب رئيساً للحزب الوطني بمصر . مات سنة ١٣٣٨ هـ . انظر الأعلام : (٣٢٨/٦) .

أوربان ، فكانت تقذف كرات من الحجر إلى مسافة ميل ، وفي أثناء الحصار اكتشف قبر أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه الذي استشهد حين حصار القسطنطينية سنة (٥٢ هـ)[1] .

ولما شاهد قسطنطين آخر ملوك الروم هذه الاستعدادات استنجد بأوربا ، فلبّى طلبه أهالي «جنوة»[2]، وأرسلوا له عمارة بحرية تحت إمرة جوستنياني ، فأتى بمراكبه وأراد الدخول إلى ميناء القسطنطينية ، فعارضته السفن العثمانية ، وجرت بينهم حرب هائلة في يوم ١١ ربيع الثاني انتهت بفوز جوستنياني ودخوله الميناء بعد أن رفع المحصورون السلاسل الحديدية التي وضعت لمنع المراكب العثمانية من الوصول إليها ، ثم أُعيدت بعد مروره كما كانت .

بعد ذلك أخذ السلطان يفكر في طريقة لدخول مراكبه إلى الميناء لإتمام الحصار براً وبحراً ، فخطر بباله فكرة غريبة ، وهي أن ينقل المراكب على البر ليجتازوا السلاسل الموضوعة لمنعه ، وتمّ هذا الأمر المستغرب بأن مهّد طريقاً على البر طوله ستة أميال ، ورُصّت فوقه ألواح من الخشب صُبّت عليها كمية كبيرة من الزيت والدهون لسهولة انزلاق المراكب عليها ، وبهذه الكيفية أمكن نقل نحو سبعين سفينة في ليلة واحدة .

وعندما أصبح النهار ورأى المحصورون تلك السفن أيقنوا ألّا مناص من نصر العثمانيين عليهم ، وفي يوم ١٥ جمادي الأولى أرسل السلطان محمد إلى

---

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد : (٤٨٤/٣) ، وأسد الغابة : (٩٤/٢) ، وتهذيب الكمال : (٦٦/٨) ، وسير أعلام النبلاء : (٤٠٢/٢) ، والإصابة في تمييز الصحابة : (٨٩/٢) .

(٢) جنوة مدينة قديمة جداً ، وهي الآن تابعة لإيطاليا . انظر الملحق رقم : (١٤) .

قسطنطين يخبره أنه لو سلّم البلد إليه طوعاً يتعهد له بعدم مسّ حرية الأهالي أو أملاكهم ، وأن يعطيه جزيرة « مُوْرَه »[1] ، فلم يقبل قسطنطين ذلك ، بل آثر الموت على تسليم المدينة .

وفي ليلة ٢٠ جمادي الأولى أشعل الجنود العثمانيون الأنوار أمام خيامهم ، وظلوا طوال الليل يهلّلون ويكبِّرون ، حتى إذا لاح الفجر صدرت إليهم الأوامر بالهجوم في ذلك اليوم ، فهجم مائة وخمسون ألف جندي ، وتسلّقوا الأسوار ، ودخلوا المدينة من كل فجٍّ ومن كل مكان ، وأعملوا السيف فيمن عارضهم ، ودخلوا كنيسة القديسة صوفيا ، وسُمّيت المدينة إسلامبول أو استانبول ، أي مدينة الإسلام .

ثم دخل السلطان محمد الفاتح المدينة عند الظهر بعد أن قُتل قسطنطين ملك الروم ، وأصدر أوامره للجنود بعدم السلب والنهب ، ثم زار كنيسة أياصوفيا وأمر أن يُؤذّن فيها بالصلاة إعلاناً بجعلها مسجداً جامعاً للمسلمين .

وبعد تمام هذا الفتح العظيم أعلن في كافة الجهات أنه لا يعارض في إقامة شعائر ديانة المسيحيين ، بل إنه يضمن لهم حرية دينهم وحفظ أملاكهم ، فرجع من هاجر من المسيحيين ، وأعطاهم نصف الكنائس ، وجعل النصف الآخر جوامع للمسلمين[2] .

ثم عاد السلطان إلى « أدرنه » بعد أن أمر ببناء حصون القسطنطينية من جديد ليجعل من هذه المدينة عاصمة له ومقراً ، وبنى فيها جامعاً كبيراً في قلب

(١) موره : هي شبه الجزيرة الكبيرة التي تشكّل الجزء الجنوبي من بلاد اليونان التي توجد فيها مدينة أثينا . انظر تاريخ الدولة العليّة ص : (١٥٨) .

(٢) انظر تاريخ الدولة العليّة ص : (١٦٠ - ١٧٨) .

العاصمة سُمّي بجامع السلطان محمد الفاتح ، استمر بناؤه قرابة ست سنوات ، فإذا الجامع أروع آثار العمارة العثمانية وأقربها إلى الكمال [1] .

وقد فتح الله تعالى على يد السلطان محمد أيضاً مملكة طرابزون الرومية وبلاد الصرب والبوسنة والبوشناق وألبانيا (الأرنؤوط) وجميع أقاليم آسيا الصغرى ، فدانت له إمبراطورية عظيمة ، وكان قد وضع قدميه على جانبي بحر الأدرياتيك ، وأشرف على حدود إيطاليا ، بل وأوربا كلّها .

وكانت مهارة السلطان محمد الفاتح في الأعمال المدنية تعادل خبرته في الأعمال الحربية ، فإليه ينسب ترتيب الحكومة على نظام جديد : فسمّى الحكومة العثمانية نفسها بالباب العالي ، وجعل لها أربعة أركان : الوزير ، وقاضي عسكر ، وناظر المالية الذي يُسمى بـ (الدفتردار) ، وكاتب سرّ السلطان الذي يُسمى بـ (نيشانجي) .

ثم بعد امتداد سلطة الدولة العثمانية في جهة أوربا جعل لها قاضي عسكر مخصوص يُسمّى قاضي عسكر الروم إيلي ، وقاضي عسكر آخر للأناضول ، ثم رتّب وظائف الجند فجعل للانكشارية رئيساً يُسمّى (آغا) وآخر للبحرية وثالثاً يختص بذخائر الجيش ومؤونته .

مات السلطان محمد الفاتح سنة (٨٨٦ هـ)[2] .

---

(١) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ص : (٤٣٣) .

(٢) انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ص : (١٦٠ - ١٧٨) ، والدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص : (٣٣ - ٤٨) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٤٧ - ٥٠) .

(٨) السلطان بايزيد الثاني :

هو السلطان با يزيد ابن السلطان محمد فاتح القسطنطينية ابن السلطان مراد ، ولد سنة (٨٥١ هـ) ، وجلس على كرسي الملك بعد وفاة والده السلطان محمد الفاتح سنة (٨٨٦ هـ) ، ومدة سلطنته اثنتان وثلاثون سنة ، وعاصمته القسطنطينية ، كان من أعيان الملوك الأكابر ، وممن ورث السلطنة كابراً عن كابر ، وكان محباً للخيرات ، مثابراً على البر والصدقات ، يميل إلى العلماء والصلحاء ، ويعرف حقوق الفضلاء والنبلاء .

بنى الجوامع والمدارس ، ورتّب للمفتي الأعظم في زمانه كل عام عشرة آلاف عثماني ، وكذلك رتّب لمشايخ الصوفية ومريديهم وأهل الزوايا ما يليق بهم ، وصار ذلك قانوناً جارياً بعده مستمراً ، وكان يحب أهل الحرمين الشريفين ويحسن إليهم ، وكان يجهز إلى فقراء الحرمين كل سنة أربعة عشر ألف دينار ذهباً ، يصرف نصفها على فقراء مكة المكرمة ، ونصفها الآخر على فقراء المدينة النبوية ، وكان يكرم الواردين عليه من أهل الحرمين الشريفين أو من غيرهما ، ويصلهم ويحسن إليهم ، حتى ألّف الشيخ جمال الدين ابن المِبْرَد الحنبلي الصالحي الدمشقي[1] في مدحه ومناقبه مؤلفاً مستقلاً ، وصنّف الشيخ شهاب الدين أحمد بن الحسين العُلَيْف[2] شاعر مكة باسمه تاريخاً سماه : « الدر المنظوم في مناقب السلطان با يزيد ملك الروم » ،

---

(١) هو يوسف بن حسن بن أحمد بن عبد الهادي الصالحي ، جمال الدين ، ابن المِبْرَد ، علاّمة متفنن من فقهاء الحنابلة ، من أهل الصالحية بدمشق . مات سنة ٩٠٩ هـ . انظر الأعلام للزركلي : (٢٢٥/٨ ، ٢٢٦) .

(٢) هو أحمد بن الحسين بن محمد المكي شهاب الدين ، ابن العُلَيْف ، من أهل مكة مولداً ووفاةً . مات سنة ٩٢٦ هـ . انظر الأعلام : (١١٧/١) .

وكتب في مدحه قصيدة رائية طنّانة مطلعها :

خُذُوا مِنْ ثَنَائِي مُوْجِبَ الحمدِ وَالشُّكْرِ
وَمِنْ دُرِّ لَفْظِي طَيِّبَ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ

ومنها :

إِلى مَلِكٍ لا يَبْلُغُ الوَصْف كُنْهَهُ
شَرِيْفُ المَسَاعِي نَافِذُ النَّهْيِ وَالأَمْرِ

إِلى بَايَزِيْد الخَيْرِ وَالمَلِكِ الّذي
حَمَى بَيْضَةَ الإِسْلامِ بِالبِيْضِ وَالسُّمْرِ

وَجَرَّدَ لِلدِّيْنِ الحَنِيْفِيّ صَارِماً
أَبَادَ بِهِ جَمْعَ الطَّواغِيْتِ وَالْكُفْرِ

وَجَاهَدَهُمْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ
رَجَاءً لِمَا يَبْغِيْ مِنَ الْفَوْزِ وَالأَجْرِ

أَطَاعَ لَهُ مَا بَيْنَ رُوْمٍ وَفَارِسٍ
وَدَانَ لَهُ مَا بَيْنَ بُصْرَى إِلى مِصْرِ

سَلِيْلُ بَنِيْ عُثْمَانَ وَالسَّادَةِ الأُوْلَى
عَلاَ مَجْدُهُمْ فَوْقَ السِّماكين وَالنَّسْرِ

مُلُوكُ كِرَامُ الأَصْلِ طَابَتْ فُرُوعُهُمْ
وَهَلْ يُنْسَبُ الدِّيْنَارُ إِلاّ إِلى التِّبْرِ

وهي قصيدة طويلة ، ويحكى أنها لما وصلت إلى السلطان بايزيد سُرّ بها وأمر لقائلها أحمد العليف بألف دينار جائزة ، ورتّب له في كل عام مائة دينار ذهباً كانت تصل إليه في كل عام ، وصارت لأولاده من بعده .

ولم تزد أملاك الدولة العثمانية في زمانه إلا قليلاً لحُبِّه السِّلْم وحَقْن الدماء ، فكانت حروبه الخارجية اضطرارية للمدافعة عن الحدود حتى لا يستخفّ بها أعداؤها .

وكان قد استولى على السلطان بايزيد في آخر عمره مرض النقرس ، وضعف عن الحركة ، وترك الحروب والسفر سنين متعددة ، وكان سليم بن السلطان بايزيد محباً للحرب ومحبوباً لدى الجند عموماً والانكشارية خصوصاً ، وقد عَيَّنه السلطان والياً على إحدى الولايات فلم يَرْضَ ، وطلب من أبيه أن يعينه في إحدى ولايات أورُبا ، فلم يقبل السلطان بذلك .

ثم سار سليم إلى «أدرنة» وأعلن نفسه سلطاناً عليها ، فأرسل والده إليه من هزمه وألجأه إلى الفرار ، لكن السلطان عفا عن ابنه سليم بإلحاح من الانكشارية ، فلما رأى السلطان ميل العساكر إلى سليم استشار وزراءه في أمره ، فأشاروا إليه أن يتنازل عن الملك لولده ، فقبل واستقال في يوم ٨ صفر سنة (٩١٨ هـ) .

ثم جاء سليم بموكب عظيم إلى السراية ، وبعد تقبيل والده وسماع وَصِيَّته أجلسه أبوه على تخت السلطنة ، وألبسه العمامة المعدّة للبس السلاطين ، فبايعه أركان الدولة . وبعد ذلك بعشرين يوماً مات السلطان بايزيد الثاني [١] .

---

(١) انظر الكواكب السائرة : (١/١٢٢ - ١٢٤) ، وتاريخ الدولة العلية العثمانية ص : (١٧٩ - ١٨٧) ، والمختار المصون من أعلام القرون : (٢/٦٩٠ - ٦٩٢) .

(٩) السلطان سليم الأول الملقب بياوز :

ولد السلطان سليم في سنة (٨٧٢ هـ) ، وجلس على كرسي الملك وعمره ست وأربعون سنة ، وكان سلطاناً قهاراً ، وملكاً جباراً ، قوي البطش شديد السَّفْك ، قهر الملوك والسلاطين فلُقّب بياوز القاطع ، وكان قد ملك بلاد العرب واستخلصها من أيدي الجراكسة .

وقد أبدى منذ بداية حكمه ميلاً إلى سفك الدماء ، فاستهلّ عهده بقتل عدد كبير من إخوته وأولادهم ، وكان مع ذلك يحب الأدب والشعر الفارسي والتاريخ ، وكان يصحب المؤرّخين والشعراء إلى ميدان القتال ليسجّلوا تطورات المعارك ، وينشدوا القصائد .

ولمّا استقرّ على سرير السلطنة بدأ بمقاتلة شاه إسماعيل بن حيدر الصفوي لِمَا بلغه إشاعته للرفض وقتله لعلماء السُّنَّة وأكابرها ، فسافر إليه السلطان سليم إلى بلاد العجم ، وتلاقيا بالقرب من «تبريز»[1] وتصافّا ، فانكسر عسكر الصفوي وانهزم ، ثم عاد بعد انتصاراته على أعدائه إلى سلطنته ، ثم قصد بعساكره البلاد الحلبية .

ولما سمع سلطان الجراكسة قانصوه الغوري[2] بخروج السلطان سليم من أرض الروم خرج بعساكره من أرض مصر وأشاع في عساكره أنه يريد الإصلاح بين السلطان سليم والسلطان شاه إسماعيل الصفوي الرافضي ، وسافر من بلاد

---

(١) تِبرِيز : بكسر أوّله ، وسكون ثانيه ، وكسر الراء ، وياء ساكنة . تقع في الشمال الغربي من إيران بالقرب من الحدود التركية . انظر معجم البلدان : (١٣/٢) .

(٢) هو قانصوه بن عبد الله الظاهري الأشرفي الغوري ، أبو النصر ، سيف الدين ، الملقّب بالملك الأشرف ، سلطان مصر ، جركسي الأصل ، مستعرب . مات سنة ٩٢٢ هـ . انظر الأعلام : (١٨٧/٥) .

مصـر إلى بلاد الشـام ، ودخل دمشق ثم حلب وكاتب السلطان سليم بما جاء إليـه مـن الإصلاح بينه وبين الصفوي ، فارتاب منه السلطان سليم ، وبعث إليـه قائلاً : « إني أبدأ بقتـالك قبله ؛ لأنك مبتـــدع وهو مبتـــدع » ، فتحرك الشَّرّ بينهما ، وقامت الحرب على قدمٍ وساقٍ ، والتقيا بعساكرهما في « مَرْج دابِق »[1] ، وانكسر عسـكر الجراكسـة ، ومـات الغوري مـن شـدّة ما دخل عليه من القهر والغلبة ، وتفرّقت عنه العسكر .

ثم دخل السلطان سليم إلى حلب وملكها ، ثم ملك ما بينها وبين دمشق ، ودخلهـا يوم السبت مستهـل رمضان سنة (٩٢٢ هـ) ، وأقام بدمشق مـدة ، ثم سافر منها قاصداً بلاد مصر فخرج منها يوم السبت ٢٢ من ذي القعدة من السنة المذكورة .

وكانت أمراء الجراكسة قد سلطنوا بمصر طومان باي[2] ولقّبوه بالأشرف ، فلما سمعوا بخروج السلطان سليم من دمشق إليهم تأهبوا لقتاله والخروج إليه ، وبرزوا إلى الحـدود خارج مصـر ، وقاتلوا عســاكر السلطان ، وثبتوا معهم ساعة ، وقتل من أعيان عسـاكر السلطان سليم وزيره سنان باشا ، ثم انكسر عسكر الجراكسة وتفرقوا شَذَر مَذَر ، وهرب طومان باي .

ثم دخل السلطان سليم إلى مصر ، وكان دخوله إليها يوم الثلاثاء الخامس مـن محرم سنة (٩٢٣ هـ) ، ثم قبض على طومـان باي وصلبـه على بـاب

---

(١) مرج دابق : المَرْج : هي الأرض الواسعة التي فيها نبت كثير تمرج فيها الدواب ، أي : تذهب وتجيء ، ودابق : قرية قرب حلب من أعمال عَزَاز ، بينها وبين حلب أربعة فراسخ . انظر معجم البلدان : (٤١٦/٢) ، (١٠٠/٥) .

(٢) هو طومان باي ، أبو النصر ، الملقّب بالملك الأشرف ، من ملوك الجراكسة بمصر . كان محمود السيرة في سياسته مع الرعية . قُتل سنة ٩٢٣ هـ ، ومدّة حكمـه ثلاثة أشهر و ١٤ يوماً وبمقتله دخلت مصر في حكم الدولة العثمانية . انظر الأعلام : (٢٣٣/٣) .

زويلة ، وبقي بمصر مدة حتى مهّد أمورها ، ثم سار إلى الإسكندرية ، ومنها عاد إلى مصر ثم إلى دمشق ، ثم إلى محل سلطنته بالقسطنطينية حيث دخلها في شعبان سنة (٩٢٤ هـ) ، وأقام بها نحو سنتين .

وقد استقرّ الأمر للعثمانيين ، وتقبّل السلطان سليم ولاء زعماء القبائل البدوية الكبرى وشريف مكة المكرمة ، وبذلك تمّت له السيطرة على البقاع الإسلامية ، وقد أضفى ضمّ الأماكن الإسلامية المقدّسة إلى الدولة العثمانية زعامة دينية في العالم الإسلامي .

وظهرت للسلطان سليم في ظهره جمرة منعته الراحة ، وعجزت في علاجه حذاق الأطباء ، وذُكر أنه خرج من القسطنطينية إلى جهة « أدرنة » ، وقد خرجت له تلك الجمرة تحت إبطه وأضلاعه ، فلم يفطن لها ، حتى وصل إلى المكان الذي بارز فيه أباه السلطان بايزيد حين نازعه في السلطنة ، فطلب له الجراحين والأطباء ، فلم يدركوه إلا وقد تأكلت ووصلت إلى الأمعاء ، فلم يستطيعوا عنها دفعاً ، ولم يقدروا له نفعاً ، ومات بها سنة (٩٢٦ هـ) ودفن بالقسطنطينية [١] .

---

(١) انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ص : (١٨٨ - ١٩٧) ، والكواكب السائرة : (٢٠٨/١ - ٢١١) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٥٥ - ٦٢) ، والمختار المصون : (٧١٧/٢ - ٧٢٠) .

(١٠) السلطان سليمان القانوني الأول :

وُلد السلطان سليمان سنة (٩٠٠ هـ) وتولى السلطنة بعد موت أبيه السلطان سليم ، واجتهد أول جلوسه في نفي الزنادقة والمبتدعين في الدِّين ، وكان ملكاً مطاعاً مجاهداً يحب العلم والعلماء ، وكان يتّصف بالتعقّل والذكاء والكرم والسخاء ، وله معرفة بالتواريخ ، وكان ينظّم الشعر بالتركية والفارسية ، وكان يستهل خطاباته إلى كافة الولاة بالآية الكريمة : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْم ﴾[1] .

وقد اشتهر هذا السلطان بالقانوني لِما وضع من الأنظمة الداخلية والقوانين والإصلاحات في كافة فروع الدولة ، وقام بتنظيم الإقطاعات العثمانية ، وتنظيم الشرطة وإنشاء المدارس والكليات والجوامع ، ومن أهمها جامع السليمانية بالقسطنطينية ، وكثر إحسانه على أهل الحرمين ، فأجرى العيون ، وحفر الآبار ، وأقام الأبنية للفقراء ، وأنشأ الدور والمستشفيات .

وكما اشتهر بالتسامح والعدالة فقد اشتهر بالحزم ، فعاقب الباشوات والضباط الفاسدين والمنحرفين ، ونتيجة لذلك فقد أحبّه شعبه ، وقد بلغت الدولة العثمانية في عهده أعلى درجات الكمال والقوة والاتساع برّاً وبحراً .

وقد منع الظلم ، وعمل على حماية أرواح الناس وأملاكهم ، ونظّم المحاكم ، وفرض على رجال الشرطة والمفتشين إطاعة أحكام المحاكم وقوانينها ، وأعاد تنظيم الإدارة ، وحذّر الموظفين من ظلم الشعب .

وقد عمل على بناء أسطول كبير قوي يساعده على مواجهة أعداء الإسلام في الشرق والغرب . وفي بداية حكمه تمرّد حاكم دمشق ، ولكنه قُتل على أيدي

---

(١) سورة النمل ، الآية : (٣٠) .

القوات العثمانية .

وفي عام (٩٢٨ هـ) استولى على مـــدينة « بَلْغِرَاد » وهو في طـريقه إلى المجر ، وعلى إثر ذلك أعلنت البندقية ولاءها للسلطان العثماني .

وفتح جزيرة «رُوْدُسْ»[1] عام (٩٢٩ هـ) لمنع رهبان هذه الجزيرة من محاربة المسلمين .

وفي عام (٩٣٣ هـ) غزا السلطان المجر بجيش كان يقوده بنفسه ، قوامه مائة ألف مقاتل ومعهم ثلاثمائة مدفع ، فوقعت معركة ضارية قُتل فيها ملك المجـر لويس الثاني وكثير من نبلائه وكهنته ، وأكثر من عشرين ألف مجري ، ثم سقطت مدينة « بُودَابِسْت »[2] في أيدي العثمانيين ، وصارت المجر ولاية عثمانية ، وظلّت كذلك لمدة مائة وأربعين سنة .

وفي عهده أظهر طهماسب بن إسماعيل الصفوي الرافضي - الذي تولّى حكم فارس بعد والده - العداء للعثمانيين ، ورفض الاعتراف بالسلطان العثماني خليفـــة على المسلمين ، وعمـــل على فَرْض المذهب الشيعي الرافضي عنوة ، والتضييق على المذهب السُّنِّي ، وإزاء ذلك كلّه فقد تصدّى السلطان سليمان له ، فسار في عام (٩٤٠ هـ) بقوة كبيرة إلى أواسط فارس ، واحتلّ تبريز ، واستـــولى على العراق ثم البصرة ، وامتدّ الحكم العثماني في عام (٩٦٣ هـ) إلى الأحساء وباقي الخليج .

---

(١) جزيرة رودس بالقرب من شاطىء آسيا الصغرى ، وهي جزيرة طيبة الهواء حسنة التربة كثيرة الفواكه . انظر تاريخ الدولة العليّة ص : (١٧٦) .

(٢) بودابست : هي عاصمة المجر ، وهي مدينة قديمة ، وكانت بلدتين : بود ، وبست ، فبلدة بود التي معناها البلد العالي تقع على الشاطىء الأيمن من نهر الطونة أو الدانوب ، وبلدة بست تقع على الشاطىء الأيسر من النهر ، ثم انضمّت المدينتان ، فصارتا مدينة واحدة . انظر تاريخ الدولة العليّة ص : (٢١١) .

وهكذا انتصر السلطان على شاه العجم الرافضي ، وتمّ إنقاذ المذهب السني ، وتأكّدت زعامة الدولة العثمانية على العالم الإسلامي .

وقد شكّل الصليبيون تحالفاً ضدّ المسلمين في شمال أفريقيا ، فهاجموا بلاد اليونان ، إلا أن السلطان سليمان عيّن خير الدين بَرْبَارُوسا قائداً للأسطول العثماني والبحرية العثمانية ، فأغار على سواحل إيطاليا الجنوبية ، وفي النهاية بسط النفوذ العثماني على غربي البحر المتوسط ، وأوقع خير الدين هزيمة كبرى بالأسطول الصليبي .

وتحالف العثمانيون مع فرنسا ضد روما وغيرها ، وتمّ التوصّل إلى المعاهدة المعروفة باسم الامتيازات الأجنبية عام (٩٤٣ هـ) ، وطبقاً لهذه المعاهدة جرى تعيين قناصل فرنسيين في موانئ الشام ، وأُعفي التجار الفرنسيون من الخضوع للقانون العثماني ، وطبق عليهم القانون الفرنسي تحت إشراف ممثل فرنسا في استانبول ، كما تمتعوا برسوم جمركية تقلّ عما كان يدفعه رعايا الدول الأخرى ، بشرط أن يتمتّع رعايا السلطان بالمثل ، ومُنح الفرنسيون الحرية التجارية المطلقة ، وحرية الملاحة في كلّ الموانئ العثمانية ، وأتيحت لهم حرية ممارسة طقوسهم الدينية ، إلا أن الضغوط الأوروبية على ملك فرنسا جعلته يتخلى عن وعوده وتعاونه مع السلطان ، الأمر الذي أدى إلى فشل تلك الامتيازات الأجنبية لأسباب دينية وسياسية واجتماعية ، فأزمة الثقة قائمة بين الطرفين منذ الحروب الصليبية .

وقامت المجر بثورة على العثمانيين بسبب مساعدة الأوروبيين لها ، فتوجّه السلطان سليمان إليها بجيشه ، وكان المرض قد ألمّ به ، فوصلها وحاصرها ، وفي أثناء نجاح المهاجمين العثمانيين في القضاء على المقاومة المجرية والاستيلاء عليها اشتدّ عليه المرض ، وقضى نحبه وهو يقود تلك

الحملة العثمانية ضِدَّ المجر في عام (٩٧٤ هـ) .

وقد حُملت جنازته على وجه السرعة ووضعت في تابوت ، وعادوا بها إلى استانبول ، وكان في استقبالها جميع العلماء والمشايخ ، وسائر الناس ، وصلّى عليه القاضي أبو السعود ، وقد رثاه الشعراء بقصائد عديدة ، وكان من أعظمها وأحسنها قصيدة أبي السعود ، وهي طويلة ، ومنها :

أَصَوْتُ صَاعِقَةٍ أَمْ نَفْخَةُ الصُّوْرِ ... فَالأَرْضُ قَدْ مُلِئَتْ مِنْ نَقْرِ نَاقُوْرِ
أَصَابَ مِنْهَا الوَرَى دَهْيَاء دَاهِيَةٌ ... وَذَاقَ مِنْهَا البَرَايَا صَعْقَةَ الطُّوْرِ
تَصَدَّعَتْ قُلَلُ الأَطْوَادِ وَارْتَعَدَتْ ... كَأَنَّهَا قَلْبُ مَرْعُوْبٍ وَمَذْعُوْرِ
وَاغْبَرَّ نَاحِيَةُ الخَضْرَاءِ وَانْكَدَرَتْ ... وَكَادَ تَمْتَلِي الغَبْرَاءُ بِالمُوْرِ
مَا جَاءَ مِنْ عَسْكَرِ الإِسْلامِ مِنْ نَبَأٍ ... قَدْ حَيَّرَ النَّاسَ جُمْهُوْراً بِجُمْهُوْرِ
فَمِنْ كَئِيْبٍ وَمَلْهُوْفٍ وَمِنْ دَنِفٍ ... عَانٍ بِسِلْسِلَةِ الأَحْزَانِ مَأْسُوْرِ
أَجْفَانُهُمْ سُفُنٌ مَشْحُوْنَةٌ بِدَمٍ ... تَجْرِيْ بِبَحْرٍ مِنَ العَبَرَاتِ مَسْجُوْرِ
أَتَى بِوَجْهِ نَهَارٍ لاَ ضِيَاءَ لَهُ ... كَأَنَّهُ غَارَةٌ شَتَّتْ بِدَيْجُوْرِ
أَمْ ذَاكَ نَعْيُ سُلَيْمَانَ الزَّمَانِ وَمَنْ ... مَضَتْ أَوَامِرُهُ فِي كُلِّ مَأْمُوْرِ
مَدَارُ سَلْطَنَةِ الدُّنْيَا وَمَرْكَزِهَا ... خَلِيْفَةُ اللَّهِ فِي الآفَاقِ مَذْكُوْرِ
مُعْلِيْ مَعَالِمِ دِيْنِ اللَّهِ مُظْهِرِهَا ... فِي العَالَمِيْنَ بِسَعْيٍ مِنْهُ مَشْكُوْرِ
بِآيَةِ العَدْلِ وَالإِحْسَانِ مُمْتَثِلٍ ... بِغَايَةِ القِسْطِ وَالإِنْصَافِ مَوْفُوْرِ
مُجَاهِدٍ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ مُجْتَهِدٍ ... مُؤَيَّدٍ مِنْ جَانِبِ القُدْسِ مَنْصُوْرِ
وَرَايَةٍ رُفِعَتْ لِلْمَجْدِ خَافِقَةٍ ... تَجْرِيْ عَلَى عِلْمٍ بِالنَّصْرِ مَنْشُوْرِ
وَعَسْكَرٍ مَلأَ الآفَاقَ مُحْتَشِدٍ ... مِنْ كُلِّ قُطْرٍمِنَ الأَقْطَارِ مَحْشُوْرِ
لَهُ وَقَائِع فِي الأَكْنَافِ شَائِعَةٌ ... أَخْبَارُهَا زُبِرَتْ فِي كُلِّ طَامُوْرِ
يَا نَفْسُ مَالَكِ فِي الدُّنْيَا مُخَلَّفَةً ... مِنْ بَعْدِ رِحْلَتِهِ مِنْ هَذِهِ الدُّوْرِ

وَكَيْفَ تَمْشِيْنَ فَوْقَ الأَرْضِ غَافِلَةً أَلَيْسَ جُثْمَانُـــــهُ فِيْهَا بِمَقْبُوْرِ [1]

ويعتبر السلطان سليمان أعظم شخصية في التاريخ العثماني ، ولذلك فقد أضفى المؤرخون عليه لقب « العظيم » تشريفاً له وتعظيماً ، في حين شرّفه العثمانيون بلقب « القانوني » ، أي : واضع القوانين ، وهي مجموعة قوانين نامه . فكانت فترة حكمه وحكم والده تمثل عصر القوة في الخلافة العثمانية لمدة نصف قرن تقريباً ، وجاء بعدهما مباشرة عصر الضعف ، وبدأ الخط البياني للخلافة العثمانية بالهبوط باستمرار ، وإن كانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان [2] .

يقول محمد فريد بك المحامي : « تقدّمت الفتوحات في أيامه تقدماً عظيماً لم تصل إليه بعده ، وبلغت الدولة أوج سعادتها ، وأخذت بعده في الوقوف تارة ، والتقهقر تارة أخرى ، حتى وصلت إلى الحالة التي عليها الآن ؛ لجملة أسباب منها :

زيادة الثروة بسبب الفتوحات العديدة والغنائم الكثيرة ، ولا يخفى أن الثروة تورث غالباً المفاخرة في المصرف ، والتغالي في الزَّهْو والتَّرف ، وكلّ أُمَّة سادت فيها هذه الخصال لابُدَّ لها من التأخر .

ومنها : أن الانكشارية كانوا لا يخرجون إلى الحرب إلا إذا كان السلطان معهم ، ولذا كانت أهمّ الحروب والغزوات تحت إمرة السلطان وقيادته ؛

---

(١) هذه القصيدة طويلة ، وتقع في (٦٧) بيتاً . انظر مجموعة القصائد العربية لأبي السعود : مخطوطة مكتبة أسعد أفندي رقم (٣٧٤١) ورقة : (٤/ب - ٦/ب) ، والعقد المنظوم ص : (٣٧٨ - ٣٧٩) ، ونصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان ص : (١٦٠ - ١٦٢) .

(٢) انظر نصرة أهل الإيمان ص : (١٥١ - ١٦٢) ، وتاريخ الدولة العلية ص : (١٩٨ - ٢٥٢) ، والكواكب السائرة : (١٥٦/٣ - ١٥٧) ، والمختار المصون : (٨٢٥/٢ - ٨٢٨) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٦٢ - ٧٦) .

لأنه إن لم يخرج بنفسه لما حاربت الانكشارية التي عليها المدار الأول في الحروب ، فغيّر السلطان سليمان هذه السنة الحميدة ، وأجاز للانكشارية القتال تحت إمرة قائدهم الأكبر ، ولو لم يكن السلطان موجوداً ، فكان هذا التغيير سبباً في تقاعس أغلب مَنْ خَلْفَه من السلاطين عن الخروج من قصورهم الباذخة ، وتفضيلهم البقاء بين غلمانهم وجواريهم المختلفات الأجناس على الخروج للقتال وتكبّد مشاقه .

ومنها أن كافة أمور الدّولة المهمّة كانت تنظر في ديوان الوزراء تحت رئاسة السلطان فأبطل السلطان هذه العادة ، وصار الديوان ينعقد تحت رئاسة أكبر الوزراء وهو الصدر الأعظم ، والسلطان لاهٍ عن ذلك معرض لدسائس الوزراء ، ومن يستعينون بهم من جواريه وأزواجه ، وترتب على ذلك أن صارت الأمور بيد الوزراء المغايرين للجنس العثماني أصلاً ونسباً ، إذ إن أغلبهم ممن أسلم ، أو تظاهر بالإسلام من النصارى ، أو من غلمان السلطان وخدمه ...

ومنها الإباحة للانكشارية بالتزوج والإقامة خارج ثكناتهم ، مع إعطائهم بعض امتيازات ، وقبول الأخلاط ضمن زمرتهم ، مما جعلها من أكبر موجبات تأخّر الدولة بعد أن كانت من أعظم عوامل تقدمها ، إلى غير ذلك من الأسباب ... »[1] .

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص : (٢٥٢) .

(١١) السلطان سليم الثاني :

ولد سنة (٩٣٠ هـ) ، وتولى السلطنة بعد أبيه ، وقد بايعه شيخ الإسلام أبو السعود العمادي ، وكذلك العلماء الوزراء والأمراء ، وكانت مدة سلطنته نحو ثماني سنين .

اتّصف السلطان سليم الثاني بالشهامة والشجاعة والتقوى والورع وحبّ الخير ، وضاعف المُرتَّبات والصدقات لأهل الحرمين الشريفين ، وأمر بإعادة بناء المسجد الحرام ، وبنى مسجداً في «أدرنه» ، وشيّد جسراً في «استانبول» .

وقد اعترفت النمسا بالسلطان سليم الثاني ، وأرسلت بعثة لتهنئته وعقد معاهدة معه ، بحيث تستمر النمسا في دفع الجزية مع إبقاء الروابط القديمة معه .

وقضت الدولة العثمانية على عصيانٍ ظهر في البصرة ، وعلى تمرّد ظهر في إمارة البُغْدَان[1] .

وفي زمنه فتح العثمانيون فتوحات عديدة ، منها : بلاد اليمن في عام (٩٧٦ هـ) ، حيث دارت بين العثمانيين وبين ملك اليمن المطهر ابن شرف الدّين[2] حروباً طويلة ، انتهت بالصلح معه على أن تبقى له بعض المدن ، مع اعترافه بسيادة السلطان على بلاده وعدم عصيانه . وكانت اليمن تابعة للدولة العثمانية زمن السلطان سليمان، إلى أن ظهر المطهر وحرّض القبائل ضدّها .

---

(١) البُغْدَان : هي المنطقة الشرقية من رومانيا المتاخمة لحدود الاتحاد السوفييتي ، والكائنة بين نهري بروت وسِيْرت ، انظر تاريخ الدولة العلية ص : (١٧٣) .

(٢) هو المطهر محمد ابن شرف الدين يحيى ابن شمس الدين أحمد ابن المرتضى ، من أئمة الزيدية في اليمن ، مَلَك أعالي اليمن . مات سنة ٩٨٠ هـ . انظر البدر الطالع للشوكاني : (٣٠٩/٢) ، والأعلام للزركلي : (١٤١/٧) .

وتمّ فتح جزيرة «قُبْرُص»[1] سنة (٩٧٨ هـ) ، وكان أهلها يعطون الجزية غير أنهم أظهروا المكر والخديعة ، فصاروا يقطعون الطريق في البحر على السفن التجارية العثمانية ، ويسلبونها ما تحمل ، بل وكانوا يهاجمون سفن الحجاج المسلمين العابرين للبحر في طريقهم إلى مكة المكرمة ، وإذا أخذوا سفينة من سفن المسلمين قتلوا جميع من فيها من الموحدين ؛ لأجل إخفاء خبرها ، إلى أن كَثُر أذاهم وشرّهم ، فاستفتى السلطان سليم الثاني شيخ الإسلام أبا السعود ، فأفتى بأنهم غدروا ونقضوا العهد ، وأنه يجوز قتالهم ، فجهّز السلطان سليم الثاني لحربهم عسكراً كبيراً من البر والبحر ، وجعل سردار العسكر مصطفى باشا ، ففتحها على أحسن ما يكون من الأحوال ، وملك جميع قلاعها ، وهي ثلاث قلاع[2] .

وقد حقّق الأسطول العثماني في عهده انتصارات عديدة ، فغزا الأسطول العثماني إيطاليا وسواحل البندقية ، ونجح العثمانيون في القضاء على الأسطول الإسباني الذي سيطر على تونس ، ونجحوا في إعادة تونس إلى حظيرة الدولة العثمانية ، وهكذا أصبح العثمانيون حكّاماً على البحر المتوسط .

ولم يمض عام على تثبيت أقدام العثمانيين في تونس حتى وهنت صحة السلطان سليم ، وتُوفي في العام التالي سنة (٩٨٢ هـ)[3] .

---

(١) قُبْرُص : جزيرة صغيرة مهمة تقع في بحر الروم بالقرب من السواحل الشامية والمصرية ، وكانت تابعة للبندقية . انظر معجم البلدان : (٣٠٥/٤) ، وتاريخ الدولة العلية ص : (٢٥٥) .

(٢) انظر نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان ص : (١٦٣) .

(٣) انظر نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان ص : (١٦٣) ، وتاريخ الدولة العلية : (٢٥٣ - ٢٥٨) ، والكواكب السائرة : (١٥٦/٣) ، والمختار المصون : (٨٢٤/٢) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٩٧ - ٩٩) .

نظام الحكم العثماني :

كان نظام الحكم في الدولة العثمانية وراثياً ، حيث يرث السلطة الابن الأكبر ، مما أدى إلى قيام حروب وصراعات أهلية كثيرة ، وقتل بين أبناء السلطان وإخوته عند وفاته ، وكان كثير من سلاطين آل عثمان إذا تولّوا السلطنة فأول عمل يقومون به هو قتل إخوانهم وإن كانوا صغاراً .

فالسلطان مراد الثاني بن محمد كان يلقّب بغياث الدين كرشجي ، ومعناه : الوتري نسبة إلى الوتر ؛ لكون أبيه السلطان محمد الأول مازحه يوماً قائلاً له : ما حالك مع إخوتك بعدي ؟ فقال : أخنقهم بالوتر ، فضحك وأعجبه ، وقال له : عافية كرشجي ، فلزمه هذا اللقب [1] .

وكان هذا الذنب العظيم من أكبر الكبائر التي كانت منتشرة في العهد العثماني ، ويُعَدّ من مساوئه الكبيرة [2] .

ولا شكّ أنّ ذلك الذنب العظيم الذي وقع كان من الانحرافات التي ارتكبها

---

(١) انظر المختار المصون ص : (٥٧٧/١) .

(٢) كما حدث للسلطان بايزيد الأول ابن مراد ، حيث قتل أخاه الأصغر يوم تولى العرش لكي لا يفسد عليه أمره ، والسلطان محمد الأول جلبي ابن با يزيد قتل إخوته الأربعة حرباً ، والسلطان مراد الثاني ابن محمد قتل عمّه مصطفى وأخاه مصطفى ، والسلطان محمد الثاني الفاتح ابن مراد قتل أخاه الرضيع ، والسلطان ياوز سليم بن با يزيد قتل خمسة من أولاد إخوانه وقتل أخاه كركود وأخوه أحمد قُتل وهو يحاربه ، والسلطان سليمان القانوني الأول ابن سليم قتل بعض أولاده وبعض أحفاده بدسيسة زوجته ، والسلطان مراد الثالث ابن سليم الثاني قتل إخوته الخمسة ، والسلطان محمد الثالث ابن مراد كان له ١٩ أخاً خنقهم قبل دفن أبيه ودفنهم معه تجاه أيا صوفيا، والسلطان أحمد الأول ابن محمد الثالث حجر على أخيه ولم يقتله . انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق : د. إحسان حقي ص : (٧٧٧) .

الملك العضوض ، والذي حاد بالحكم في بعض الأحوال عن خط الخلافة الراشدة ، فأدى إلى هذا الظلم والطغيان ، وكان له سببه المحلي في الدولة العثمانية ذاتها من الحزم الزائد الذي يمارسه العسكريون في المعتاد حين يتولّون شؤون السياسة[1] .

كان الرئيس الأعلى للدولة العثمانية هو السلطان ، وهو القوة المؤثّرة الأولى سياسياً وعسكرياً ، وقد عُرف بالتركية بلقب «خنكار» ويعني السلطان الأعظم ، كما عُرف بالفارسية بلقب « بادشاه» ويعني الحاكم الأعلى ، وكان السلطان يتمتّع بسلطات واسعة مطلقة ، فهو رئيس الدولة ، والقائد الأعلى للقوات المسلحة العثمانية ، ورئيس الهيئة الحاكمة ، ورئيس الهيئة الإسلامية[2] .

وكانت معظم قرارات السلطان تتمشى مع الشريعة الإسلامية ، ولم يكن باستطاعته أن يتجاهل الحدود الشرعية ، كما كان عليه أن يحصل على فتوى من شيخ الإسلام قبل اتخاذ أي إجراء سياسي مهم ، وإذا رفض المفتي ذلك الإجراء ورأى أنه يخالف الشريعة الإسلامية ، فإن السلطان غالباً ما كان يعدل عن مشروعاته[3] .

وكان الصَّدْر الأعظم (رئيس الوزراء أو الوزير الأول) هو رئيس الديوان ، ويحمل الخاتم السلطاني ، ويقود المعارك الحربية عند الضرورة ، وكان يرأس المحكمة العليا ، ويشترك معه القضاة ، وكان يقوم بجولات في

---

(١) انظر واقعنا المعاصر ص : (١٥٣) .

(٢) انظر تاريخ الدولة العليّة ص : (١١٨) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٧٨) .

(٣) انظر الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٧٨ - ٧٩) .

العاصمة ، ويتفقّد أسواقها ، ويرافقه رئيس القضاة .

وكان الديوان بمثابة مجلس وزراء موسّع ، وكان سلاطين الفترة الأولى يحضرون جلساته ويرأسون اجتماعاته ، وكان يُطلق عليه الديوان الهمايوني ، واستمرّ هذا التقليد حتى عهد السلطان سليمان القانوني الذي تخلّف عن حضور جلساته ، وتخلّى عن رئاسة الديوان للصدر الأعظم .

وكان أعضاء الديوان يسمّون أحياناً بالوزراء ، وكان منهم قاضيان من رؤساء القضاة ، يُسمّى كل منهما قاضي عسكر ، أحدهما عن شبه جزيرة الأناضول ، والثاني عن الروم إيلي وهي المناطق العثمانية في أوربا ، كما ضم الديوان اثنين في منصب الدفتردار أو الخازن المالي ، وكذلك موظفاً يسمى النيشانجي أو سكرتير الدولة[1] .

وباتساع رقعة الدولة العثمانية فقد استلزم الأمر تقسيمها إدارياً إلى أربع مراتب : الأولى : رتبة الوالي ومركزه الولاية ، وقد بلغ عددها (٣٢) ولاية حتى أواخر القرن السابع عشر ، والثانية : رتبة المتصرف أو السنجق بك ومركزه المتصرفية أو السنجق ، وكلمة سنجق بالتركية تعني الراية أو اللواء ، والثالثة : رتبة القائم مقام ومركزه القضاء ، والرابعة : رتبة مدير الناحية ومركزه الناحية ، وهناك أقاليم شبه مستقلة تسمى إيالة[2] .

شنّ العثمانيون حملات عديدة على امتداد قرون عدة في أوربا وآسيا تحت راية الإسلام ، والعثمانيون في معظم جهودهم وأنشطتهم العسكرية

---

(١) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ص: (٤٧٦) ، والدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص : (٦٦).

(٢) انظر تاريخ الدولة العلية ص : (٢٢٦) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٨٣) .

كانوا يتمثّلون دائماً صورة الغـــازي ، فكانت بذلك محاولاتهم المستميتـــة وجهودهم الجبـــارة لإحراز الانتصارات ، كمـا كانت أنماط الحكومـة والإصلاحات الإدارية والاجتماعية والاقتصادية التي أرسوا دعائمها في الأراضي المفتوحة ، كل ذلك كان صدى للرغبة الحقيقية لدى العثمانيين في دَحْر الكفار ومدِّ نفوذ العالم الإسلامي[1] .

ولقد اشتد اهتمام الخلفاء العثمانيين بالأمة الإسلامية ، وعملوا على توحيدها ، وعلى نشر الإسلام ، وشجعوا على الدخول فيه ، وتوسعة رقعة البـــلاد الإسلاميـة ، ووقفوا في وجه الصليبيين ؛ بل تغلغلوا في بلادهم ، وهـذا بارز في فترة قوة الخلافـــة في عهـد السلطان سليم الأول والسلطان سليمان القانوني [2] .

يقول أستـاذنا الدكتور أحمـد بن ناصـر الحمد : « استمـر حرص الخلفـاء ودفاعهم عن الإســلام والمسلمين طيلة فترة الخــلافة ، وكانت محط أنظار المسلمين حتى ممـن كانوا خارج حدودها بصفتها مـركز الخـلافة ، وبصفـة حاكمها خليفة المسلمين »[3] .

وقد جعلت الجهـاد في سبيـل إعــلاء كلمـة الإســلام الركيزة الكبرى لوجودهـــا ، والمنطلق الأول في بنـاء إمـارتهم ودولتهـــم ، فأقاموا دولتهم على الدعاماتـ التشـريعيـة الإسـلامية ، وعاشوا ضمـن النظم الاجتمـاعية الإســلامية ، فقـدَّموا بذلك خدمـة كبرى للإسـلام والمسلمين ، وبذلوا مـا في

---

(١) انظر نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان ص : (٢٤ ، ٢٥) .

(٢) انظر التاريخ الإسلامي - العهد العثماني لمحمود شاكر ص : (٢٧ - ٣١) .

(٣) العقيدة نبع التربية للدكتور أحمد بن ناصر الحمد ص : (١٠٤) .

وسعهم لنشر الإسلام ، والدفاع عن المسلمين[1] .

وبالرغم من أن الجهاد الإسلامي كان المبدأ الأساس للدولة ، فإن الدولة العثمانية كانت حامية للكنيسة الأرثوذكسية[2] وملايين النصارى الأرثوذكس ، فقد ضمن الإسلام حياة وممتلكات النصارى واليهود بشرط الطاعة ودفع الجزية ، وسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية الخاصة بهم ، وقد طبق العثمانيون مبادىء الإسلام معهم بأكبر قدر من الأريحية والتسامح .

ومع ذلك كله فقد كان موقف النصارى ضِدَّ العثمانيين موقفاً جائراً ، يدلّ على حقدهم وبغضهم الدَّفين ، ويتمثل ذلك من خلال كتاباتهم وتأريخهم لتلك الفترة من التاريخ الإسلامي .

قال الشيخ محمود شاكر : «لقد سجل النصارى الأوروبيون عن العثمانيين كل سلبية ، وجالت بها أقلامهم ، وحَلَّقت بها أفكارهم ، وأهملوا كل إيجابية ، أو تجاهلوها ونسوها ، فلم ينظروا إلا بعين البغض ، ولم تبدِ لهم إلا المساوىء ، ولكي يثيروا عليهم بقية المسلمين عدّوا الحكم العثماني استعماراً ، دخل إلى البلاد بالقوة ، وفرض سلطته بالقسوة ، ودعوا العرب خاصة إلى مناهضة العثمانيين ... »[3].

---

(١) انظر جهود العثمانيين للدكتور نبيل رضوان ص : (٥) .

(٢) الكنيسة الأرثوذكسية تُسمّى بالكنيسة الشرقية ، والأرثوذكس إحدى الفِرَق النصرانية ، وقد أعلنوا عقيدتهم في مجمع عُقد بالأناضول سنة ٤٣١ م ووافقوا فيه على عقيدة البابا كيرلس بطرس الإسكندرية ، والتي تقضي بأن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة . انظر محاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة ص : (١٦١) ، والموسوعة الميسّرة في الأديان ص : (٥٠٣) .

(٣) التاريخ الإسلامي - العهد العثماني ص : (١٤) .

وقال الشيخ مصطفى صبري[1] : « وهذا السلطان عبد الحميد آخر من تولّى السلطنة العثمانية بمعنى الكلمة وحكم مدة ثلث قرنٍ على البلاد الواسعة التي من ضمنها الأقطار العربية ، هذا السلطان كان سداً منيعاً لنزول المهاجرين اليهود إلى فلسطين ، وكان من المصادفات التي لها مغزى أن بلغ السلطان قرار البرلمان على خلعه «قره صو» اليهودي نائب سلانيك الذي اختارته لهذه المهمة الهيئة الممتازة لها من طرف البرلمان المؤلفة من خمسة رجال من الشيوخ والنواب المختلفي الدِّين والعنصر ، والذي سبق له الحصول قبل إعلان الدستور في تركيا على مقابلة السلطان مندوبا من اليهود الصهيونيين، فاتحه فيها رجاءهم المتعلّق بمسألة الهجرة إلى فلسطين مع تقديم هدية موعودة قدرها خمسون مليونا من الجنيهات الذهب لخزينة الدولة ، وخمسة ملايين منها لخزينة السلطان الخاصة ، على تقدير قبول المسؤول ، فلقي رجاؤه رداً عنيفاً من السلطان مقروناً بإخراجه من حضوره في سخط واحتقار »[2] .

وقال أيضاً : « قامت الدولة العليّة بحياطة هذا الدِّين ، وحماية الشرقيين ، ودعت إلى الخير ، وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر، فكانت من المفلحين ، ثم وقفت في طريق أوربا حاجزاً منيعاً وسوراً حصينا وحالت دون أطماعها ، وألزمتها بكفِّ غاراتها بأنواعها ، ثم اهتمت بالإصلاح وسَعَت في تأييد النظام ، فصار لها بين الدول المقام الأول والرأي الراجح والقول النافذ ، فكانت لا يضاهيها دولة من الدول بما أحرزته من الأملاك الواسعة في قارة أوربا وآسيا وأفريقية ، ونالت من العزة والتوفيق

---

(١) هو مصطفى صبري بن أحمد بن محمد القازابادي ، من علماء الحنفية ، تركي الأصل والمولد والمنشأ ، وهو آخر من تولّى مشيخة الإسلام في الدولة العثمانية ، له كتاب موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، وموقف البشر تحت سلطان القدر . مات سنة (١٣٧٣ هـ) . انظر موقف العقل والعلم : (٧١/١) ، والأعلام للزِّرِكْلي : (٢٣٦/٧) .

(٢) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين : (٢٢/١ ، ٢٣) .

مايجدر بكلِّ شرقي أن يتذكره الآن ... وإن جميع الناس تعيش فيها بغاية الحرية والسلام ، وكل المطرودين من الدول الأوروبية يفدون إلى أراضيها فيرتعون في بحبوحة الراحة والهناء آمنين على أنفسهم وأعراضهم وعروضهم »[1] .

لقد أصبحت الدولة العثمانية المتنفس الوحيد للحماس الديني للإسلام ، فجاء كل راغب في الجهاد في سبيل الله لنشر الإسلام ، فاجتذبت هذه الإمارة أعداداً من المتحمّسين لنصرة الدِّين الإسلامي ضِدَّ النصرانية ، وهذا مايؤكّد أن الدولة العثمانية كانت إسلامية المنطلق والهدف ، فكان الغزو والجهاد عاملين مهمين في تأسيس وتطوير هذه الدولة العثمانية[2] .

وأختم هذا المبحث بكلام الشيخ محمد قطب ، حيث وصف ظهور الدولة العثمانية بكل قوّتها وكلّ حيويتها كأنها بعث جديد للأمة ، أو مولد جديد ، مع مافيه من أوضار الأمّة ، ومع أنه لم يكن بعثاً صافياً ، أو مولداً من نوع المولد الأول في عهد الذروة ، إلا أن العثمانيين أظهروا صدق الرغبة في خدمة هذا الدِّين ، وبذل الدماء والأموال في سبيل ذلك ، وكان جهدهم في الحقيقة امتداداً لجهد الصحابة والتابعين الذين حاولوا فتح القسطنطينية أول مرة في عهد الأمويين ، ثم قال :

« ويكفيهم في ميزان الله أنهم توغّلوا في أوربا الصليبية ماتوغّلوا ، وفتحوا للإسلام ما فتحوا من أراضٍ وقلوب ، فدخل الناس في الإسلام بعشرات الملايين .

---

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين : (٧٥/١) .

(٢) انظر الدولة العثمانية والغزو الفكري ، للدكتور خلف الوذيناني ، ص : (٣١ ، ٣٢) .

ويكفيهم في ميزان الله أنهم حَمَوْا العالم الإسلامي من غارات الصليبيين خمسة قرون متوالية ، فلم يجرؤوا أن يتجهوا مرة أخرى نحو المشرق للاستيلاء على بيت المَقْدِس ، كما فعلوا أول مرة ، حتى زالت الدولة العثمانية من الوجود .

ويكفيهم في ميزان الله أنهم حتى وهم في النّزْع قد منعوا قيام الدولة اليهودية على أرض الإسلام ، ولم يتمكّن شذاذ الآفاق من التجمّع لإقامة دولتهم إلا بعد أن زالت دولة الخلافة من الوجود .

كما أن احترامهم للعلم والعلماء من حملة هذا الدِّين مما يحسب لهم كذلك في ميزان الله .

ولكن هذا كلّه على ضخامته في ميزان الله لا ينفي وجود انحرافات خطيرة سواء في الدولة ، أو في حياة الأمة في ظلّ الدولة ... آتت ثمارها السيئة على مرور الأيام »[1] .

(١) واقعنا المعاصر ص : (١٥٢) .

المبحث الثاني

الحالة الاجتماعية

يتكون المجتمع العثماني من أجناس وديانات مختلفة مثل : العرب والأتراك والأكراد والأعاجم والروم ، والمسلمين واليهود والنصارى .

وقد وصلت الدولة العثمانية في أوج عظمتها زمن السلطان سليمان الذي أصبح سيّداً لعدة ممالك ، وحاكماً لثلاث قارات ، ومتحكماً في بحرين هما البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر .

ولقد بلغ تعداد الامبراطورية العثمانية في تلك الفترة حوالي خمسين مليوناً من البشر ، وهو عدد ضخم جداً إذا علمنا أن أغلب دول أوربا لم يكن يزيد تعدادها عن مليون نسمة ، وأن انجلترا نفسها في تلك الفترة لم يكن تعدادها يتعدى خمسة ملايين نسمة [(١)] .

ومن ناحية الخدمات الاجتماعية لم تكن الدولة متكلّفة بالخدمات الاجتماعية ، بل كانت هذه تدخل في اختصاص الوقف ، وكان ركناً أساسياً في اقتصاد الدولة العثمانية ، وعن طريقه نشطت الحركة العلمية في جوامع

---

(١) انظر الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص : (٦٢ - ٦٣) .

استانبول .

وكان الجـامع في النظام العثمـاني معمـارياً وإدارياً وحدة دينيـة وعلميـة متكاملة ، فيها الجامع والمدرسـة والجامعة والمكتبة ومـدينة الطلاب والمطعم الخاص بهم والمطعم الخيري العام والحمام ومدرسة الطب والمستشفى .

وكان لدى العثمـانيين أوقاف كثيرة ومتعـدّدة ، فكانت هنـاك أوقاف خاصـة بصـرف مـرتبات للعـائلات المعوزة ، وأوقاف على تجهيز الفتيـات المعدمات اللاتي يصلن إلى سن الزواج ، وأوقـاف عامة للأكل المجاني تُسمّى وقف المطاعم الخيرية ، وكانت تقدم أكلاً مجانيـاً لعـدد يبلغ عشـرون ألف شخص يومياً مجاناً ، وكان مثل هذا في كل الولايات .

وكان رصف الطرق ، والفنادق المقامة على الطرق البرية في كل أرجاء الدولة العثمانية بما في ذلك المأكل والمشرب والمبيت المجاني يُصـرف عليه من الأوقاف [1] .

وقد تمتّعت الهيئة الإسلامية بدخول مرتفعة ، وأسهمت الأوقاف بنصيبٍ وافرٍ في الإنفاق على النواحي الدينية المختلفة .

وكانت الأوقاف مـن السلطان أو مـن الأفراد العـاديين كثيرة ، ويخصّص دخلها للإنفاق على المساجد والمدارس والمكتبات ، أو على إنشاء وصيانة

(١) انظر العثمانيون في التاريخ والحضارة ص : (٤٢٢ - ٤٢٣) .

الجسور والنافورات ، أو للإنفاق الدائم على الملاجىء والمستشفيات ، وكان شيخ الإسلام أو الوزير يشرف غالباً بنفسه على الأوقاف لأهميتها .

ولكي ندرك أهمية الأوقاف يكفي أن نعلم أنها كانت في الأناضول تنفق على (٤٥) ملجأ لإيواء الفقراء وإطعامهم ، و(٣٤٢) مسجداً تقام فيه صلاة الجمعة ، و(١٠٩٥) مسجداً صغيراً ، و(١١٠) مدرسة للطلاب الكبار ، و(١٥٤) مدرسة للأطفال ، و(٧٥) استراحة لقوافل التجار ، و(٢٣٨) حماماً عاماً ، وغيرها من المؤسسات الخيرية .

فلقد لعبت إيرادات الأوقاف دوراً مهماً في الحياة الاجتماعية والثقافية للدولة العثمانية ، بدرجة جعلت المدن العثمانية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي تصل إلى درجة عظيمة من التقدم والازدهار [1].

وقد اعتاد العثمانيون أن يرسلوا مساعدات مالية كبيرة إلى سكان الحرمين الشريفين ، وأول من أرسل هذه المساعدة وبالأحرى هذه الهدية إلى أمير مكة والتي تُسمّى (الصُرّة) من السلاطين العثمانيين هو محمد جلبي بن با يزيد الصاعقة سنة (٨٢٥ هـ) .

والصرة عبارة عن قدر معين من النقود يرسل إلى الأمير لتوزيعه على فقراء

---

(١) انظر الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص : (٧٢) .

مكة والمدينـة ، وقال بعض المؤرخين إن السلطان سليم الأول هو أول مـن أرسل الصرة سنة (٩٢٣ هـ) بعد فتح مصر[1] .

وأمر السلطان سليمان القانوني بشراء بعض القرى بمصر من أمواله ، ووقف وارداتها على مكة المكرمة ، فكانت ترسل سنوياً لتوزيعها في مكة المكرمة بموجب الدفاتر السلطانية ، كما أمر بزيادة المبالغ التي ترسل إلى الحرمين ، وقد أوقفت الحكومة العثمانيـة الجزية التي تحصل من قضـاء أثينا - العاصمة اليونانية الآن - على الحرمين الشريفين[2] .

وبالنسبة للتجارة فقد أسهم أهل الذمة والأجانب في تنشيط الحركة التجارية في كافة أنحاء الدولة العثمـانيـة ، مما عاد على الخزينة المركزية بالأموال الوفيرة التي مكّنت السـلاطين العثمـانيين مـن الإنفـاق بسخـاء على جيوشهم وحروبهم التي لم تنقطع [3] .

وقد ازدهرت في أنحـاء الدولة مـدن كثيرة ، وفي مقـدمتها استـانبول وبروسـه وأدرنه وغاليبولي ، وأسهم التجار المسلمون والنصـارى على حدٍّ سواء في تنشيط الحـركة التجارية ، وأصبحوا نِدّاً لتجار إيطاليـا ذوي الشهـرة القـديمة ، منـذ بداية الفتوحات العثمـانية وخلال القـرنين الرابع عشـر والخامس عشر ، بل إنهم لم يلبثوا أن حَلُّوا محلهم في أغلب المراكز التجارية بين الشـرق والغرب ، وازدهـرت صناعة المنسوجات القطنيـة في الأناضول ،

---

(١) انظر تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد بك ص : (١٩٤) .

(٢) انظر العثمانيون في التاريخ والحضارة ص : (٣٩٣) .

(٣) انظر الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص : (٧٥) .

وصناعة الأصواف في أنقرم ، والمنسوجات الحريرية في استانبول وبروسه ، وأصبحوا أهم المُصَدِّرين لتلك البضائع لكثيرٍ من دول أوربا [1] .

وأما الواردات فاشتملت على الزبد والفراء من روسيا ، والآلات من انجلترا وفرنسا ، وقد ساعد نهر الدانوب [2] على سهولة النقل وتيسير حركة الاستيراد من أوربا الوسطى والتصدير إليها [3] .

---

(١) انظر كتاب استانبول وحضارة الإمبراطورية العثمانية لبرنارد لويس ص : (٨٤) .

(٢) نهر الدانوب ، ويسمى نهر الطونة ، وهو ثاني أنهار أوربا بعد نهر الفولكا ، ويبلغ طوله (٢٨٥٠ كم) ، وينبعث من ألمانيا الغربية ، ويمر بالنمسا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وبلغاريا وروسيا ، ويصب في البحر الأسود . انظر تاريخ الدولة العلية ص : (١١٦) .

(٣) انظر حركة الإصلاح العثماني للدكتور محمد البحراوي ص : (٣١) .

المبحث الثالث

الحالة العلمية

إن العلماء الذين عاشوا في الدولة العثمانية قد خلّفوا مؤلفات كثيرة في مجال العلوم الإسلامية كالفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام والأدب ، وهذا مايظهر لنا قوة نمو العلوم الإسلامية وتطورها باللغة العربية على الساحة العثمانية ، وذلك من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجري[1] .

اهتم العثمانيون بالعلم والمؤسسات العلمية وبالعلماء ، وقد أقام أورخان ابن عثمان أول جامعة إسلامية في الدولة العثمانية [2] .

يقول طاشكبري زاده[3] : « وبنى السلطان أورخان مدرسة في بلدة إزنيق وهي على ما سمعته أول مدرسة بنيت في الدولة العثمانية »[4] .

وأُنشئت أول كلية للطب عند العثمانيين في عهد محمد الفاتح ، وكان بجوارها مؤسسة كبرى باسم مستشفى الفاتح للأمراض العقلية ، بها (٧٠) حجرة ، و(٨٠) قبة ، و(٢٠٠) خادم ، إلى جانب الأطباء المختصين[5] .

---

(١) انظر مقدمة تحقيق كتاب الشقائق النعمانية للدكتور صبحي فرات ، نقلاً عن ابن كمال وآراؤه الاعتقادية : (٢٨/١) .

(٢) انظر العثمانيون في التاريخ والحضارة لمحمد حرب ص : (١٦ ، ١٧) .

(٣) هو أحمد بن مصطفى بن خليل ، أبو الخير عصام الدين طاشكبري زاده ، مؤرّخ تركي الأصل ، مستعرب . مات سنة ٩٦٨ هـ . انظر الشقائق النعمانية ص : (٣٢٥) ، وتاريخ الأدب العربي ص : (٣٠١ - ٣٠٧) ، والأعلام : (٢٥٧/١) .

(٤) الشقائق النعمانية ص : (٨) ، وانظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ص : (١٢٤) .

(٥) انظر العثمانيون في التاريخ والحضارة ص : (٤٣) .

وكانت المحاولات الأولى لتدوين التاريخ العثماني بدأت في عهد السلطان بايزيد الأول ، وأول أثر من هذا القبيل كتاب وضعه أحمد عاشق باشا زاده المتصوِّف ، وكتبه في أسلوب شعبي خالص ، لم يكن قد تحرّر بعد من سلطان الخرافة الغالب عليه . ومنذ القرن السادس عشر شرع الباب العالي نفسه في الاهتمام بكتابة التاريخ ، وذلك عن طريق تعيين مؤرِّخين رسميين ، وكان سعد الدِّين - الذي شغل منصب مؤدّب الأمراء وقضاء الجيش والإفتاء - هو أول هؤلاء المؤرِّخين الرسميين[1] .

وفي علم الجغرافيا ، وصف أمير البحر التركي بيري رئيس شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، بعد أن تمت له معرفتها عن طريق الرحلات العديدة التي قام بها تحت قيادة عمه كمال رئيس ، وتحت قيادة بربار وسا فيما بعد ، ليس هذا فحسب ، بل لقد جمع معلومات عن الاكتشافات التي تمت لهما في أمريكا . ووضع كتاباً عن الملاحة واسمه : « بحريّت » ، ثم إنه رسم في غاليبولي سنة ١٥١٣ م خريطة موضوعة على أساس خريطة كولومبس ، تمثل المحيط الأطلسي مع أمريكا والشواطىء الغربية من أوربا وأفريقيا ، وفي سنة ١٥١٧ م رفع خريطته هذه إلى السلطان سليم في القاهرة ، وكذلك قدّم إلى السلطان سليمان الأول خريطة ثانية سنة ١٥٢٩ م ، وقد عُثر على الخريطة الأولى في مكتبة السراية سنة ١٩٢٩ م ، وعُثر على جزء من الثانية في المكان نفسه[2] .

---

(١) سعد الدين مات سنة ١٥٩٩ م . انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ص : (٤٨٣) .

(٢) انظر المرجع نفسه ص : (٤٨٣ - ٤٨٤) .

وبعد قرن من الزمان نجد حاجي خليفة[1] ، وكان من أعظم العلماء العثمانيين ، وقد شارك في الحملات الآسيوية موظفاً إدارياً في الجيش ، فتمت له من طريق الملاحظة الشخصية معرفة بجزء عظيم من الإمبراطورية ، فوضع كتاباً بعنوان : « لوامع النور في ظلمة أطلس مينور » وهو ترجمة تركية لـ « الأطلس الصغير » الذي وضعه مركايتور وهونداياس . ووضع حاجي خليفة كتاباً في تاريخ الكون والموجودات اسمه : « جِهانُنما » ، وقد نشر في سنة ١٦٥٧ م كتاباً في تاريخ البحرية العثمانية اسمه : « تحفة الكبار في أسفار البحار »[2] .

وكان من أبرز العلماء في عصر أبي السعود : شيخه شمس الدين أحمد بن سليمان المعروف بابن كمال باشا [3] . وقد خلّف ثروة علمية وفكرية واسعة استوعبت معظم أنواع المعارف الإسلامية والإنسانية ، وقد أحصى الدكتور سيد حسين با غجوان مؤلفات ابن كمال باشا بعد أن صرف وقتاً

(١) حاجي خليفة هو مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي . مؤرّخ بحّاثة تركي الأصل ، مولده ووفاته بالقسطنطينية . له كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، وتقويم التواريخ ، وميزان الحق في التصوف . مات سنة ١٠٦٧ هـ انظر الأعلام : (٧/٢٣٦) .

(٢) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ص : (٤٨٤ - ٤٨٥) .

(٣) هو شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا ، ولد في بيت إمارة ووزارة ، حفظ القرآن ودرس اللغة والأدب ، ثم التحق بالجيش ، وشارك في الحملات الجهادية ضد الكفار في أوربا ، ثم ترك الجيش وانتقل إلى صفوف العلماء ، فلازم العلماء المشهورين في عصره ، ثم تقلد الوظائف العديدة من التدريس والقضاء والإفتاء ومشيخة الإسلام ، وهو ماتريدي العقيدة ، مات بالقسطنطينية سنة (٩٤٠ هـ) . انظر الشقائق النعمانية ص : (٢٢٦ - ٢٢٨) والكواكب السائرة : (١٠٧/٢) ، والفوائد البهية ص : (٢١) . وتاريخ الأدب العربي ص : (٤٢٦) ، وابن كمال باشا وآراؤه الاعتقادية - رسالة دكتوراه - (٣٩/١ - ٧٣) .

طويلاً لإحصائها ، فبلغ عددها (٣٦٩) مصنفاً [١] .

وقد ترجم طاشكبري زاده في الشقائق النعمانية لأكثر من خمسمائة عالم وشيخ من مشايخ الصوفية ، ورتّبهم على عهود السلاطين في عشر طبقات من عثمان الغازي حتى سليمان القانوني ، وهو العهد الذي عاش فيه المؤلف طاشكبري زاده وأبو السعود[٢] .

يقول محقق الشقائق الدكتور صبحي فرات في المقدمة :

« إن القسم الأكبر من تلك الشخصيات التي احتواها هذا الكتاب كان قد خلّف مؤلفات كثيرة في مجال العلوم الإسلامية ، كالفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام والأدب ، وهذا ما يظهر لنا قوة نمو وتطور العلوم الإسلامية باللغة العربية على الساحة العثمانية من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجري ، أي من القرن الثالث عشر الميلادي حتى القرن السادس عشر الميلادي »[٣] .

---

(١) انظر ابن كمال باشا وآراؤه الاعتقادية : (٩٣/١ - ٢٠٦) .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربي ص : (٣٠٢) .

(٣) انظر مقدمة تحقيق كتاب الشقائق النعمانية ، نقلاً عن ابن كمال باشا وآراؤه الاعتقادية : (٢٨/١) .

المبحث الرابع

الحالة الدينية

اهتمّ العثمانيون بالدِّين والعلم والعلماء ، يتجلّى ذلك في إنشاء المدارس والاهتمام البالغ بها ، وتخير النخبة الطيبة من العلماء في العالم الإسلامي لها ، فاجتمع فيها مدرسون أفذاذ .

وقد أنشأ السلطان سليمان القانوني كليته الشهيرة بإستانبول ، وهي عبارة عن أربع مدارس ، منها دار القراء لتدريس القرآن الكريم بقراءاته ورواياتها ، كما أسس أيضاً المدارس السليمانية الأربع بمكة المكرمة على المذاهب الأربعة يدرس فيها علماء مكة العلوم الشرعية .

وقد كان لهذه المدارس المنتشرة في البلاد العثمانية الإسلامية دور بارز وأثر كبير في الحياة الدينية والعلمية ، وازدهار العلوم الإسلامية ، وقد نشأ فيها علماء أفاضل ، ومشايخ كبار قاموا بالتدريس والإفتاء والقضاء والدعوة والإرشاد في جميع أنحاء الدولة العثمانية والبلاد الإسلامية[1] .

ويتميّز المجتمع العثماني الأول بشدّة تمسّكه بالإسلام ، ورغبته الشديدة في نشره ، ومما يؤيّد ذلك أن كثيراً من السلاطين العثمانيين حملوا لقب : « غازي » ، فالسلطان عثمان المؤسس الأول حمل هذا اللقب ثم تبعه السلاطين من بعده ، والغازي كان يتمتع باحترام كبير ، فهو المجاهد في

---

(١) انظر ابن كمال باشا وآراؤه الاعتقادية : (٣٢/١)

سبيل الله ، أو المدافع عن الحدود والثغور الإسلامية ، حيث كان له شرف الجهاد أو إعلان الحرب على الكفرة تحت راية العقيدة الإسلامية[1] .

وما يدل على عنـــاية العثمـــانيين بالنـــاحية الدينيـــة ، أنهم قد وكلوا التخطيط الإداري والتنفيـذ منـذ عهــد مؤســس الدولة عثمــان الغازي إلى علماء الدين .

وهذا الاهتمام واضح تمام الوضوح في وصية مؤسس الدولة لابنه أورخان الغازي ، وهو على فراش الموت ، حيث يقول فيها :

« يابني ! إيّاك أن تشتغـل بشيء لم يأمـرك الله ربّ العـالمين ، وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدّين موئلاً .

يابني ! أحط مــن أطاعك بالإعزاز ، وأنعم على الجنود ، ولا يغــرنك الشيطان بجندك ومالك ، وإيّاك أن تبتعد عن أهل الشريعة .

يابني ! إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء الله رب العالمين ، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق ، فتحدث مرضاة الله جل جلاله .

يابني ! لسنـا مـن هؤلاء الذين يقيمـــون الحــروب لشهوة الحـــكم ، أو سيطرة أفراد ، فنحن بالإســــــلام نحيا ، وللإســــــلام نموت ، وهذا يا ولدي ما أنت أهل له »[2] .

---

(١) انظر مقدمة تحقيق كتاب : نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان لمحمد بن أبي السرور البكري تحقيق الدكتور يوسف بن علي الثقفي ص : (٢٤) .

(٢) العثمانيون لمحمد حرب ص : (١٦) ، نقلاً عن ابن كمال باشا وآراؤه الاعتقادية : (١٩/١) .

وكان سلاطين آل عثمان يعتنون كلّ الاعتناء بالناحية الدِّينية ، ويهتمون كلّ الاهتمام بالمصالح المتعلقة بأمور الدِّين والدولة ، وكانت تلك الأمور منوطة بالقاضي عسكر والمفتي الأكبر وشيخ الإسلام[1] .

كان منصب المفتي الأكبر في الدولة العثمانية من أعلى المناصب ، ثم غدا يرتفع في السلطة ، حتى أصبح لقب شيخ الإسلام يطلق بالأخص على مفتي الآستانة الذي اكتسب أهمية دينية وسياسية لا نظير لها في البلاد الإسلامية ، وصار شيخ الإسلام أكبر الشخصيات الدينية قاطبة ، وأعلن عن سلطته ونفوذه في قوانين رسوم البلاط .

ويأتي ترتيبه حسب تلك القوانين بعد الصَّدر الأعظم (رئيس الوزراء) مباشرة ، فكان شيخ الإسلام ينوب عن الرئيس في الاجتماعات الوزارية إذا غاب الرئيس عن حضور الاجتماع ، وقد أصبح فيما بعد مساوياً له في الرُّتْبَة ، بل وكان يتطلب من السلطان أن يقوم بزيارته في بعض المناسبات ، وكان عمله السياسي الرئيس إصدار الفتاوى حسب الشريعة الإسلامية في الشؤون السياسية العامة .

وكان يُستشار في جميع الأمور السياسية ذات الشأن الخطير ، فكانت الدولة لا تُقدِم على حرب دون صدور فتوى من شيخ الإسلام يقرِّر فيها أنّ أهداف هذه الحرب لا تتعارض مع الدِّين ، وقد بلغ من ازدياد سلطة شيخ الإسلام أنه كان يحقّ له إصدار فتوى بعزل السلطان نفسه [2] .

---

(١) انظر الدولة العثمانية والغزو الفكري ص : (١٥٢) .

(٢) انظر كتاب استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية لبرنارد لويس ص : (١٨٠) ، والموسوعة الإسلامية الميسرة : (١/٥٤١ - ٥٤٥) ، ودائرة المعارف الإسلامية : (١٣/٤٧٣ - ٤٧٩) .

مشايخ الإسلام في الدولة العثمانية إلى أبي السعود :

١- شيخ الإسلام محمد شمس الدين الفناري [١] .

٢- شيخ الإسلام فخر الدين العجمي [٢] .

٣- شيخ الإسلام خُسْرُو محمد أفندي [٣] .

٤- شيخ الإسلام قوراني أحمد شمس الدين أفندي [٤] .

٥- شيخ الإسلام عبد الكريم أفندي [٥] .

---

(١) تولى مشيخة الإسلام سنة ٨٢٨ هـ . له مصنّف في أصول الفقه بعنوان : فصول البدائع في أصول الشرائع . مات سنة ٨٣٤ هـ . انظر الشقائق النعمانية ص : (١٦ - ٢١) .

(٢) كان فخر الدين العجمي متورعاً صادعاً بالحق ، لا تأخذه في الله لومة لائم . قرأ على السيد الشريف الجرجاني ، ثم أتى بلاد الروم وصار مدرّساً في بعض المدارس ، ثم صار مفتياً في زمن السلطان مراد خان الثاني ، وتولّى مشيخة الإسلام سنة ٨٣٤ هـ وظلّ فيها لمدة ثلاثين سنة وستة أشهر . مات في مدينة أدرنه . انظر الشقائق النعمانية ص : (٣٨) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٢٧٨) .

(٣) ولي قضاء القسطنطينية في زمن السلطان محمد الفاتح . له عدة مؤلفات منها شرح للمواقف ، وحواشٍ على تفسير البيضاوي ، ومتن في الأصول يسمى مرقاة الوصول . تولّى مشيخة الإسلام سنة ٨٦٥ هـ . مات سنة ٨٨٥ هـ . انظر الشقائق النعمانية ص : (٧٠ - ٧٢) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٢٧٨) .

(٤) تولى المشيخة سنة ٨٨٥ هـ . ومدّة صدارته فيها ٨ سنوات وشهراً واحداً . انظر : حياة الأتراك في القرن السادس عشر في ضوء فتاوى شيخ الإسلام أبي السعود أفندي لمحمد أرطغرل ص : (٢٢) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٢٧٨) .

(٥) كان مدرساً في إحدى المدارس الثمان التي أنشأها السلطان محمد الفاتح ، ثم جعله السلطان قاضياً للعسكر ، ثم قُلد منصب شيخ الإسلام سنة ٨٩٣ هـ وظلّ في المشيخة لمدّة سبع سنوات . له حواشٍ على أوائل التلويح . مات أيام سلطنة السلطان با يزيد خان الثاني . انظر الشقائق النعمانية ص : (٩٥ - ٩٦) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٢٧٨) .

٦- شيخ الإسلام جلبي علاء الدين العربي [1] .

٧- شيخ الإسلام فضل زاده حامد أفندي [2] .

٨- شيخ الإسلام زنبيلّي علي الجمـــالي [3] .

١٩- شيخ الإسلام أحمـد بن كمـال باشا [4] .

١٠- شيخ الإسلام سعد الله سعدي أفندي [5] .

١١- شيخ الإسلام جوي زاده محيي الدين أفندي [6] .

---

(١) كان العربي مدرساً بمدرسة السلطان مراد خان ، ثم مفتياً بالقسطنطينية سنة ٩٠٠ هـ . وكان قد صاحب بعض رؤساء طائفة الخلوتية الصوفية وأخذ عنهم ، وكان في كل جمعة يقعد في مجلس للذكر مع المريدين بالجامع ، وكثيراً ما يغلب عليه الحال في ذلك المجلس ويغيب عن نفسه . مات سنة ٩٠١ هـ . انظر الشقائق النعمانية ص : (٩٢ - ٩٥) .

(٢) تولى مشيخة الإسلام سنة ٩٠١ هـ . وظلّ فيها لمدة سبع سنوات . انظر حياة الأتراك في القرن السادس عشر ص : (٢٢) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٢٧٨) .

(٣) هو علاء الدين علي بن أحمد بن محمد الجمالي ، كان طاهر اللسان لا يذكر أحداً بسوء ، وكانت أنوار العبادة تتلألأ على صفحات وجهه . تولّى المشيخة سنة ٩٠٨ هـ . وسبب شهرته بزنبيلّي أنه كان يقعد في علو داره ، وله زنبيل معلّق ، فيلقي المستفتي ورقته فيه ويحرّكه ، فيجذبه الشيخ المذكور ، ويكتب جوابه ، ثم يدليه إليه ، وإنما فعل ذلك كي لا ينتظر الناس طويلاً لأجل الفتوى . مات سنة ٩٣٢ هـ . انظر الشقائق النعمانية ص : (١٧٣ - ١٧٦) .

(٤) تقدّمت ترجمته في ص : (٧٤) .

(٥) كان سعد الله أفندي قوي الحفظ ، وكان من جملة الذين صرفوا جميع أو قاتهم في الاشتغال بالعلم . نشأ على طلب العلم والمعرفة ، وقرأ على علماء عصره ، ثم صار مدرساً في إحدى مدارس القسطنطينية وبروسه ، ثم صار قاضياً ، ثم مفتياً سنة ٩٤٠ هـ . مات سنة ٩٤٥ هـ . انظر الشقائق النعمانية ص : (٢٦٥)، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٢٧٨).

(٦) كان جوي زاده ملماً بعلوم التفسير والحديث والفقه والأصول . تصدّر في مشيخة الإسلام سنة ٩٤٥ هـ ، وظلّ فيها لمدّة ثلاث سنوات وتسعة أشهر . مات سنة ٩٥٤ هـ . انظر الشقائق النعمانية ص : (٢٦٦) ، والدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي ص : (٢٧٨) .

١٢- شيخ الإسلام عبد القادر جلبي الحامدي [1] .

١٣- شيخ الإسلام فناري زاده محيي الدين [2] .

١٤- شيخ الإسلام أبو السعود العمادي [3] .

هذا ومن ناحية أخرى فقد جمعت الدولة العثمانية تحت رايتها أصحاب ديانات مختلفة :

يهوداً.

ونصارى .

ومسلمين على اختلاف مذاهبهم وطرقهم ؛ فمنهم : سنيون ، وشيعة ، وصوفية طرقية بدعية ، ومنهم : سلفية ، وأشاعرة ، وماتريدية ، وغيرهم .

والماتريدية فرقة كلامية ينتسب إليها أبو السعود العمادي الحنفي ،

---

(١) تولى عبد القادر التدريس والقضاء ثم الإفتاء في سنة ٩٤٨ هـ ، وكان صاحب فطنة وذكاء ، ثم ترك الفتوى بعد أن تقلّدها لمدة ثلاثة أشهر لاختلال وقع في مزاجه ، وعُين له كل يوم مئتا درهم بطريق التقاعد . مات سنة ٩٥٥ هـ . انظر الشقائق النعمانية ص : (٢٦٤ - ٢٦٥) .

(٢) هو محيي الدين محمد بن علي بن يوسف بن بالي بن شمس الدين الفناري ،كان علامة في الفتوى ، وآية في التقوى ، صار شيخاً للإسلام سنة ٩٤٨ هـ . له حواشٍ على شرح المفتاح للجرجاني وغيرها . مات سنة ٩٥٤ هـ . انظر الشقائق النعمانية ص : (٢٢٩ - ٢٣٠) .

(٣) تولى أبو السعود العمادي الإفتاء ومشيخة الإسلام في زمانه في ٩ شعبان سنة ٩٥٢ هـ ، واستمر على ذلك نحواً من ثلاثين سنة .

وهـذه الفـرقة الدينيـــــة تنتسب إلى إمـامهم أبي منصور الماتريدي الحنفي المتكلم [1] .

وقد انتشرت مدرسة الماتريدية بعد وفاة مؤسسها على أيدي أتباعه وتلاميذه وبسطت سلطانهـا على الحنفيـة ، حتى أصبح المراد بالحنفيـة في علم الكلام هم المعروفون بالماتريدية[2] .

وقد ذكر السلفي[3] أن الماتريدية مرت بأدوار تاريخية مهمة منها : دور تأسيسي ، وهو دور التأسيس الذي أسســه أبو منصور الماتريدي إمـــام الماتريدية .

ومنها دور تكويني، وهو دور تلامذة الماتريدي ومن تأثر به من بعده .

ومنهـا دور عثمـاني ، وهو نسبـة إلى الدولة العثمـانية ، وهـذا الدور

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمود ، أبو منصور الماتريدي السمــرقندي الحنفي ، كان يلقب بألقــاب عديدة منها : إمام المتكلمين ، وإمام الهدى ، وغير ذلك .كان صاحب جدل وكلام ، ولذلك كان يرد كثيراً على الجهمية والمعتزلة . صنّف عدة مؤلفات منها: تأويلات أهل السنة ، وكتاب التوحيد . مات سنة : (٣٣٣ هـ) على المشهور . انظر مقدمة إشارات المرام للبياضي الماتريدي ص : (٧) ، والجواهر المضية في طبقات الحنفية للقرشي : (٣٦٠/٣) ، والأعلام للزركلي : (١٩/٧) ، والماتريدية للشمس السلفي : (٢٠٩/١ - ٢٥٥) .

(٢) انظر العلم الشامخ لصالح بن مهدي المقبلي ص : (٢١٧) ، وانظر أصول عقيدة الماتريدية في ص : (١٤٢) من هذه الرسالة .

(٣) هو أبو عبد الله شمس الدين بن محمد أشرف بن قيصر بن أمير جمال السلفي الأفغاني . مؤسّس الجامعة الأثرية ببشاور . حصل على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٤١٤ هـ ، وكانت بعنوان : جهود علمــاء الحنفيــة في إبطال عقــائد القبورية . انظر الماتريدية وموقفهم من توحيد الأسماء والصفات : (١٥١/١) .

جمع الأدوار الماتريدية الكثيرة .

والدور العثماني هذا يُعدّ من أهم الأدوار الماتريدية ؛ لأنه بلغ إلى أوج الكمال ، حيث يستظل هذا الدور بظل الدولة العثمانية ، ويتمتع بخيراتها ؛ لأن الدولة العثمانية كانت دولة حنفية الفروع ماتريدية العقيدة ، فكان سلطان الماتريدية يتسع حسب اتساع سلطان الدولة العثمانية ، وكان جلّ القضاة والمفتين وخطباء الجوامع ورؤساء المدارس حنفية الفروع ماتريدية العقيدة ، وكثرت في هذا الدور المؤلفات الكلامية من المتون والشروح والحواشي ، فانتشرت العقيدة الماتريدية في شرق الأرض وغربها [1] .

الصوفية وموقف أبي السعود منها :

التصوف حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي[2] ، وكان أتباع الطريقة الصوفية يتوخون في بداية أمرهم تربية النَّفْس والسُّموّ بها بغية الوصول إلى معرفة الله عزّ وجلّ ، ولكنهم جنحوا عن المسار الصحيح حتى جعلوا العلاقة بين الله تعالى وبين خَلْقه من خلال ذوق العبد وإحساسه لا من خلال كتاب الله تعالى وشرعه ، ومن ثَمّ تميّزت الصوفية بالسماع وبالبدعيات

---

(١) انظر الماتريدية للشمس السلفي : (١/٢٦٢ - ٢٦٨) ، وذكر أنها انتشرت في بلاد الهند وما جاورها من البلاد الشرقية كالصين وبنغلاديش وباكستان وأفغانستان ، كما انتشرت في بلاد تركيا والروم وفارس وبلاد ما وراء النهر وتونس حسب انتشار الحنفية وسلطانهم .

(٢) أصل التصوف واشتقاقه وتعريفه اختلف العلماء في ذلك على أقوال عديدة . انظر على سبيل المثال : الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري ص : (٢٧٩) ، ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية : (١١/٦) ، وتلبيس إبليس لابن الجوزي ص : (٢٠١) ، واللمع في التصوف للطوسي ص: (٤٠) ، والمصادر العامة للتّلقّي عند الصوفية لصادق سليم ص: (٢٧ - ٣٧) .

والقبورية والتّميّع في الدِّين ، واتّسمت بالغنـــاء والرقص والكشف والوجد ، والتعبّـد بذلك ، فصار الهـدف على ضوء الفكر الصوفي أن تكون معـرفة الله تعالى ذوقيـة لا نقلية ، وهذا بلا شك يخالف منهج أهل السنـــــة والجماعة ، مما يتأكد معه خروج الطرق الصوفية عن عقيدة السلف الصالح[1] .

يقول الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقـل : « كانت الصوفيـة في أول عهـدها على سمة السلفـــ الصالح في العقـائد والأصول ، وكانت مخالفـاتها محصورة في بعضـــ مظاهر التعبّد والسلوك ، وأغلب ذلك منشأه الجهل . ولكن مع الزمن تجارتـــ الأهواء بالعبّاد والصوفيـــة حتى دخلتهم الرهبـانية المبتـدعة ، وسلكوا مسـالك الأمم الغـابرة الهـالكة ، وتشبهوا بعبـاد النصـارى والهنود وغيرهم ، وتعبّدوا بالمحرمات : كالسماع والنظـر الحرام ، وبدأتـــ فيهم الطـرقية ، وابتدعوا طقوس المشايخ والمربين ، وظهرت فيهم الشطحات والكلماتــ والعبـارات المريبة المخلّة بالتوحيد والقـدر ، وكان هذا واضحاً خلال القرن الثالث .

ثم تطوّرت بدع الصوفية في نهاية القرن الثالث وما بعده ، حتى صارت مـأوى لكل مبطل وزنديق ، وأوعية لكل مذهب ونحلة ، ومستقـراً لكل فرقة وضلالة ، فظهرت في بعض فصائل الصوفية وطرقها عقائد اليهود والنصارى والمجوس والهنود والفرس والصابئة والملاحدة والفلاسفـة والدهرية والمشركين والبـاطنية والقدرية والمرجئة والجبرية والتشيع ، فأصبحت الصوفية مشـاعة بين جميع أهل الأهواء والبدع ، حتى اشتهر فيهم الإلحاد والزندقة ، وأعلن

---

(١) انظر دراسات في الفرق للدكتور صابر طعيمـة ص : (١١٥) ، ودراسات في الأهواء والفـرق والبدع للدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل ص : (١٤٤) ، والموسوعة الميسرة ص : (٣٤١) .

بعضهم الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، ولقد ابتلي بها كثيرون من المنتسبين للسنة ، فانتسب بعضهم للطرقية المبتدعة »[1] .

ويقول صادق سليم صادق : « ليست قضية التصوف - كما يظنّها البعض - حفنة من الدراويش ، يلبسون المُرَقَّعات ، ويطقطقون بالمسابح في المساجد ، ويتهالكون على موائد الطعام المنصوبة في حلقات السّماع ، ويرقصون ويتمايلون كالسكارى ، ويزعقون ، كلا والله ... فالتصوف تيار بدعي لا يستهدف إرجاع الأمة الإسلامية إلى حالة الجاهلية الأولى فحسب ، بل إلى جاهليات أبْعَدَ تاريخاً ، إلى جاهليات النصارى واليونان والهنادكة ، إلى جاهليات جاءت عقيدة التوحيد لإزهاقها »[2] .

وأما بالنسبة للصوفية وتغلغلها في الدولة العثمانية فيقول الشيخ محمد قطب : « وفي تركيا بالذات ، فقد صارت هي المجتمع ، وصارت هي الدِّين ، وأصبحت الصوفية - بالنسبة للعامة بصورة خاصة - هي مدخلهم إلى الدِّين ، وهي مجال ممارستهم للدِّين . وحين أصبحت هكذا فقد أصبحت مجموعة من الخرافات والأوهام تتعلّق بالمشايخ ، الأحياء منهم والأموات ، وصار التدين هو الإيمان بالشيخ وبكراماته وبأحواله ، وقدرته على استشفاف الغيب ، وقدرته على شفاء المرضى بغير دواء ، وقدرته على فكّ السحر ، واستخراج الشياطين مِن أرواح مَن تسلّطت عليهم . كما أصبح التّعلّق بالأضرحة والأولياء ونذر النذور لهم والتقرب بالقرابين دون عمل حقيقي بمقتضى الدين ... فقد أصبح هذا في حسّ العامة هو الدِّين ، وليس الدِّين هو ما أنزله الله في

---

(١) دراسات في الأهواء والفِرَق والبدع ص : (١٨٤ - ١٨٥) .

(٢) المصادر العامة للتلقّي عند الصوفية ص : (٧١٠) .

كتابه المنزل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم »[1] .

ويقول الدكتور زكريا بيومي : « اتسمت سياسة العثمانيين منذ البداية بتشجيع التصوف ، وساعدت على انتشـــار طرقه حرصاً على تدعيم حركة الجهاد والحفاظ على سلامة النظام »[2] .

وكان الاعتقاد في الأولياء والصالحين ظاهرة منتشرة في ذلك الزمان ، ومـــن هؤلاء المـــؤرِّخ التركي طـاشكبري زاده[3] ، فقــد ترجم في كتـــابه للحاج بكتاش الصوفي وهو أحد العلماء في زمان السلطان مراد بن أورخان ، فقال في ترجمتـــه :

« الشيخ العارف بالله تعالى الحاج بكتاش : كان رحمه الله من جملة أصحاب الكرامات ، وأرباب الولايات ، وقـــبره ببلاد تركمان ، وعلى قبره قُبّة ، وعنده زاوية ، يُزار ويُتبرّك به ، وتُستجاب عنده الدعوات ، وقد انتسب إليه في زماننا هذا بعض الملاحـــدة نسبة كاذبة ، وهو بريء منهم بلا شك ، قدّس الله تعالى سرّه العزيز »[4] .

---

(١) واقعنا المعاصر ص : (١٥٥) .

(٢) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص : (٣٧) . ولعلّ تعليل الدكتور البيومي فيه نظر ؛ لأن الصوفيـــة ألحقت بالمسلمين الضعف والخور والخنوع والخضوع للواقع دون محاولة لتغييره ، وهي بالتالي لاتدعم عملية الجهاد الإسلامي ألبتّه ؛ لأنها تتعارض في حقيقتها مع الجهاد ، ولأنها -كما قال الشيخ محمد قطب :- في ذاتها نزعة منحرفة عن المنهج الإسلامي الصحيح ، وهي في حقيقتها عملية هروب من مواجهة الواقع ومجالدته، وهي انعزال سلبي تسعى إلى قتل الدوافع البشرية، وتدعو إلى إهمال الحياة. انظر واقعنا المعاصر ص: (١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٧) .

(٣) تقدمت ترجمته في ص : (٧٢) .

(٤) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ص : (١٦) .

وقد وافقه ابن أبي السرور البكري[1] على تلك الترجمة الخرافية ، وتابعه على تلك الكلمات القبورية ، فذكر في كتابه ما يدل على ذلك عندما تحدث عن سيرة السلطان مراد الأول ابن أورخان فقال :

« ومن محاسن مولانا المشار إليه أنه كان لايأكل إلاّ من كسب يده من غير أن يتعرّض لشيء من بيت المال ، ومن مشايخ زمانه الشيخ العارف بالله تعالى الشيخ بكتاشي شيخ طائفة الينجرية (الانكشارية) ، كان من جملة أصحاب الكرامات ، وأرباب الولايات ، وقبره مشهور ببلاد التركمان ، وعلى قبره قُبّة ، وعنده زاوية تُزار ، ويُتبرّك بها ، ويُستجاب عنده الدعاء ، وقد انتسب إليه في زماننا هذا بعض الملاحدة نسبة كاذبة ، وهو بريء منهم بلا شك ، قدّس الله روحه ورحمه ، ونوّر ضريحه »[2] .

وذكر ابن أبي السرور البكري أيضاً في كتابه قصة خرافية صوفية سمّاها كرامة لجَدِّه مع السلطان سليم الثاني ابن السلطان سليمان ، وكان مما ذكره فيها مع ركاكتها ، وسوء اعتقاد المؤلف فيها قوله :

« هذا وقد وقع له مع الأستاذ الجَدّ الشيخ محمد البكري الصديقي ، أعاد الله عليّ وعلى المسلمين من بركاته في الدنيا والآخرة بجاه سيدنا محمد وآله - وقع له - كرامة غريبة ، وهي أنه لما كان مولانا السلطان بأماسية في حياة والده المرحوم

---

(١) هو محمد بن محمد أبي السرور زين العابدين ابن محمد أبي المكارم البكري ، المعروف بابن أبي السرور ، مؤرّخ مُفسّر باحث ، مصري ، مولده ووفاته في القاهرة ، له كتاب الروضة الندية في طبقات الصوفية ، والنور المبين في توضيح ما جاء في إحياء علوم الدين . مات سنة ١٠٨٧ هـ . انظر الأعلام : (٧/٦٤) .

(٢) نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان ص : (٥٦ - ٥٧) .

مولانا السلطان سليمان ، وطال عليه عدم موت والده ، فقال يوماً لشخص من نُدمائه يُدعى شمسيء آغا : قد طال الأمر عليّ ، هل تعرف أحداً من الأولياء تسأله لنا هل نلي السلطنة أو نموت قبل ذلك ؟ فقال شمسيء آغا : إني كنت بمصر ، وفيها شخص من آل الصدّيق لا شكّ في ولايته ، يُسمّى الشيخ محمد البكري ، ترسلون له شخصاً بالخفية بمكتوب ، وتسألوه عن ذلك .

فعيّن شخصاً من خواص أتباعه ، وأرسل معه هدية للأستاذ الجدّ ، من جملتها عشرة أصواف ، وعشرة أثواب غايات ، مع خمسين ذراع جوخ من الجوخ العال ، كلّ خمسة أذرع لون ، وألف دينار ذهب ، وسافر إلى جهة مصر .

فلما وصل إليها دخل على الأستاذ في شكل درويش ، فرأى الأستاذ في الحوش وهو جالس على كرسي ، والناس حوله ، فأعطى الأستاذ مكتوب مولانا السلطان سليم ، فلما قرأه الأستاذ قال يادرويش : جئت إلينا تطلب العهد ؟ فقال له : نعم ياسيدي . فقال له : تأتي إلينا بعد الظهر نُعطي لك العهد ، وكان الأستاذ رضي الله عنه بعد الظهر لا يجتمع بأحد ، ثم إن الأستاذ قال للشيخ بدر - بوّاب القاعة التي هي محل جلوس الأستاذ - : إذا جاءك هذا الدّرويش أدخله عليّ في القاعة .

فلما جاء الدّرويش أدخله على الأستاذ ، وكان معه الهدية ، فأوصلها الأستاذ . فكتب لمولانا السلطان سليم جواب الكتاب ، ومن مضمونه : أنكم تتولوا السلطنة في سنة كذا في شهر كذا في يوم كذا ، ثم دفع المكتوب للقاصد ، وأرسل مولانا الأستاذ الجدّ لمولانا السلطان سليم هدية ، وهي طاقية

من لبس الأستاذ وسبحة ، وأحسن للقاصد .

فلما وصل القاصد لمولانا السلطان سليم فرح غاية الفرح ، فلما جاء اليوم الذي ذكر الأستاذ أنه يلي السلطنة فيه ، قال مولانا السلطان سليم لشمسيء آغا : هذا اليوم الذي ذكره الأستاذ ، فلما أذّن العصر من ذلك اليوم لم يشعر إلّا وقد جاءت الأولاقية[1] إلى مولانا السلطان سليم بخبر موت والده مولانا السلطان سليمان وتوليته الملك .

فصار مولانا السلطان سليم من أكبر المعتقدين في الأستاذ الجد رضي الله عنه ، وفي مدّة ملكه رحمه الله تعالى ما كان يقطع الهدايا للأستاذ الجد رضي الله عنه »[2] .

فهذه القصة القبورية من هذا المؤرّخ القبوري المذكور، مع ركاكتها وكثرة الأخطاء فيها تعطي صورة واضحة إلى أي درجة وصلت الحالة الدينية والاعتقادية عند المؤرخين والمتعالمين الذين سطّروا في كتبهم تلك الخرافات القبورية ، وعدّوها من الكرامات الغريبة التي يُترضّى عن أصحابها ، ألا ساء ما يكتبون ، وساء ما يعتقدون .

وروى المؤرخ التركي محمد فؤاد كبريلي بداية إسلام عثمان الأول على يد شيخ من مشايخ الصوفية ، يُدعى إده بالي[3] ، ثم زواجه من ابنة ذلك الصوفي

---

(١) لعلّها بمعنى الناعي أو ناقل الخبر .

(٢) نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان ص : (١٧٠ - ١٧٢) .

(٣) إده بالي ، وُلد في البلاد القرمانية ، ثم ارتحل إلى الشام وسلك مسلك الصوفية ، ثم عاد إلى بلاده . مات سنة ٧٢٦ هـ ، وعمره ١٢٠ سنة . انظر الشقائق النعمانية ص : (٦ - ٧) .

بعد رؤيتين رآهما عثمان ، وقد سماهما المؤرخ بأسطورتين ؛ هما :

الأولى : قضى عثمان ليلة في دار أحد الزهاد المسلمين ، وقبل أن ينام جاء صاحب البيت بكتاب فوضعه على رَفٍّ ، فسأله عثمان : ما هذا الكتاب ؟ فأجاب : إنه القرآن الكريم ، ثم أجابه حين سأله عن محتواه بأنه كلمة الله أنزلت للناس بطريق النبي صلى الله عليه وسلم ، وحمل عثمان الكتاب ، وأخذ يقرأ واقفاً حتى الصباح ، ثم نام ، فرأى فيما يرى النائم كأن مَلَكاً يبشره بأنه وذريته سيعلو قدرهم لقاء احترامه القرآن .

الثانية : طلب عثمان من الشيخ إده بالي أن يزوجه ابنته ، فرفض الشيخ طوال عامين ، فحزن عثمان لذلك وأظهر الصبر والجلد ، ولم يرغب الاقتران بغيرها ، وفي إحدى الليالي رأى عثمان وهو نائم في بيت الشيخ كأن قمراً يخرج من صدر إده بالي ، وبعد أن صار بدراً وقع في صدر عثمان ، ثم خرجت من صلبه شجرة نمت في الحال حتى غطت بظلها الأرض كلها ، وأوّل إده بالي الرؤيا بأن عثمان نال مرتبة السلطنة ، وأن أسرته ستحكم العالم ، ثم زوّجه ابنته [1] .

فكان شكل الإسلام الذي اعتنقه الأتراك في آسيا الوسطى على يد مشايخ ودراويش الصوفية ، وقد انتشرت بينهم العديد من الطرق الصوفية ، ومن أهمها :

---

(١) انظر قيام الدولة العثمانية ص : (١٣) ، والشقائق النعمانية ص : (٧) ، ونصرة أهل الإيمان ص : (٥٣) ، وتاريخ الدولة العلية ص : (١١٥ - ١١٦) .

الطريقة المولوية أو الجلالية[1] .

والرفاعيـــــة[2] .

والخلوتيـــــة[3] .

والقلندريـــــة[4] .

والبيرميـــــة[5] .

---

(١) المولوية أو الجـلالية : نسبـة إلى الشـاعر الفـارسي جلال الدين محمد بن محمد بن الحسين الرومي البَلْخي . هاجر وهو صغير مع أبيه إلى سيواس وغيرها حتى استقر في قونيه - عاصمة السلاجقة - في تركيا . اتصل بابن عربي وتلاميذه . تتميّز طريقته بإدخال الرقص والإيقاعات في حلقات الذكر ، وقد انتشروا في تركيا وآسيا الغربية . مات سنة (٦٧٢ هـ) . انظر الكشف عن حقيقة الصوفيـة ص : (٣٦٠) ، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص : (٣٤٨) .

(٢) الرفاعيـة أو البطائحيـة : أسسهـا أحمـد بن علي بن يحيى الحسيني الرفاعي ، أبو العبـاس . وُلد وعاش في أم عَبيدة من أعمال البصرة في العراق ، ومات فيها سنة (٥٧٨ هـ) ، والبطائحُ اسم المنطقـة . وجماعته يستخدمون السيوف والحـراب في إثبات الكرامـات ، انتشـرت طريقته في غرب آسيا . انظر الكشف عن حقيقة الصوفية ص : (٣٥٦) ، والأعلام : (١٧٤/١) .

(٣) الخلوتية : نسبة إلى أخي محمد بن أحمد بن محمد كريم الدين الخلوتي ، يدّعي أنه أخذ هذه الطريقة عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في اليقظة لا في المنام ، وكان يقول : «طريقتي محمدية» . مات في مصر سنة (٩٨٦ هـ) انظر الكشف عن حقيقة الصوفية ص : (٣٦٤) .

(٤) القلندرية : نسبـة إلى قلندر يوسف ، أندلسي هاجر إلى المشرق ، وقد ظهرت هذه الطريقة لأول مـرة في دمشق سنـة (٦١٠ هـ) ، وأتبـاعها يحلقون لحـاهم ، ولا يأخذون أنفسهم بشعـائر الدين الإسـلامي ، ولا بمقومات الأخلاق . مـات قلندر في مصـر . انظـر الكشف عن حقيقة الصوفية ص : (٣٥٧) .

(٥) البيرمية : نسبة إلى إبراهيم بن بيرم بن تيمور خان ، من البوسنـة في البلقان ، طاف البلاد ، وله في كل بلد اسم ، فاسه في مكة : حســـن ، وفي المدينــــة : محمد ، وفي ديار الروم : علي . استقر في مصر ، ومات فيها . انظر الكشف عن حقيقة الصوفية ص : (٣٦٤) .

والبكطاشية [1] ، وغيرها [2] .

وكان من مظاهر الاتجاه الديني في سياسة العثمانيين تشجيع التصوف حتى قيل في هذا الصدد : إن حياة المجتمع قد خضعت لتأثير مشايخ الطرق الصوفية أكثر مما خضعت لتأثير رجال الدولة ، وكان السلاطين في مجموعهم يقربونهم إليهم [3] .

وقال حسين خوجه[4] عن انتشار الصوفية والزوايا في الدولة العثمانية : « إن الزوايا في هذا العصر أصبحت مركزاً من مراكز التأثير الروحي ، ينتصب فيها الشيخ ، يحيط به المريدون الذين يخضعون لخطته ويأتمرون بأوامره ، وبهذا الاعتبار استقطبت هذه الزوايا مريدين من كل مكان ينشدون الحقيقة ، وانتصب الشيخ هادياً لحيرتهم ، ومفرجاً لكربتهم .

ورجال التصوف والزوايا في هذا العصر أميون ... استطاعوا استغلال مراكز التأثير في الشعب ، فانجذب الشعب إليهم ، وتبعهم العلماء أيضاً لمكانتهم وعلو مقامهم . وسار رجال الدولة على نفس المنوال ، فبنوا لهم الزوايا ، وخاطبوا عطفهم ، واحترموا حرمتهم ، وأصبح

---

(١) البكطاشية : نسبة إلى حاجي بكطاش ، محمد بن إبراهيم بن موسى الخراساني ، من أعوان بابا إلياس . نزح من خراسان إلى تركيا ، ومات فيها في حوالي منتصف القرن السابع الهجري ، وطريقته منتشرة في تركيا وشرقي أوربا ومصر ، وغلو التشيع الاثني عشري واضح فيها ، وكثير من الأتراك العثمانيين ينتمون إليها . انظر الكشف عن حقيقة الصوفية ص : (٣٥٨)

(٢) انظر قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص : (٣٩) ، وتاريخ الشعوب الإسلامية ص : (٤٨١) .

(٣) انظر جهود العثمانيين ص : (١٦ - ١٧) .

(٤) هو حسين خوجه بن علي بن سليمان الحنفي . ولد بتونس ، ومات سنة ١١٤٥ هـ . انظر مقدمة ذيل بشاير أهل الإيمان ص : (٥٩) .

الانضمام للطريقة من مكملات شخصية العالم »[1] .

وقول حسين خوجه عن اتباع العلماء لرجال التصوف والزوايا ليس على إطلاقه ؛ فمن العلماء من لم يكن كذلك ، ومنهم أبو السعود فقد وقف ضدّ هؤلاء الصوفية وخاصة الغُلاة منهم موقفاً حازماً ، وأفتى بكفر من اعتنق عقائدهم الكفرية ، وحذّر من الانتماء إلى طرقهم البدعية ، بل وأصدر فتوى ضدّ بعض غلاتهم بإباحة دمهم ، ونُفذ القتل فيهم .

هذا على الرغم من أن والده كان يميل إلى التصوف ، إلا أن أبا السعود لم يشتغل بالتصوف ، بل حارب الصوفية محاربة شديدة ، ومن ذلك أنه أنكر قراءة أشعار يونس أمره الصوفي في التكات الصوفية ، ووصف حلقات الصوفية بأنها صياح أو صراخ الديك الكافر . وقال في فتواه ضدهم : من قال أو اعتقد أن الحلقات الصوفية من ضمن العبادات فهو مرتد عن الإسلام[2] .

وأفتى أبو السعود بقتل ثلاثة من شيوخ الصوفية وغلاتهم القائلين بوحدة الوجود ، وبرفع التكليف عنهم ، وهم :

- إسماعيل مَعْشُوقِي[3] .

---

(١) ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ص : (٤٩) .

(٢) انظر الموسوعة الإسلامية التركية : (١٠/٣٦٧) .

(٣) إسماعيل معشوقي كان من الصوفية الذين جاهروا في مساجد استانبول برفع جميع التكاليف الشرعية عنهم ، وزعموا أنهم قد بلغوا إلى مرتبة استوى فيها الحلال والحرام لديهم . قُتل إسماعيل سنة ٩٤٥ هـ . انظر المعجم الإسلامي لمحمد جاويد بايصون ص : (٩٤) ، والموسوعة الإسلامية التركية : (١٠/٣٦٧) .

- ومحيي الدين قَرَامَاني[1] .

- وحمــــزة بـــــالي[2] .

وسئل أبو السعود عن طائفة من الصوفية يعتقدون أن الدوران من التوحيد ، فهل يكفرون شرعاً ؟

فأجاب أبو السعود بأن من اعتقد إباحة دوران الصوفية وأنه من التوحيد فهو كافر[3] .

وسئل أبو السعود عن زيد من الصوفية يقوم بالدوران عند الذكر ، فإذا كان يعتقد أن دورانه هذا من العبادة ، فهل يكون نكاحه صحيحاً ؟ وهل تحلّ ذبيحته ؟

الجواب : إن كان يعتقد أن الدوران من العبادة فهو مرتد ، فلا يجوز أن ينكح مسلمة ، وذبيحته ميتة ، وأما إن كان لايعتقد أن الدوران من العبادة وأنه مباح ، فهو ليس مرتداً ، ولكنه فاسق وخارج عن الطاعة ، وحكمه مثل سائر أحكام الفاسقين[4] .

---

(١) محيي الدين القرماني كان يجاهر بالقول بوحدة الوجود . وقد أصدر أبو السعود فتوى تجيز قتله ، فقُتل سنة ٩٥٧ هـ . انظر المعجم الإسلامي ص : (٩٥) ، والموسوعة الإسلامية التركية : (١٠/٣٦٧) .

(٢) حمزة بالي كان يسير على طريقة إسماعيل معشوقي ، فقُتل سنة ٩٦٩ هـ . انظر المعجم الإسلامي ص : (٩٥) ، والموسوعة الإسلامية التركية : (١٠/٣٦٧) .

(٣) انظر حياة الأتراك في القرن السادس عشر في ضوء فتاوى شيخ الإسلام أبي السعود أفندي ص : (٨٥) رقم : (٣٤٦) .

(٤) انظر حياة الأتراك في القرن السادس عشر ص : (٨٥) رقم : (٣٤٨) .

وسئل أبو السعود : هل يجوز للحكام وأولياء الأمور أن يمنعوا الطائفة التي ترقص في الذِّكر وتَدُور ؟

الجواب : نعم ، واجبٌ عليهم ؛ لأنَّ من وظائفهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإذا لم يفعلوا ذلك يُعيّن غيرهم في مناصبهم[1] .

وسئل أيضاً : إذا قال زيدٌ لبعض مشايخ الصوفية : لماذا لا تتعلمون المسائل المتعلقة بالصلاة والزكاة ؟

فقال له : إن علم الباطن حجاب لعلم الظاهر ، ومن يشتغل بعلم الباطن يكشف عنه علم الظاهر .

إذا قال ذلك فماذا يلزم عليه ؟

الجواب : إنه من الملاحدة ومن الزنادقة ، وحكمه مثل حكم المرتد ، وإذا ما رجع عن اعتقاده الباطل يلزم قتله[2] .

---

(١) انظر حياة الأتراك في القرن السادس عشر ص : (٨٧) رقم : (٣٥١) .

(٢) انظر المرجع نفسه ص : (٨٨) رقم : (٣٥٥) .

الرافضة[1] وموقف أبي السعود منها :

وقف أبو السعود أيضاً موقفاً حازماً من غلاة الشيعة - الرافضة - وأصدر فتوى مشهورة ضدهم ، كما ستأتي قريباً إن شاء الله تعالى .

ويُنسَب إليه البيتان اللذان أجيب بهما بيتا العجم ، وهما :

نَحْنُ أُنَاسٌ غَدا دَأْبُنَا
حُبّ عَلِيّ بنِ أَبِي طَالِبِ
يَعِيْبُنَا النَّاسُ عَلَى حُبّهِ
فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى العَائِبِ

فأجاب أبو السعود بقوله :

مَا عَيْبُكُمْ هَذَا وَلَكِنَّهُ
بُغْضُ الَّذِي لُقِّبَ بِالصَّاحِبِ

---

(١) الرافضة جمعها روافض ، والنسبة إليها رافضي ، والرفض لغة : الترك .
واصطلاحاً : فرقة من غلاة الشيعة ، وقد سُمُّوا بذلك لأنهم تركوا الإمام زيد بن علي بن الحسين (ت ١٢٢ هـ) ، ورفضوه وخذلوه ، وقد كانوا بايعوه أولاً ثم قالوا له : تبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأبى ، وقال : بل أتولاّهما فقالوا : إذاً نرفضك ، فرفضوه ، ومن ثَمَّ قيل لهم : الرافضة . وهم فرق كثيرة ، منهم من يصل إلى درجة الكفر ، ومنهم دون ذلك .
وقد تميّزت الرافضة بالكذب ، وحصر الإمامة في علي رضي الله عنه وذريته ، وبُغض مَن عداهم من الصحابة وسبّهم ، وتكفيرهم إلا بضعة منهم ، وبالقول بالرجعة ، والتّقيّة ، والعصمة ، والكيد للمسلمين .
انظر مقالات الإسلاميين ص : (١٦) ، والفَرْق بين الفِرَق ص : (٢١ ، ٥٣) ، والملل والنحل ص : (١٤٩) ، ولسان العرب : (١٦٨٩/٣) مادة (رفض) ، وسير أعلام النبلاء : (٣٩./٥)، ودراسات في الأهواء والفرق ص : (١٤٤) .

وَقَـــوْلُكُمْ فِيْـــهِ وَفِي بِنْتِـــهِ

فَلَعْنَـــــــــةُ اللهِ عَلَى الكَاذِبِ [1]

فتواه في غلاة الشيعة - الرافضة - (القيزيلباش) :

القيزيلبـاش هم الرافضة الموجودون في تركيا ، لهم قرى خاصـة في أنحاء تركيـا الأناضول ، ولهم معاهدات مع الدولة العثمانيـة تفرض عليهم أن يكفوا عن شتم أبي بكر وعمر وعائشة رضي الله عنهم أجمعين[2] .

سئل أبو السعـــود عن طائفـــة القِيزيلْباش هل يحل حربهم شرعـــاً ؟ وهل الذي يحاربهم يكون غازيـــاً ؟ وهل الذي يُقتل بأيديهم يكون شهيداً ؟ وهل محاربتهم حلال ؟

الجواب : نعم ؛ هو غزو أكبر وشهادة عظيمة[3] .

وقال عنهم أيضاً : إن الرسول صلى الله عليه وسلم بين لنا أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النـار إلا الفـرقة النـاجية ، وهـذه الفـرقة الناجية هم من كان على سنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده . فما بالك بفرقة الشيعة ؟

إن فرقة الشيعة وغيرهم من الفرق كلها في النار ، وفرقة الشيعـة ليست الفـرقة النـاجية مـن بين ثلاث وسبعين فرقة ، إنهم أخذوا مـن كل الفـرق

(١) انظر شذرات الذهب: (٣٩٩/٨ ، ٤٠٠)، وصِلات بين العرب والفرس والترك ص : (٣٤٨) .

(٢) انظر موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين لمصطفى صبري : (٨٥/١ ، ٨٦) .

(٣) فتاوى أبي السعود ، مخطوطة رقم : (٤٧٩) ، (ق/١٠٩/أ) .

مقداراً من الشر والفساد بحسب أهوائهم ، فاختاروا بعض الكفريات والبدعيات وألحقوها بهم ، وهم بهذا قد اخترعوا مذهباً واحداً كله كفر وضلالة ، وأحوالهم هذه تزيد يوماً بعد يوم ، وأحوالهم الضالة معروفة منذ قديم الزمان ، فهم ظالمون ؛ لأنهم استخفوا بالقرآن العظيم والشريعة الإسلامية الشريفة ، واحتقروا كتب الدين وأحرقوها ، واستهانوا بعلماء الدين الأجلاء ، ورئيسهم الفاجر الملعون جعلوه في مكان المعبود ، سجدوا له وعبدوه ، وقد استحلوا أنواعاً من المحرمات الدينية ، وفسروا بعض الآيات على حسب أهوائهم ، وجعلوا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر كافراً ، وكفروا أمير المؤمنين العادل عمر الفاروق ، وقالوا : لا تصدقوا ببراءة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم وأنها نزلت عدة آيات ببراءتها ، فاستطالوا بألسنتهم عليها وعلى الصحابة الكرام ، فهم بذلك قد كذّبوا القرآن الكريم بعدم براءة عائشة رضي الله عنها ، فهم كفار وقتلهم مباح ، وهذا حكمهم شرعاً باتفاق جمهور العلماء المعاصرين ، وسائر علماء الأمصار المسلمين ، ومن يشك في كفرهم يكفر ... [1] .

---

(١) انظر حياة الأتراك في القرن السادس عشر ص : (١٠٩ - ١١١) رقم : (٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١).

الفصل الثاني

حياة أبي السعود

- المبحث الأول : اسمه ونسبه .
- المبحث الثاني : مولده ونشأته .
- المبحث الثالث : صفاته .
- المبحث الرابع : طلبه للعلم .
- المبحث الخامس : شيوخه .
- المبحث السادس : أقرانه .
- المبحث السابع : مذهبه .
- المبحث الثامن : تلاميذه .
- المبحث التاسع : مصنفاته .
- المبحث العاشر : جهاده وأثره .
- المبحث الحادي عشر : مكانته .
- المبحث الثاني عشر : وفاته .

المبحث الأول

اسمه ونسبه

هو العالم التركي الكبير ، ورجل الدولة الشهير ، المولى العلامة القاضي المفتي شيخ الإسلام ، أبو السعود أفندي : محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي[1] الإسكليبي[2] .

اشتهر بين الناس بـ (خواجة شلبي)[3] . يُعرف بكنية

---

(١) انظر كشف الظنون : (٧٥٥/١) ، وشذرات الذهب : (٣٩٨/٨) ، والكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة : (٣٥/٣) ، ومعجم المؤلفين : (٣٠١/١١) ، ومعجم المطبوعات العربية والمعرّبة ص : (٣١٦) ، والأعلام : (٥٩/٧) ، ومعجم المفسرين : (٦٢٥/٢) ، والتفسير والمفسرون : (٣٤٥/١) . وفي بعض المراجع يُذكر بكنيته دون اسمه : - أبو السعود بن محمد بن مصطفى - كما في العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم ص : (٤٤٠) ، والفوائد البهية في تراجم الحنفية ص : (٨١) . وفي بعضها يُذكر بأن والده مصطفى : - أبو السعود محمد بن مصطفى - كما في تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر ص : (٢٣٩) ، ولعله قد سقطت لفظة : (ابن) بين أبي السعود و بين محمد والله أعلم . إلا أن إسماعيل باشا البغدادي قال في كتابه هدية العارفين (٢٥٣/٢) : « أبو السعود العمادي محمد - ثم تحقق أن اسمه أحمد - ابن محيي الدين محمد»؟!! والصحيح أن اسمه محمد ؛ لأنه يكتب في جميع كتبه ومصنفاته بهذا الاسم دون غيره والله أعلم .

(٢) نسبة إلى إسكليب قصبة في إماسية بآسيا الصغرى . انظر تاريخ النور السافر ص : (٢٣٩) .

(٣) انظر : ببليوغرافية أبي السعود لآتسز ص : (١) .

أبي حنيفة الثاني[1] ، والمعلم الثاني[2] ، وخطيب المفسرين[3] .

أبوه يُسمى : (يَوْصِي محيي الدين محمد) ، وقد جمع بين الشريعة والطريقة مع التضلع من العلوم الرسمية بالحقيقة[4] .

فكان شيخاً صوفياً ، وعالماً تقياً ، جمع بين المرتبتين ، وحاز الفخر في الطريقتين[5] .

وكان ينتمي إلى الطريقة البيرمية[6] ، ولم يسلك أبو السعود طريق والده ، ولم ينشغل بالتصوف ألبتَّه ، ولم يعرف عنه الاهتمام بعلم الكلام والفلسفة[7] .

مات والد أبي السعود سنة (٩٢٢هـ) بإسكليب[8] .

وأمه بنت العلامة علاء الدين علي القَوْشَجِي[9]، وجده مصطفى العمادي أخو العلامة علي قوشجي الشهير ، وأبو جده محمد قوشجي كان رئيس

---

(١) انظر : الموسوعة الإسلامية التركية : (٣٦٥/١٠) .

(٢) نسبة إلى أن المعلم الأول هو شيخ أبي السعود وهو شيخ الإسلام أحمد بن كمال باشا . انظر: الموسوعة الإسلامية التركية : (٣٦٥/١٠) .

(٣) انظر الفوائد البهية ص : (٨٢) ، وكشف الظنون : (٦٥/١) .

(٤) انظر العقد المنظوم ص : (٤٤٠) .

(٥) انظر تراجم الأعيان من أبناء الزمان : (٢٣٩/١) .

(٦) سبق التعريف بها في ص : (٩١) .

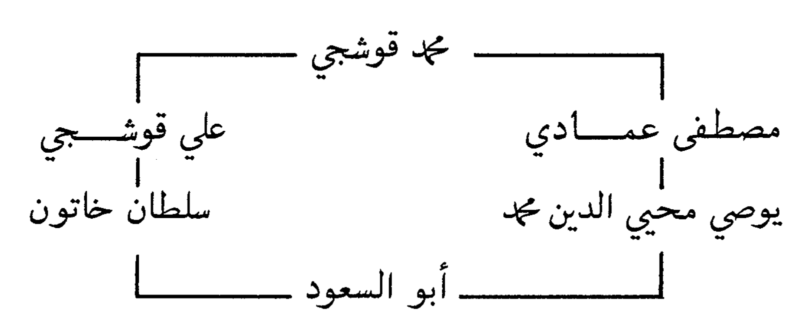
(٧) انظر حياة الأتراك في القرن السادس عشر ص : (٢٢) .

(٨) انظر ببليوغرافية أبي السعود ص : (١) .

(٩) هو علي بن محمد القَوشَجي ، علاء الدين ، من فقهاء الحنفية ، أصله من سمرقند ، ومعنى القوشجي في لغتهم : حافظ البازي . له عدة مؤلفات . مات سنة ٨٧٩ هـ . انظر الشقائق النعمانية ص : (٩٧) ، والنور السافر ص : (٢٣٩) ، والأعلام : (٩/٥) .

الصقور (دغانجي باش) للأمير أولوغ بيك[1] .

وقد تزوج أبوه يوصي محيي الدين محمد بسلطان خاتون ابنة عمِّه ، وولد منهما أبو السعود أفندي ، وعلى هذا فإن نسب أبي السعود كالتالي[2] :



فهو من بيتٍ عُرف أهله بالعلم والفضل حتى قال بعضهم فيه - كما ذكر ابن لالي بالي[3] - :

« تربّى في حجر العلم حتى رَبَى ، وارتضع ثدي الفضل إلى أن ترعرع وحبا ، ولا زال يخدم العلوم الشريفة حتى رَحُبَ باعه ، واستد[4] ساعده واشتدّ اتساعه »[5] .

---

(١) أولوغ بيك هو ملك ما وراء النهر . انظر الأعلام : (٩/٥) .

(٢) انظر ببليوغرافية أبي السعود ص : (١) .

(٣) ابن لالي بالي هو علي أفندي ابن لالي بالي بن محمد بك ، يُعرف بـ « مَنْق » . من علماء الدولة العثمانية . كان مدرساً في مدرسة الانكشارية بإستانبول . له العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم وهو ذيل للشقائق النعمانية ، ونادرة الزمن في تاريخ اليمن . مات سنة (٩٩٢ هـ) . انظر تاريخ الأدب العربي ص : (٣٠٨) ، والأعلام : (٣٢١/٤) ، والماتريدية للسلفي : (٥٣٨/٣) .

(٤) كذا ، ولعلها : « اشتدّ ساعده ، وامتد اتساعه » .

(٥) العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم ص : (٤٤٠) .

المبحث الثاني

مولـــده ونشأتـــه

وُلِد أبو السعود في ١٧ صفر سنة ٨٩٦ هـ[١] بإسكليب ، وهي قرية قريبة من القسطنطينية . وتربّى في حجر والده وعلَّمه الفنون الأدبيَّة حتى برع في حياته ، وقرأ كثيراً من كتب العلم على والده ، ومنها : «حاشية التجريد» ، و « شرح المفتاح » ، و « شرح المواقف » كلها للشريف الجرجاني[٢] ، وحفّظه « مفتاح العلوم »[٣] للسَّكَّاكي[٤] ، وأخذ العلم عن أكابر العلماء في زمانه ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى [٥] .

---

(١) الموافق ٣٠ نوفمبر عام ١٤٩٠ م . انظر هدية العارفين ص : (٢٥٣) ، وتاريخ النور السافر ص : (٢٣٩) وفيه ذكر بأنه ولد في ١٩ صفر . وانظر بليوغرافية أبي السعود ص : (١) ، والموسوعة الإسلامية التركية : (٣٦٥/١٠) .

وقيل ولُد سنة ٨٩٨هـ . انظر العقد المنظوم ص : (٤٤٠) ، وشذرات الذهب : (٣٩٨/٨) ، والأعلام : (٥٩/٧) ، وحياة الأتراك في القرن السادس عشر ص : (٢٢) .

وقيل : سنة ٩٠٠ هـ . انظر البدر الطالع : (٢٦/١) .

(٢) هو علي بن محمد بن علي الحسيني المعروف بالشريف الجرجاني ، فيلسوف متكلّم بارز ومتصوّف مشهور ، من كبار العلماء بالعربية . وُلد في جرجان ، له نحو خمسين مُصنَّفاً ، منها التعريفات ، وشرح المواقف للإيجي ، وحاشية على الكشاف . مات في شيراز سنة ٨١٦ هـ انظر التعريفات ص : (٣) ، والأعلام : (٧/٥) .

(٣) مفتاح العلوم في اثني عشر عِلماً من علوم اللغة العربية . انظر مفتاح السعادة : (٢٠٣/١) .

(٤) هو يوسف بن أبي بكر بن محمد السَّكّاكي الخوارزمي ، أبو يعقوب . عالم بالعربية والأدب مولده ووفاته في خوارزم . من كتبه مفتاح العلوم ، ورسالة في علم المناظرة . مات سنة ٦٢٦ هـ . انظر الجواهر المضية : (٦٢٢/٣)، والأعلام : (٢٢٢/٨) ، ومعجم المؤلفين : (٢٨٢/١٣) .

(٥) انظر المبحث الخامس - شيوخه - في ص : (١٣٣) .

عُيّن أبو السعـود لأول مرة سنة (٩٢٢ هـ) مدرّساً في مدرسة إسحاق باشا بـ « إِنَه كُوْل » براتب قدره (٣٠) آقجة[١] . ثم عُيّن سنة (٩٢٦ هـ) مدرساً في مدرسة داود باشـا بإستانبول براتب قدره (٤٠) آقجه . ثم عُيّن عام (٩٢٨ هـ) في مدرسة محمود باشا بإستانبول أيضاً بـ (٥٠) آقجة . وفي سنة (٩٣١ هـ) عُيّن مدرساً في مدرسة الوزير مصطفى باشا بقصبة « جَبْزَة » . وفي سنة (٩٣٢ هـ) عُيّن مدرساً في مدرسة السلطان محمد ببروسه . ثم نُقِل إلى إحـدى المدارس الثمان[٢]، وقد أنشد لنفسه عند قفوله عنها أبياتاً منها :

دَنَا النَّأْيُ عَنْ نَجْدٍ فَأَصْبَحْتُ قَائِلاً وَدَاعاً لِمَنْ قَدْ حَلَّ هَذِي المَنَـازِلا
فَيَاحَبَّذَا تِلْكَ المَعَـالِمِ وَالـرُّبَـا بِهَا كُلّ مَنْ تَهْوَى وَمَا كُنْتَ آمِلا[٣]

وفي سنة (٩٣٤ هـ) صار مدرساً في صحن السماء مدرسة المفتي .

وفي شهـر شوال سنـة (٩٣٩ هـ) صـار قاضيـاً في بروسـه ، ثم قاضيـاً في استـانبول سنـة (٩٤٠ هـ) ، ثم قاضي العسكر في روم إيلي سنـة (٩٤٤ هـ) ، واستمر في هذه الوظيفة ثماني سنوات ، وفي أثناء عمله هذا نظّم الأمور الالتزاميـة في الدولة ، ثم جعـل روزنامـه للملازمات ، وعين عدد أسماء الملازمين الذين ثبت تعيينهم إلى كل جهة .

وفي شهـر شعبـان سنـة (٩٥٢ هـ - ١٥٤٥ م) صـار شيخاً للإسـلام ، واستمر في هذه الوظيفة إلى أن تُوفي ، فظلّ في هذا المنصب ثلاثين سنة[٤] .

---

(١) الآقجة اسم للعملة النقدية التركية في عهد العثمانيين . انظر التحفة الحليمية ص : (٥٣) .

(٢) المدارس الثمان هي المدارس التي أنشأها السلطان محمد الفاتح عندما فتح القسطنطينية حيث جعل ثماني من كنائسها مدارس ، ثم لما بنى السلطان المدارس الثمان بجوار مسجده نقل التدريس من مباني الكنائس إلى المباني الجديدة ، وقد تخيروا لها نخبة من العلماء في العالم الإسلامي ، وتدرس فيها دراسات متخصصة . انظر الشقائق النعمانية ص : (٦٠) .

(٣) انظر العقد المنظوم ص : (٤٤٠) ، وعددها (١١) بيتاً .

(٤) انظر الموسوعة الإسلامية التركية : (٣٦٥/١٠) ، وبيليوغرافية أبي السعود لآتسز ص : (٢) .

يقول عنه المولى كمال الدين محمد وهو أحد تلاميذه : «ماذاق - أبو السعود - طعم العزل في حياته ، بل استمر يتنقّل في الولايات من ولاية مدرسة إلى مدرسة ، ومن منصب إلى منصب»[1] .

وكان محافظاً على الورع والدّيانة ، مثابراً على التقوى والأمانة ، وقد أُعطي حظاً عظيماً في عمره ، فلم يُصب بشيء من مواد كماله .

وكان يجيد ثلاث لغات ، وله فيها شعر بديع ، وهي : العربية - مع أنه مادخل ديار العرب - والتركية والفارسية .

تزوّج زينب هانم بنت شيخه القراماني ، وكان له ثلاثة أولاد : محمد وأحمد ومصطفى ، وثلاث بنات : خديجة ورحيمة وكريمة .

فأما محمد فصار قاضياً بدمشق في حياة أبيه سنة (٩٦٥هـ) ، وكان عالماً فاضلاً كريماً جواداً سخياً ، كثير الإحسان إلى الفقراء ، وكان خطاطاً وشاعراً في اللغة الفارسية ، وقد مدحه بعض شعراء عصره مثل أبي الفتح المالكي ، وكان متساهلاً فيما يجب لمنصب القضاء من التحجب والصيانة ، وعُزِل من الشام وأُعطي حلب ، فمارضي بها ، ومات بحلب ، ويُذكر أنه لما كان قاضياً كتب إليه أبوه من القسطنطينية كتاباً ينصحه فيه ويحذره من الرشوة في قضائه ، وكتب في كتابه هذين البيتين :

أَلَا خُذْ حِكْمَةً مِنِّي ... وَخَلِّ القِيْلَ وَالقَالا

فَسَادُ الدِّيْنِ وَالدُّنْيَا ... قَبُولُ الحَاكِمِ المَالا

مات محمد بن أبي السعود سنة (٩٧١ هـ)[2] .

---

(١) تراجم الأعيان : (٢٤٠/١) .

(٢) انظر الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام ص : (٣٢٧) ، والعقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم ص : (٣٦٤ - ٣٦٦) ، وتراجم الأعيان : (٢٤٠/١) .

وأمـا أحمـد فقـد كان غايةً في العلم ، تتلمـذ على والده ، وعلى المولى طاشكبري زاده ، درّس وعمره سبعة عشر عاماً في عدة مـدارس ، كان آخرها مـدرسة السلطان محمد ابن السلطان سليمـان ، كان صـاحب إذعان صحيـح ، ولسـان طلق فصيح ، كان غاية في جرأة الجنـان ، وسعـة التقـرير والبيـان ، اتفق ذات مرة أنه سافر متنزهاً وهو مُدرّس بمدرسة ابن السلطان إلى بروسه ، فجمع مـن كان فيهـا مـن المدرسين والأعيـان ، وعقـد مجلسـاً في الجـامع الكبير ، فنقل من كتـاب الإمام البخـاري نقولاً ، وشـرحها في بيان بديع وتحرير متقن .

وكتب على حاشية القصيدة التي أنشأها والده أبو السعود ، والتي أولها :

لِمَنِ الـدُّنَا وَتَضَعْضَعَتْ أَرْكَانُهَا وَانْقَضَّ فَوْقَ عُرُوشِهَا جُدْرَانُهَا

فقـال : « أفاد أولاً أدام الله عزّته أن إقبـال دولة الدنيـا على صـاحبها بحيث ذلّت رقاب الأقيال ، لبلوغها ذُرا الحسن والجمال ، ومباشرتها لثياب العِزّ والإجلال ، وأزر المجد والكمـال ، والنـاس عطاش الأكباد لزلال ألفاظها الرائقة ، وسلسـال عباراتها الفائقة ، حتى صـارت بحيث يشـار إليها بالبنان ، وتترقبها عيون الأعيان . أقمار الحسن في وجهها طالعة ، وغصون البهجة في بساتين جمالها يانعة . وارتفعت مكانتها إلى حيث يناغي البِرْجِيس [1] ، ويعادل عرش بلقيس ، ثم أعرض عنهـا الزمـان ، ودهـاها الحـدثان ، وصبّ على جراثيم أزهار حسنها مياه المصائب ، وتتابعت عليها الرّزايا والنّوائب ، وجرّ على عروشها أذيال البلى ، وخرعوا إلى قصرها بأنواع المحنة والبلى ، وجرت

(١) البِرْجِس والبِرْجِيس : نجم ، قيل : هو المشتري ، وقيل : هو المريخ . انظر لسان العرب : (٢٤٤/١) مادة (برجس) .

على هذا الأسلوب الأزمان والدّهور ، والأحقاب والعصور ، وتفرّق عاكفوا بابها المنيع ، ومجاورو مسكنها الرفيع ، وقد اقتضاهم من أوجدهم أن يفنوا ، وخلت عنهم الديار كأن لم يغنوا . آل أمرها إلى حال ، تغيرت عليها الشؤون والأحوال ، فسبحان من لا يعتري مُلكه التَّبَدُّل والانتقال ، ولا يجري في سلطانه تفرُّق وانفصال » .

مات أحمد سنة (٩٧٠ هـ) ومابلغ عمره ٣٠ سنة [١] .

وأما مصطفى فإنه كان أصغرهم وأقلّهم علماً ، واستمر حياً إلى سنة (١٠٠٨ هـ)، ومات في السنة المذكورة قاضياً بعساكر الروم ، وكانت له إحاطة بالفروع الفقهية، وإلمام بالعلوم العقلية والنقلية ، وكان يسير سير الملوك ، ويتقلّد من الترفّه بأزهى سلوك ، وكانت الدولة تراعيه لمكانة أبيه من الرفعة[٢] .

وكان لمحمد ولدان اسمهما : عبد الكريم وعبد الواسع ، إلا أن نسل أبي السعود لم يستمر عن طريقهما .

وقد استمر نسله عن طريق ولده مصطفى ، وكان آخرهم محمد سعد الدين ، ولم يكن له ولد ، وكان له بنت اسمها عائشة صديقة هانم ، ولذلك انقطع نسل أبي السعود من الذكور ، واستمر نسله عن طريق عائشة هذه ، وهي الحفيدة العاشرة له ، وقد تزوجت بالخطاط وحيد الدين أفندي[٣] .

---

(١) انظر العقد المنظوم ص : (٣٥٤- ٣٥٦) .

(٢) انظر تراجم الأعيان : (٢٤٠/١ ، ٢٤١) ، وخلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر : (٣٨٩/٤ ، ٣٩٠) .

(٣) انظر ببليوغرافية أبي السعود ص : (٥) .

المبحث الثالث

صفاتــــه وأخلاقــــه

كان أبو السعود حاضر الذهن ، سريع البديهة ، سالم الفطنة ، جيد القريحة ، لطيف العبارة ، حلو النادرة ، وكان طويل القامة ، خفيف العارضين ، طويل اللحية ، باسم الوجه ، غير متكلف في الطعام واللباس ، غير أن فيه نوع اكتراث بمداراة الناس ، والميل لأرباب الرياسة ، فكان ذا مهابة عظيمة ، واسع التقرير ، سائغ التحرير ، يلفظ الدُّرر من كَلِمِه ، وينشر الجوهر من حِكَمِه[1] .

قال البوريني[2] : « كانت له حشمة وافية وحرمة باهرة ، وقوة بين أمثاله قاهرة ... وكان محافظاً على الورع والديانة ، مثابراً على التقوى والأمانة »[3] .

وقال العيدروسي[4] : « اشتغل بفنون الآداب ، ودخل إلى الفضائل من

---

(١) انظر الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة : (٣/٣٥) ، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب : (٨/٣٩٩) ، والموسوعة الإسلامية التركية : (١٠/٣٦٥) .

(٢) هو الحسن بن محمد بن محمد البوريني ، بدر الدين ، مؤرّخ ، من العلماء بالأدب والحديث والفقه والرياضيات والمنطق ، كان يجيد الفارسية والتركية ، نسبته إلى بورين من بلاد نابلس . مات سنة ١٠٢٤ هـ . انظر الأعلام : (٢/٢١٩) .

(٣) تراجم الأعيان : (١/٢٤٠ - ٢٤١) .

(٤) هو عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروسي ، مؤرّخ باحث من أهل اليمن . مات سنة ١٠٣٨ هـ . انظر الأعلام : (٤/٣٩) .

كلّ باب ... ولي منصب الإفتاء وكان سلوكه لا عوج فيها ولا أمتى »[1] .

وقال ابن لالي بالي[2] : « كان رحمه الله ذا مهابة عظيمة ، وتؤدة جسيمة ، قلما يقع في مجالسه للعظام ، المبادرة بالخطاب والكلام ، وكان واسع التقرير ، سائغ التحرير ، يلتقط الدرر من كَلِمِه ، ويتناثر الجوهر من حِكَمِه ، إذا نثره تراه بحراً زاخراً ، وإذا نظم قلد جيد البيان دراً فاخراً »[3] .

وقال نَجْم الدِّين الغَـزِّي[4] : « كان المولى أبو السعود عالماً عاملاً ، وإماماً كاملاً ، شديد التحرّي في فتاويه ، حسن الكتابة ... مهيباً ، حسن المحاورة ، وافر الإنصاف ، ديّناً خيّراً ، سالماً مما ابتلي به كثير من موالي الروم من أكل المكيفات ، سالم الفطنة ، جيد القريحة ، لطيف العبارة ، حلو النادرة »[5] .

---

(١) تاريخ النور السافر ص : (٢٤٠) .

(٢) تقدمت ترجمته في ص : (١٠٢) .

(٣) العقد المنظوم ص : (٤٤٥) .

(٤) هو محمد بن محمد بن محمد الغَزّي العامري القرشي ، أبو المكارم نجم الدين ، مؤرّخ باحث أديب ، مولده ووفاته في دمشق . مات سنة ١٠٦١ هـ . انظر الأعلام : (٦٣/٧) .

(٥) الكواكب السائرة : (٣٥/٣) .

المبحث الرابع

طلبه للعلم وتحصيله وثقافته

تلقّى أبو السعود العلم في بداية أمره على يد والده ، وقرأ بعض التفاسير المتنوعة ، وقد نُقل عنه أنه قال مرة :

« قرأت على والدي الشيخ محيي الدين حاشية التجريد للشريف الجرجاني من أول الكتاب إلى آخره مع جميع الحواشي المنقولة عنه ، وقد قرأت عليه شرح المفتاح للعلامة المسفور[١] مرتين ، وشرح المواقف له أيضاً بالتمام والكمال »[٢] .

قال العيدروسي : « وحفّظه والده كتباً منها المفتاح للسّكّاكي ، فامتاز في صغره بفصاحة العرب العرباء، واشتغل بفنون الآداب ، ودخل إلى الفضائل من كل باب »[٣] .

ثم درس على يد مؤيد زاده عبد الرحمن أفندي ، والقراماني ، وعلى يد ابن كمال باشا ، وصار ملازماً للمولى سعدي جلبي ، وأخذ عن العلامة قادري جلبي ، وعن جماعة من علماء عصره[٤] .

وقال عنه أبو الحسنات اللكنوي[٥] : « كان يجتهد في بعض المسائل ، ويخرّج ويرجّح بعض الدلائل ، وله في الأصول والفروع قوة كاملة ، وقدرة شاملة ، وفضيلة تامة ، وإحاطة عامة »[٦] .

---

(١) لم أقف له على ترجمة .

(٢) العقد المنظوم ص : (٤٤٠) .

(٣) تاريخ النور السافر ص : (٢٣٩) .

(٤) ستأتي تراجم مشايخه في المبحث الخامس إن شاء الله تعالى ص : (١٣٣)

(٥) هو محمد عبد الحي بن محمد عبد الحليم اللكنوي الهندي ، أبو الحسنات ، عالم بالحديث والتراجم من فقهاء الحنفية . مات سنة ١٣٠٤ هـ . انظر مقدمة الرفع والتكميل له ص : (١٨) ، والأعلام : (١٨٧/٦) .

(٦) الفوائد البهية ص : (٨١) .

وقد ألّف أبو السعود مؤلّفات عديدة ، منها تفسيره المشهور بـ (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب[1] الكريم) ، وصرّح في مقدمته أنه قد اعتمد فيه على تفسير الكشاف للزمخشري[2] ، وأنوار التنزيل للبيضاوي[3] ، وغيرهما ممن تقدمه ، وقد أثنى على تفسيريهما [4] .

ومعلوم أن الزمخشري من علماء المعتزلة[5] الذين أظهروا مذهبهم ، وحملوا

---

(١) في غلاف طبعة دار إحياء التراث بلفظ : « القرآن » ، والصواب ما أثبته كما سمّاه المصنِّف .

(٢) هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، يلقّب بجار الله . حنفي المذهب معتزلي العقيدة . مات سنة (٥٣٨ هـ) . انظر الجواهر المضية في طبقات الحنفية لعبد القادر القرشي : (٤٤٧/٣) ، وإشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين لعبد الباقي اليماني ص : (٣٤٥) ، والأعلام للزركلي : (١٧٨/٧) .

(٣) هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي البيضاوي ، قاضٍ مفسر أصولي من الأشاعرة له كتاب الطوالع والتفسير . مات سنة (٦٨٥ هـ) . على الراجح . انظر : البداية والنهاية لابن كثير : (٣٢٧/١٣) ، والوافي بالوفيات للصفدي : (٣٧٩/١٧) ، والأعلام : (١١٠/٤) .

(٤) انظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : (٤/١ - ٦) . وكان مما قاله أبو السعود فيهما : « وأما المتأخرون المدقّقون ... فدوّنوا أسفاراً بارعة ، جامعة لفنون المحاسن الرائعة، يتضمن كل منها فوائد شريفة تقرّ بها عيون الأعيان ، وعوائد لطيفة تتشنّف بها آذان الأذهان ، لا سيما « الكشاف » و « أنوار التنزيل » المتفردان بالشأن الجليل ، والنعت الجميل ، فإن كلًّا منهما قد أحرز قصب السبق أي إحراز ... ولقد كان في سوابق الأيام ، وسوالف الدهر والاعوام ، أوان اشتغالي بمطالعتهما وممارستهما ، وزمان انتصابي لمفاوضتهما ومدارستهما ، يدور في خلدي على استمرار ، آناء الليل وأطراف النهار ، أن أنظم درر فوائدهما في نمط دقيق ، وأرتّب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق ... » .

(٥) المعتزلة : سُمّوا بذلك لاعتزال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد - من رؤسائهم - مجلس الحسن البصري . وقد تميّزت بالقول بالمنزلة بين المنزلتين في أحكام أهل الكبائر ، وتعطيل الصفات ، وتقديم العقل على الشرع ، والقول بالقدر . انظر مقالات الإسلاميين للأشعري ص : (١٥٥) ، والفَرق بين الفِرق للبغدادي ص : (١١٤) ، والملل والنحل للشهرستاني ص : (٤٨) ، ودراسات في الأهواء والفِرق والبدع للدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل ص : (١٤٤ ، ١٨٣) .

ألفاظ القرآن الكريم على ذلك ، وأما البيضاوي فهو من الأشاعرة[1] ، وقد اختصر تفسيره من الكشاف ، وتأثر به في أفكاره وعقيدته ، حيث يقول الدكتور يوسف بن أحمد بن علي :

« غَلَبَ علم الكلام على البيضاوي ، الأمر الذي أثّر في عقيدته ، فناصر الأشاعرة ، وتأثّر بالمعتزلة وخاصة الزمخشري ، فَتَبِعَه في كثيرٍ من الآراء ، وانتهج أسلوب التأويل ، فخرج بكثير من الآيات من معناها إلى معنى يوافق عقائد المتكلّمين »[2] .

وقد جمع أبو السعود في تفسيره ما في تفسير البيضاوي والزمخشري ، وزاد فيه زيادات من تفسير القرطبي[3] والثعلبي[4] والواحدي[5]

---

(١) الأشاعرة : هم المنتسبون إلى أبي الحسن الأشعري (ت ٣٢٤ هـ) في مذهبه الثاني بعد رجوعه عن الاعتزال ، وعامتهم يثبتون سبع صفات فقط ، ويؤوّلون ما عداها ، وينفون عن الله تعالى علوّ الذات ، ويقولون : إنّ الإيمان هو التصديق ، كما يقولون بالإرجاء والكسب ، وتقرير العقيدة بالكلاميات . انظر الملل والنحل ص : (٩٤) ، ودراسات في الأهواء والفِرق والبدع ص : (١٤٤) .

(٢) البيضاوي ومنهجه في التفسير - رسالة دكتوراه - ص : (٣٩٩) . وقد ضرب الدكتور يوسف في رسالته أمثلة كثيرة على متابعة البيضاوي لما جاء في الكشاف للزمخشري . انظر على سبيل المثال ص : (٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥) .

(٣) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي الأندلسي ، أبو عبد الله القرطبي من كبار المفسّرين من أهل قرطبة ، له الجامع لأحكام القرآن ، والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، والتذكرة . مات سنة ٦٧١ هـ . انظر الأعلام : (٣٢٢/٥) .

(٤) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ، أبو إسحاق ، مفسّر ، من أهل نيسابور ، له الكشف والبيان في تفسير القرآن ، وعرائس المجالس في قصص الأنبياء . مات سنة ٤٢٧ هـ . انظر سير أعلام النبلاء : (٤٣٥/١٧) ، والأعلام : (٢١٢/١) .

(٥) هو علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي ، أبو الحسن ، إمام في التفسير ، وعالم بالأدب . له البسيط والوسيط والوجيز كلها في التفسير، وأسباب النزول . مات سنة ٤٦٨ هـ . انظر سير أعلام النبلاء : (٣٣٩/١٨) ، والأعلام : (٢٥٥/٤) .

والبغوي[1] وغيرهم[2] .

إلا أنّ الإمام الشوكاني[3] قال عنه : « وهو من أجلّ التفاسير وأحسنها وأكثرها تحقيقا وتدقيقا »[4] .

ولعلّ الشوكاني يقصد بكلامه النواحي اللغوية والنحوية والبلاغية ، ولذلك يقول الدكتور زهدي جار الله عنه بأنه : « خير تفسير أُخرج للناس من حيث شرحه بلاغة القرآن »[5] .

وقال عنه البوريني : « وغالب تحقيقه وقع في أوائله ، وأما النصف الثاني فغالبه عبارة البيضاوي ، ولا يزيد عليه غالبا إلا بعض النكت المتعلّقة بالبلاغة »[6] .

وقال الزُّرْقَاني[7] : « تفسير أبي السعود : تفسير رائع ممتاز ، يستهويك حُسن تعبيره ، ويروقك سلامة تفكيره ، ويروعك ما أخذ نفسه به من تجلية بلاغة القرآن ، والعناية بهذه الناحية المهمة في بيان إعجازه ، مع سلامة في الذوق ، وتوفيق في التطبيق ، ومحافظة على عقائد أهل السنة[8] ، وبُعد عن الحشو والتطويل »[9] .

---

(١) هو الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البَغَوي ، أبو محمد محيي السنة ، صاحب التصانيف ، ومنها معالم التنزيل ، وشرح السنة ، والمصابيح ، والجمع بين الصحيحين . مات سنة ٥١٠ هـ انظر سير أعلام النبلاء : (٤٣٩/١٩) ، والأعلام : (٢٥٩/٢) .

(٢) انظر الكواكب السائرة : (٣٥/٣) .

(٣) هو محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، من كبار علماء اليمن ، له مصنفات عديدة . ولي قضاء صنعاء . مات سنة ١٢٥٠ هـ . انظر الأعلام : (٢٩٨/٦) .

(٤) البدر الطالع : (٢٦١/١) .

(٥) المعتزلة للدكتور زهدي حسن جار الله ص : (٢٢٨) .

(٦) تراجم الأعيان : (٢٤١/١) .

(٧) هو محمد بن عبد العظيم الزُّرقَاني ، من علماء الأزهر بمصر ، عمل بكلية أصول الدين مدرّساً لعلوم القرآن والحديث . مات بالقاهرة سنة ١٣٦٧ هـ . انظر : الأعلام : (٢١٠/٦) .

(٨) قوله : « ومحافظة على عقائد أهل السنة » فيه نظر ، ويحتاج إلى بحث ودراسة من الناحية العقدية ، وهو موضوع هذه الرسالة .

(٩) مناهل العرفان في علوم القرآن : (٦٧/٢ - ٦٨) .

ويقول الدكتور محمد حسين الذهبي : « ولكن نجده قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف وصاحب أنوار التنزيل من أنه ذكر في آخر كل سورة حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضلها ، ومع[1] لقارئها من الثواب والأجر عند الله ، مع أن هذه الأحاديث موضوعة باتفاق أهل العلم جميعاً »[2] .

وذكر ابن الجَوْزي[3] عمن وضع هذه الأحاديث المصنوعة في آخر كل سورة بما يناسبها من الثواب بأنه كلام ركيك في غاية البرودة لا يناسب كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم[4] .

وقال ابن قيم الجوزية[5] عن الأحاديث التي لم تثبت :

« ومنها ذكر فضائل السور وثواب من قرأ سورة كذا ، فإنه أجره كذا[6] ، من أول القرآن إلى آخره ، كما ذكر ذلك الثعلبي والواحدي في أول كل سورة ، والزمخشري في آخرها . قال عبد الله بن المبارك[7] : أظن الزنادقة

---

(١) كذا ، ولعلها : وما لقارئها .

(٢) التفسير والمفسرون : (٣٤٩/١) .

(٣) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجَوْزي ، أبو الفرج ، علامة عصره في التاريخ والحديث . مات سنة ٥٩٧ هـ . انظر سير أعلام النبلاء : (٣٦٥/٢١) ، والأعلام : (٣١٦/٣) .

(٤) انظر الموضوعات لابن الجوزي في أبواب تتعلق بالقرآن - باب فضائل القرآن : (١٣٩/١) .

(٥) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرعي الدمشقي ، أبو عبد الله ، شمس الدين ابن قيّم الجوزية تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية . عالم كبير وإمام كريم قام في الإسلام مقاماً حميداً . مات ابن القيم الجوزية سنة ٧٥١ هـ . انظر ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب : (٤٤٧/٢) ، والأعلام : (٥٦/٦) ، وابن قيم الجوزية حياته وآثاره للدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد .

(٦) كذا ، ولعلها : فله أجر كذا ، أو فإن له من الأجر كذا .

(٧) هو عبد الله بن المبارك بن واضح ، الإمام الحافظ ، شيخ الإسلام ، أمير الأتقياء في وقته . مات سنة ١٨١ هـ . انظر تهذيب الكمال : (٥/١٦) ، وسير أعلام النبلاء : (٣٧٨/٨) .

وضعوها »[1] .

وقال أيضاً : « ثم سائر الأحاديث بعد ، كقوله : من قرأ سورة كذا أُعطي ثواب كذا ، فموضوعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد اعترف بوضعها واضعها ، وقال : « قصدت أن أشغل الناس بالقرآن عن غيره » ، وقال بعض جهلاء الوضاعين في هذا النوع : « نحن نكذب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نكذب عليه » ، ولم يعلم هذا الجاهل : أنه من قال عليه ما لم يقل فقد كذب عليه[2] ، واستحق الوعيد الشديد »[3] .

وقال الشوكاني عن حديث أبي بن كعب رضي الله عنه في ذكر فضل سورة سورة من فاتحة الكتاب إلى آخر القرآن : « ولا خلاف بين الحفاظ بأن حديث أبي بن كعب هذا موضوع ، وقد اغتر به جماعة من المفسرين ، فذكروه في تفاسيرهم ، كالثعلبي والواحدي والزمخشري ، ولا جرم فليسوا من أهل هذا الشأن »[4] .

ومن المآخذ على أبي السعود في تفسيره متابعته للبيضاوي والزمخشري في إنكار مسّ الجنّ أو الصَّرْع ، فظاهر نصوصهم أنهم ينكرون دخول الجن في أبدان الإنس .

وحيث إن هذه المسألة من المسائل الاعتقادية المعتبرة عند أهل السنة

---

(١) المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص : (١٠٣ ، ١٠٤ رقم : ٢٢٤) .

(٢) روى الإمام البخاري بسنده في كتاب العلم - باب إثم من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم : (٢٤٣/١ ح ١٠٩) عن سَلَمَة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَن يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

(٣) المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص : (١٠٦ ، رقم : ٢٣٧) .

(٤) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ص : (٣١٧) .

والجماعة ، ولا يجوز عدّها من المسائل الاجتهادية ، لذلك فإنني سأتناولها بالتفصيل في مبحثٍ خاصٍ - إن شاء الله تعالى- مبيّناً كيف تأثر أبو السعود بالبيضاوي ، حيث إنه قد نقل كلامه بتمامه تقريباً ، موافقاً له ومتابعاً ، فوقع أبو السعود ومِن قَبله البيضاوي في الزَّلَل الذي وقع فيه الزمخشري المعتزلي في إنكار هذه المسألة المهمة[1] .

فتاوى أبي السعود وثقافته فيها :

كان يكتب جواب الفتوى على منوال ما يكتبه السائل من الخطاب واقعاً على لسان العرب والعجم والروم ، من المنثور والمنظوم ، وله في هذه الألسنة الثلاثة واللغات المذكورة شعر بديع ، وقد أثبت منها ما يستعذبه الناظر ، ويستحسنه أرباب البصائر ، فإذا جاءه السؤال منظوماً كان الجواب منظوماً مع الاتفاق بينهما في الوزن والقافية ، وإن كان السؤال نثراً مسجعاً كان الجواب مثله ، وإن كان بلغة العرب فالجواب بلغة العرب ، وإن كان بلغة الترك فالجواب بلغة الترك ، وإن كان بلغة الفرس والعجم فالجواب كذلك ، وهذا مما يشهد للرجل بسعة أفقه ، وغزارة مادته[2] .

وكان يقول : جلست يوماً بعد صلاة الصبح أكتب على الأسئلة المجتمعة ، فكتبت إلى صلاة العصر على ألف وأربع مئة واثنتي عشرة فتيا[3] .

وله فتاوى مرتبة على أبواب الفقه ، تارة يكتبونها بالتركية ، وتارة

---

(١) انظر تفصيل هذه المسألة في الباب الثاني ص : (٤٩٧) من هذه الرسالة .

(٢) انظر العقد المنظوم ص : (٤٤١) ،وتاريخ النور السافر ص : (٢٤٠) ،والتفسير والمفسرون : (٣٤٦/١) .

(٣) انظر تاريخ النور السافر : ص : (٢٤٠) .

يكتبونها بالعربية[1] .

سئل أبو السعـــود عن شخـص لا هو مـريض ، ولا هو حي ولا ميت ، ولا عاقل ولا مجنون ، ولا نائم ولا يقظان ، فأجاب بقوله :

« إن كان لهذا وجود فهو الترياقي[2] »[3] .

وقد ورد إليه سؤال واستفتاء عن حكم الاستهزاء بذكر الله تعالى وآياته ، فأجاب رحمه الله تعالى إجابة سديدة شافية كما يأتي :

« صورة السؤال :

مـا قول مولانا وسيـدنا وقدوتنـا ، وموضّح مشكلاتنـا ، وفـاتق رتق معضـلاتنا ، كعبة المجد والكمـال ، قامع الزيغ والضـلال ، نقاب العلماء الأعـلام ، وشيخ مشـايخ الإسـلام ، لا زالت دعائم الشـرع شـارعة بيمـن وجـوده ، وإسعـاد الدين كاثراً بكتـائب سعــوده : في قوم اتخـذوا قول لا إله إلا الله موضوعاً لتحـريف النغمـات ، ورعاية لصنـاعة الأصوات ، فطوراً يزيدون ، وطوراً ينقصون ، على حسب مـا يلائم الصنـاعات البـاطلات ، والآراء الفاسدات ، لا يرجون في ذلك لله تعـالى وقاراً ، بل اتخـذوا ذلك لبدعتهم شعاراً ؟

(١) انظر تراجم الأعيان : (٢٤٤/١) .

(٢) الترياق هو دواء السموم . انظر لسان العرب : (٤٣٠/١) مادة (ترق) .

(٣) انظر الكواكب السائرة : (٣٥/٣) .

صورة الجواب :

ما ذكر أمر مخترع مَكْروه ، ومكر مبتدع بئسما مَكْروه ، فتردّوا في مهاوي الرّدى ومصارعه ، والتحقوا بالذين يحرّفون الكلم عن مواضعه ، فيجعلون تلاوة المثاني ، كترنمات الأغاني ، فوالذي أنزلها بالحق المبين ، وجعلها كلمة باقية إلى يوم الدين ، لئن لم ينتهوا عما هم فيه ، من المكر الكريه ، ولم يرجعوا كلمة التوحيد إلى نهجها السديد ، ليمسّنهم عذاب شديد ، وإنما الذي ندب إليه ، وحرّض المؤمنين عليه : تزيين الأصوات بالقرآن الجليل ، من غير تغيير فيه ولا تبديل ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، وهو حسبي ونعم الوكيل »[1] .

وسئل عن شرب القهوة قبل أن يكمل اشتهارها ، بعدما قرر له اجتماع الفسقة على شربها ، فأجاب بقوله :

« ما أكب أهل الفجور على تعاطيه ، فينبغي أن يجتنبه من يخشى الله ويتّقيه ، وهذا ليس فيه تصريح بتحريمها ، بل يقتضي أن الأولى تركها ؛ حذراً من التشبه بالفجّار ، والكلام في القهوة الآن قد انتهى الاتفاق على حلّها في نفسها ، وأما اجتماع الفسقة على إدارتها على الملاهي والملاعب ، وعلى الغيبة والنميمة فإنه حرام بلا شك ، وقد أجبت عن سؤال صورته :

أيُّها الفَاضِلُ الذِي جَمَعَ العِلْمَ
وَحَازَ التُّقى فأصْبَح قُدْوَه

(١) العقد المنظوم ص : (٤٤٢) .

أَفْتِـــنَا أَنْتَ هَلْ تَقُـولُ حَـــلالُ

أَمْ حَـرَامٌ عَلى الوَرَى شُرب قَهْوَه ؟

فقلت :

أَيُّها السَّـــائِل الذِي جَـاءَ يَرجُـو

عِنْدَنا أَنْ نُبِيْحَـهُ شُـربَ قَهْـــوَه

قَهْـــوَة البُنِّ لا تكـونُ حَرَامــــاً

إِنَّها لا تفِيْـــدُ في النَّفْسِ نَشْـــوَه

غَيْرَ أَنَّ الذِي يَجِيءُ بيُـــــــوتاً

هِيَ فِيْها تُـــــدَارُ عَـادِم نَخْـــوَه

إِذْ يَرى المُـــرْدَ والمَعَـــازِفَ والـنَّرْدَ

وَكُلّ يَلْهُـــــو فَيَتْبَـــــع لَهْـــوَه

ثُمّ لَمْ يَقْـــــوَ أَنْ يُغَـــيّر نكــراً

خَشْيَــــــةَ أَنْ يُعَـدّ ذَلك هَفْـوَه

أَوْ يجِيْبُـــوهُ بِالإِهَــانَةِ وَالسّـــوءِ

وَيجْفُـــونَه بِأَعْظَـــم جَفْـــــوَه

أَوْ يخَـــلّي شَيْطَانـــــهُ لهَـــواه

لهـــوه في تِلْكَ البيُـوتِ وَلغـــوَه

مُعْرِضـــاً عَن رَشَـــادِه وتُقَـــاهُ

سَالياً عَنْ صَــــــلاتِهِ أَيّ سَلْـوَه

كُلّ هَـــذا مُخَـــالفُ لِطَـرِيقٍ

خَطّـــــهُ المُصْطَفَى وَعَرّج نحـوَه

فَاجْتَنِبْـــهُ وَدَعْ طَوائِفَ تَدْعُـوكَ

(م) إِلَيْـــهِ وَلَوْ بِآكد دَعْـــوَه

لا تُطِعْهُم وَلَو رَضُوا مِنْكَ خطْـوَه

فَتُطِيعَ الرَّجِـــيْمَ فِي كُلِّ خطْوَه

وَإِذَا شِئْتَ شُـــرْبَ قَهْـوَة بُنٍّ

حَسْـوَةً قَدْ أَرَدْتَ أَوْ أَلْفَ حَسْوَه

فَلْيَكُنْ ذَاكَ وَســطَ بَيْتِكَ مَهْـمَا

لَمْ تشـبْ صَفْوَهَا بِمُوجِبِ صَبْوَه

وَاذْكُـرِ اللّهَ أَولاً وَأَخــيراً

وَتَوَثَّـق مِنْهُ بِأَوْثَق عُـرْوَه[1]

شعر أبي السعود ونظمه :

قال الزِّرِكلي : « وشعره جيّد خلص كثير منه من ركاكة العجمة »[2] .

ومن درر أشعاره بالإضافة إلى ماسبق ، ما كتبه في رسالة أرسلها إلى أحبابه ، ويقول فيها :

يَا بَائِناً وَمَحلّه بِفُـــؤادِي

كَيْفَ البِعَـــادُ وَأَيْنَما تَفْتَازُ

(١) الكواكب السائرة : (٣/٣٥ - ٣٦) .

(٢) الأعلام : (٧/٥٩) .

زمت رِكَابكَ للرَّحِيْـــلِ بِدَوْلَةٍ
اللّهُ جَارُكَ حَيْثُـــــما تَجْتَازُ
وَجْدِي وَأَشْوَاقِي إِلَيْكَ حَقِيْقَـة
وَالشّوقُ مِنْهُ حَقِيْقَـةٌ وَمَجَازُ[1]

وله القصيدة الميمية المشهورة التي عارض فيها ميمية أبي العَلاء المَعَرّي[2] ، والتي يشكو فيها ويتوجّع لاندراسِ معالم العلوم ، ويتألّم لفقد قوانين الموالي بديار الروم ، وتقع في تسعين بيتاً ، ومطلعها :

أَبَعْدَ سُلَيْمَى مَطْلَبٌ وَمَـــــرَامُ
وَدُوْنَ هَـــوَاهَا لَوْعَـــةٌ وَغَـــرَامُ
وَهَيْهَـــاتَ أَنْ يُثْنَى إِلى غَـيْرِ بَابِهَا
عَنَانُ المطَايَـــا أَوْ يُشَـــدَّ حِزَامُ
هِيَ الغَايَةُ القُصْـوَى فَإِنْ فَاتَ نَيْلُهَا
فَكُلُّ مِنَ الدُّنْيَـــــا عَلَيَّ حَرَامُ

إلى أن يقول فيها :

تَقَطّعَتِ الأَسْبَـــابُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
وَلَمْ يَبْـقَ فِيْـنا نَسْبَـــةٌ وَلِئَامُ[3]

(١) العقد المنظوم ص : (٤٤٥) .

(٢) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعرّي ، شاعر فيلسوف ، ولد ومات بمعرّة النعمان مات سنة ٤٤٩ هـ . انظر معجم الأدباء : (١/٢٩٥) ، والأعلام : (١/١٥٧) .

(٣) كذا ، ولعلّها : « ووئام » ، أي : ملاءمة وموافقة .

فَلا هِي في بُرْجِ الجَمَالِ مُقِيْمَــــــــة
وَلا أَنَا في عَهْــــــــدِ المجُونِ مرامُ
فَمَا كُلُّ قَـــولٍ قِيلَ عِلْـــمُ وَحِكْمَةٌ
وَلا كُلُّ أَفْـــــرَادِ الحَدِيْـــدِ حسَامُ
وَكَمْ عِشْــرَةٌ مَا أَوْرَثَتْ غَيْرَ عُسْـرَةٍ
وَرُبَّ كَلامٍ في القُلُـــــوبِ كِلاَمُ
أَجدّك مَا الدُّنْيَـــــا وَمَاذَا نَعِيْمُهَـا
وَمَاذَا الذّي تَبْغِيْــــــهِ وَهُوَ حُطَامُ
تَشَكّلَ فِيْهَـــــــا كُلُّ شَيءٍ بِشَكْلِ مَا
يُعَانِــــــــــــدُهُ وَالنَّاسُ عَنْهُ نِيَامُ
فَعِـــــزٌّ بِهُـــونٍ وَالهَـــوانُ بِعِزّةٍ
تَنَبَّـــــــــــهْ فَهَاتِيْكَ الحَيَاة مَنَامُ
مَحَوْتُ نُقُوشَ الجَاهِ عَنْ لَوْحِ خَاطِري
فَأَمْسَـــــــى كَأَنْ لَمْ يَجْرِ فِيه قلامُ
أَنِسْـــــــــــتُ بِلأوَاءِ الزَّمَانِ وذُلِّهِ
فَيَا عِـــــــــزَّةَ الدُّنْيا عَلَيْكِ سَلامُ
فَسُبْحَانَ رَبّ العَـــــرْشِ لَيْسَ لِمُلْكِهِ
تَنَــــاهٍ وَحَـــــدٌّ مَبْـــدَأٌ وَخِتَامُ[1]

---

(١) مخطوطة مكتبة أسعد أفندي رقم : (١١/٧١٣) ورقة (١/ب - ٤/ب) ، وانظر العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم : ص : (٤٤٥ - ٤٤٧) ، وتراجم الأعيان : (٢٤٢/١) ، وتاريخ النور السافر : ص : (٢٤٠ - ٢٤١) .

وله قصيدة أخرى يشير فيها إلى الدوام المطلق لله، وثبوت الفناء لمن سواه، وهي قصيدة حسنة في بابها تقع في (٦٧) بيتاً، ومطلعها :

مَقَـــــــالَةُ الحَقِّ عَــزّ قَائِلُهَا
مَركُــــــــــوزَةٌ في النّهى دَلائِلُـها

قَوِيَـــــــةٌ لا ترى لهَـــا عِوَجـــاً
لا قَـــدّسَ اللّهُ مَن يجُـــادِلها

ظَـــاهِرَةٌ للحِجَى دَقَايِقُــــــها
وَاضِحَـــــــــةٌ عِنْدَه جَلائِلُها

تجُيْبُ عَنْ كُلّ نكْتَــــــةٍ سُئِلَت
بِغَيرِ خلـــــــــفٍ فَأَيْنَ سَائِلُها

سَرِيرَةُ الحَـــــــقِّ غيرُ خَافِيَةٍ
عَلَى أَرِيبٍ وَذَاكَ كَافِــــــلُها

طُفْ بِالبِـــــــلادِ الّتي تَبَوّأها
مُلُوكُ عَصْـــــــرٍ وَقِفْ نُسَائِلُها

أَيْنَ الّذِي اخْتَطّهَـــــا وَمَصّرَها
وَأَيْنَ معْمَـــــــــارُها وَعَامِلُها

مَنْ شَـــــــقَّ أَنْهَارَها وَعَمّرَها
وَمَنْ لَهُ حُفِــــــرَت جَدَاوِلُها

وَأَيْنَ سُلْطَانُهَـــــا وَسُـــوقَتُها
وَأَيْنَ أَشْــــــرَافُهَا وَخَامِلُها

قُلْ لِلْمَصــــــــانيع أَيْنَ صَانِعُهَا

وَلِلْأَفَاعِيْــــــــــــلِ أَيْنَ فَاعِلُها

خَرّتْ عَلَى عُرُوشِهَــــا قَوَاعِدُها

وَفرّقَتْ حَــــــــــوْلهَا جَنَادِلها

تُجِبْكَ عَمّا سَــــــأَلْتَ مُعْرِبَةً

عَنِ الشّــــــــؤُونِ الّتِي تُحَاوِلها

تَرْوِي أَحَــــــادِيْثَ أُمّةٍ سَلَفَتْ

رِوَايَــــــــــــةً لا يُرَدّ قَائِلُها

عِبَــــارةٍ عَبْقَرِيّـــــــة عَرِيَتْ

عَنِ الحُــــــــرُوفِ وَمَا يُشَــاكلها

كَمْ مِنْ مُلُــــوكٍ عَلَتْ أَرَائِكُهَــــا

بِعِــــزّةٍ لا يـــــــذلُّ نَــائِلُها

ومنها قوله :

فَهَلْ رَأَيتَ العُــــــــــرُوش قَائِمَة

مِنْ بَعْــــــــــدِمَا هُدّمَتْ أَسَافِلُها

تَطْوِي يَـــــــــدُ النّائِبَاتِ دَفْتَرَها

طَيّ سِجِــلٍّ فَمَــــــــنْ يُسَاجِلُها

فَيَالها مِنْ مُلِمّــــــــــــةٍ نَزَلَتْ

إِنّ الدُّنى جمّــــــــــــةٌ نَوَازِلها

وَالدّهْرُ صَعْبُ الخطـــوْبِ مُنْكِرُها

وَمُشكلُ النّائِبَــــــــاتِ هَائِلُها

لا يَأْمَنُ الغَـــــدْرَ مَنْ يُسَالِمُها

وَلَا يرى النّصْـــــر مَنْ يُنَازِهُا

فَلا يَغُـــــرّنكم زَخَارِفُها

وَلا يَصُـــــدّنكم شَوَاغِلُها

وَكُلّ مَا في الوُجُـــــودِ مِن نِعَم

إمّـــا تُزَايِـــلكَ أَوْ تُزَايِلُهـــا

سَلْطَنَةُ الدَّهْـــــرِ هَكَذا دُولٌ

تَعـــــزّ سُلْطَـان مَنْ يُدَاوِلها [1]

---

(١) مخطوطة مكتبة أسعد أفندي رقم : (٣٧٤١) ورقة : (١/ب - ٣/أ) ، وانظر العقد المنظوم ص : (٤٤٩ - ٤٥١) ، وتراجم الأعيان : (٢٤٣/١ ، ٢٤٤) .

وله القصيدة النونية في تعلّق النفس بالعالم الجسماني ، تقع في (٤٥) بيتاً ، ومنها :

طَالَ النّوى بِدارةِ الهجْرانِ
مَثْوى الكُرُوبِ قَرارةِ الأشْجَانِ

مَطْمُورةِ[1] اللّأواءِ مُعْتَرَك الرّدَى
مَأْوَى الخُطوبِ غَيَابَة الأحْزَانِ

يَاحَيْرَةً لِغَرِيب أَلْقَاه النَّوَى
في مَهْمَهٍ نَاءٍ مِنَ العمْرَانِ

شَطّ المَزَارُ عَنِ الأخِلّة وَانْقَضَى
زَمَنَ اتّصَالِ الأهْلِ وَالأوطَانِ

قَدْ كَانَ مِنْ مَلأ عَلَتْ أَقْدَارُهُم
وَمَكَانُهمْ قَدْ فَاقَ كُلّ مَكَانِ

مَا إِنْ يُحَدّ جِهَاتهمْ بمحَدّدٍ
كلاّ وَلاَ أَوْقَاتهُمْ بِزَمَانِ

تَبْدُو ضَمَائِرُهُمْ بِغَيرِ مُترَجم
يجرِي تحَاورُهُمْ بِغَيْرِ لِسَانِ

بَيْنَا يَسِيْر عَلَى بُلَهنيةٍ من الـ
ـعَيْشِ الرّغِيْدِ بِرَوْضَةِ الرّضْوَانِ

يَخْتَالُ في حُلَلِ الكَرَامَةِ زَاهِياً
مُتَنزّهاً في سَاحَةِ السّبْحَانِ

---

(١) في العقد المنظوم بلفظ : «معمورة» .

إِذْ نَـــالَهُ مَالَـمْ يَمُـــرّ بِبَـالِهِ

وَبَـــدا لَهُ مَالَيْسَ فِي الحُسْبَـــانِ

فَجَـــرَى عَليهِ بَرَاعَةَ التَّقْـديرِ بِالـ

أَمْـــرِ المُقَـــــدَّرِ أَيَّمَا جَــرَيَانِ

وَمَضَى عَلَيْـــــهِ وَلا مَــرَدَّ لأَمْـــرِهِ

حُكْمِ القَضَــــاءِ الغَالِبِ السُّلْطَانِ

فَهَوَى بِمَهْوَاةِ العَنَاصِرِ بَغْتَــــــةً

فَكَأَنَّمَا يَرْمِي بِــــــهِ الرّجــوَانِ

نَأَتِ الدّيَـــارُ عَنِ الأَهَــالِي وَالذّرا

وَتَجَـــــاوَرَتْ بِأَسَــــافِلٍ وَأَدَانِي

طَــوْراً يُفَـــارِقُهُم وَلَيْس مُفَــارِقاً

حِيْناً يُـــدَانِيهِمْ وَلَيْــسَ بِـــدَانِ

يَوْمـــاً يُعَـــادِيْهِمْ بِمُوجِبِ طَبْعِهِ

وَقْتـــاً يُؤَانِسُــهُمْ بِحُكْـمِ قِــــرَانِ

فَاعْتَــادَهُمْ بَعْـــــدَ اللُّتَيّا وَالّتِي

وَسَـــرَى إِلَيْهِ خَلِيْقَـــــة الجِيْرَانِ

قَــدْ خَـالَطَتْ أَنْـــوَارُهُ بِغَيَاهِبٍ

وَاسْـــوَدَّ شُعْــــلَةَ نَــارِهِ بِدُخَانِ

يَا حَـــــائِراً فِي أَمْـــرِهِ فَإِلَى مَتَى

تَجْثُـــوا بِـــدَارِ مَـذَلّةٍ وَهَــوَانِ

حَتَّـــامَ تَرْتَــــعُ فِي مَرَاتِعِ غَفْلَةٍ

وَإلاَمَ تَسْــلُكُ مَسْـلَكَ الخُسْــرَانِ

فَكَأَنَّ قَلْبَكَ فِي جَنَــــاحَي طَــائِرٍ

بَــــادِي التَّقَلُّبِ دَائِمُ الخَفَقَـــانِ

مَازِلْتَ تَبْـــغِي مَطْلَبــاً عَنْ مَطْلَبٍ

وَتحِـــلّ في مَغْـــنى عَقِيْبَ مَغَـاني

أَوَ مَاكَفَــى مَا قَــدْ بَلَغْتَ مِنَ المُنى

قَـــدْ كَانَ مَا في حَــــيِّزِ الإِمْكَانِ

لَوْ أَنْتَ تمْـــلِكُ كُلَّ مَا قَـــدْ رُمْتَـهُ

فَاعْلَــــمْ بِأَنَّ جَمِيْـــعَ ذَلِكَ فَــانِ

قَوِّضْ خِيَامَكَ وَارْتحِلْ مِنْ سوحِهِـمْ

وَدَعِ التَّـــــــوانِي لاتَ حِيْنَ تَوَانِي

سِـــرْ فِي فَضَـاءِ العَالَمِ العُلْوِيّ كَمْ

هَـــذَا الجثُـــومُ بِعَالَمِ الجُثْمَانِ

أَنَسِيْتَ أَيّامــــاً مَضَـيْنَ بِأَهْـلِهَا

وَنَقَضْتَ عَهْـــدَ أُولَئِكَ الأَعْيَـــانِ

وَالدَّهْـــرُ قَدْ جَرَّبْتَ مِنْ أَطْوَارِهِ

مَالاَ يحِيْـــط بِـــهِ نِطَـــاق بَيَـــانِ

مَنْ ذَا الّذِي لَمْ تَلْقَــهُ أَيْدِي الرَّدَى

وَمَنِ الّذِي يَنْجُـــــو مِنَ الحَدَثَانِ

قَــدْ آنَ مِنْ شَمْـسِ الحَيَاةِ طُلُوعُهَا

مِنْ مَغْــــرِبِ الأَشْبَــاحِ وَالأَبْدَانِ

فَتَنَحَّ مِنْ دَارِ الغُـــــرُورِ وَفِرَّ مِنْ

هَـــذِي المَخَـــاوِفِ نحوَ دَارِ أَمَانِ

حَـــرَمٌ عَزِيْزُ الجَارِ مَحْمِيّ الحِمَى

سَـــامِي الرّوَاقِ وَشَـــامِخ الأرْكَانِ

صَلّى الإلَهُ عَلَى مُشَرِّفِــــهِ مَدَى الْـ

أَيّـــامِ وَالأَحْقَـــــابِ وَالأزمَـانِ[1]

وله قصيدة في رثاء السلطان سليمان القانوني تقع في (٦٧) بيتاً ، وقد سبق ذِكْر بعضٍ منها [2] .

وقال أيضاً قصيدة تقع في (٢٣) بيتاً ، ومنها :

لِمَنِ الدُّنَـــــا وَتَضَعْضَعَتْ أَرْكَانُهَا

وَانْقَضّ فَــــوقَ عُرُوشِهَا جِدْرَانُهَا

أَضْحَتْ مَثَابَـــــةَ كُلّ يَوْمٍ صَادِحٍ

وَتَفَرّقَتْ أَيْـــــــدِي سَبَا سُكّانُهَا

وَلَقَدْ عَـــــلاَهَا وَحْشَـــــةٌ وَكَأَنّهَا

صُحُفُ الكِتَـابِ قَدِ انْمَحَى عِنْوَانُهَا

أَوْ بقْعَـــــــةُ الدُّنْيا تَنَاهَى أَمْرُهَا

قَـــامَتْ قِيَـــــامَتُهَا وَآنَ أَوَانُهَا

---

(١) مخطوطة مكتبة أسعد أفندي رقم : (٣٧٤١) ورقة : (٣/ب - ٤/ب) ، وانظر العقد المنظوم ص : (٤٤٨ - ٤٤٩) .

(٢) انظر ص : (٥٤) من هذه الرسالة .

إِذْ لَيسَتِ الدُّنْيَـــا تَــدُومُ بِحَــالَةٍ

سيّـــانَ عِنْـــدِي عِـــزّها وَهَوَانُهَا

أَوْ غَـــــادَة خَلِقَتْ ثِيَابُ جَمَالِها

وَتَمَزّقَتْ بِيــــــدِ الــرّدَى أَرْدَانُهَا

وَمَحَــا مَحَاسِنَهَا الصّروفُ كَأَنَّهَا

مِثْلَ القُلُـــوبِ تَرَاكَمَتْ أَحْــزَانُهَا

وَتَنكّرَتْ فِي ذَاتِــهَا وَصِفَـــــاتِهَا

أَرَأَيْتَ مَا صَنَعَتْ بِهَـــــا أَزْمَانُهَا

إِذْ قَــــامَ فِي نَادِي البَرَاعَةِ مُنْشِدُ

رُكْنَ البَلاَغَـــــــةِ قسّها سحْبَانُهَا

يُنْشِي بَدَائِــــعَ يَسْتَحِيْلُ مَنَـــالُهَا

يَرْوِي قَصَـــائِدَ عَبْقَــرِيّاً شَانُهَا

غِــــــرَرٌ تَعَاطَى نَظْمَهَا نُقّادُهَا

حِكَمٌ تَــــولّى دَرْسَهَـــا لُقْمَانُهَا

لِلّهِ دَرُّ أَدِيْبٍ أَدْرَكَ فَضْلَهَـــــــا

بَلْ سَــــادَة جَــادَتْ بِهَا أَذْهَانُهَا

هُمْ سَـــــادَةٌ مَلَكُوا زِمَـــامَ تَقَدّمٍ

فِي حَلبَــــــةٍ لِلْفَضْلِ هُمْ فُرْسَانُهَا

نَشَـــأوا بِأَرْضٍ بُــورِكَتْ وَتَقَدّسَتْ

أَرْجَـــــاؤُهَا فَسُهُولُهَا وَمتَـــانُهَا

أَرْضٌ بِهَــا نَزَلَتْ عَلَى خَيْرِ الوَرَى

آيَــاتُ وَحْيٍ بَاهِــــرٍ بُرْهَانُهَا

يَارِفْعَـــــةً فَـــــازَتْ بِهَا وَمَكَانَةً

يَاعِـــزَّةً قَدْ حَــــازَهَا قطّانُهَا

طُـــوبَى لِعَيْنٍ عَـــايَنَتْ آثَـــارَهَا

وَتَكَحَّلَتْ بِغبَـــــارِهَا أَجْفَـانُهَا [1]

وله بطريق التنبيه والنصيحة ، هذه الكلمات الفصيحة :

أَلَا مَنْ بَنَى فَلْيَبْنِ رُكْنــاً مَشِيْـــداً

وَيَرْقَى مَنِيْعَ السَّمْكِ صَـــرْحاً مُمَرَّدا

عَجِيْباً غَرِيْبَ الصُّنْعِ تُسْبَى لَهُ النُّهَى

بَدِيْــــعَ المَــــرَاقِي عَبْقَرِياً مُنجدا

عَلَى طَــــرْزِ أَبْيَاتٍ فَلِلّهِ دَرُّ مَنْ

تَصَـــدَّى لِمَبْنَــاهَا فَأَنْشَـا وَأَنْشَدا

عَلَى حُسْنِ تَنْظِيْمٍ وَلُطْفٍ صِنَاعَــةٍ

تُبَـــاهِي بِهِ عَقْـــدَ الثُّرَيَّا المُنَضَّدا

صَنَــــائِعُ لا تبْلي الجَدِيْدَانِ رَسْمهَا

وَيَبْقَى عَلَى مَـــرِّ العُصُـورِ مُخَلّدا

وَمَاذَا[2] بِنَـــــاءُ يُبْتَنَى مِنْ حِجَارَةٍ

وَطِيْنٍ سَيَغْــــدُو عَنْ قَرِيْبٍ مُبَدَّدا [3]

---

(١) انظر العقد المنظوم ص : (٤٥١ - ٤٥٢) .

(٢) كذا ، ولعلّها : « وهذا » .

(٣) انظر العقد المنظوم ص : (٤٥٢) .

وله بطريق التحية والسلام ، على بعض الأحبة الكرام :

سُـــلاَلَةَ الأَكَابِرِ العِظَـــام نَتِيْجَـــةُ الأَمَاجِـــدِ الفِخَام
لُطْفُ الإِلَهِ المَلِكِ العَـــلاّم عَلَيْكَ مِنّي أَفْضَـــل السَّـــلاَم
يَالَكَ مِنْ سَمَيْـدَعٍ هُمَـــام كَهْفِ الأَنَـــامِ مُفَضَّـــل مِنْعَام
كَمْ لَكَ مِنْ مَفَاخِـــرٍ جِسَام فُقْتَ بِهَـــا طَـــوَائِفَ الأَنَام
لاَزِلْتَ فِي عِـــزٍّ وَفِي إِكْـرَام مَـــدَى اللَّيَـــالِي وَمَدَى الأَيَّام
مَااحْتَجَبَ السَـمَـــاءُ بِالغَمَام وَاخْتَلَطَ الضِّيَـــاءُ بِالظَّلاَم[1]

وله على نمط الضراعة ، بباب من تجب له الطاعة :

لاَهُـــمَّ يَا مُقَلِّبَ القُـــلُوبِ وَكَاشِفَ الغُمُـــومِ وَالْكُرُوبِ
وَعَالِمَ الأَسْـــرَارِ وَالغُيُـــوبِ هَـــوِّنْ عَلَيَّ جُمْـلَةَ الخُطُوْبِ[2]

(١) العقد المنظوم ص : (٤٥٢) .

(٢) المرجع نفسه ص : (٤٥٣) .

المبحث الخامس

شيوخه

أخذ أبو السعود العلم عن علماء عصره ، وتتلمذ على يد جلّة من العلماء ، فأفاد منهم علماً جمّاً .

وقد ذكر أبو السعود بعض مشايخه في صورة الإجازة التي كتبها لتلميذه الشيخ عبد الرحمن بن جمال الدين الشهير بشيخ زاده [1] ، وفيها قوله :

« اللهم رب الأرباب ، مالك الرقاب ، منزل الكتاب ، مُحِقّ الحقّ ومُلهم الصَّواب ، صلّ وسلم على أفضل من أُوتي الحكمة وفَصْل الخطاب - إلى قوله : - حسبما أجاز لي شيخي ووالدي المرحوم ، بحر المعارف ولجة العلوم ... محمد بن مصطفى العماد [2] ، المجاز له من قبل مشايخه

---

(١) اعتنى شيخ زاده بتحصيل العلوم والمعارف غاية الاعتناء ، وتميّز في الحديث والتفسير والوعظ والتذكير والخطابة . مات سنة ٩٧١ هـ . انظر العقد المنظوم ص : (٣٦٢ - ٢٦٤) .

(٢) هو محيي الدين محمد بن مصطفى العمادي ، والد أبي السعود ، تتلمذ محيي الدين على يد علاء الدين علي بن محمد القوشجي ، وبعد وفاته سلك مسلك الصوفية ، واشتغل أولاً عند مصلح الدين القوجوي ، ثم وصل إلى خدمة إبراهيم القيصري ، وحصل عنده الطريقة الصوفية، ثم أجازه للإرشاد ، وكان ينتمي إلى الطريقة البيرمية . إلا أن أبا السعود لم يسلك طريق والده في التصوف . وقد أحب السلطان بايزيد خان محيي الدين محبة عظيمة ، حتى اشتهر بين الناس بشيخ السلطان ، وبنى له السلطان زاوية بمدينة القسطنطينية ، وكان الوزراء وقضاة العسكر يأتونه لزيارته ، وربما يدعوه السلطان إلى قصره ، وحصل له من هذه الجهة رياسة عظيمة ، ومع ذلك لم يتغير حاله من الزهد والتقوى . مات سنة ٩٢٠ هـ وقيل : سنة ٩٢٢ هـ في مدينة إسكليب . انظر الشقائق النعمانية ص : (٢٠٦ - ٢٠٧) ، والعقد المنظوم ص : (٤٤٠) ، وشذرات الذهب : (٣٩٨/٨) .

الكبار ، لاسيما أستاذه الجليل المقدار ، الجميل الآثار ، الحبر السامي ، والبحر الطامي ، الصّنديد الفريد ، والنحرير الحميد المجيد ، عمّ والدتي علاء الملة والدين المولى الشهير بعلي قوشجي[1] ، صاحب الشرح الجديد للتجريد .

وأستاذي العلامة العظيم الشان ، والفهامة الجلي العنوان ، الإمام الهمام ، السَّمَيْدَع[2] القَمْقَام[3] ، نسيج وحده ، ووحيد عهده ، عبقري لا يوجد له مثال ، أوحدي يضرب بمآثره الأمثال ، المولى البارع الأمجد : أبو المعالي عبد الرحمن بن علي المؤيد [4] ، المجاز له من قبل أستاذه المشهور ، جلالة قدره فيما بين الجمهور ، المعروف فضائله لدى القاصي والداني جلال الملة والدين محمد بن أسعد الدواني[5] ، المجاز له من قبل أساتذته العظام ، الذين من زمرتهم والده العلي القدر سعد الملة والدين الصديقي ، المجاز من قبل مشايخه الفخام ، لا سيما أستاذه علامة العالم

(١) سبقت ترجمته في ص : (١٠١) .

(٢) السَّمَيْدَع ، بفتح السين هو السّيد الموطّأ الأكناف . انظر مختار الصحاح ص : (٣١٢) .

(٣) القَمْقَام والقماقِم من الرجال : السيد الكثير الخير الواسع الفضل . وقيل : هو الماء الكثير ، أو البحر كلّه . انظر لسان العرب : (٣٧٤٤/٦) مادة (قمم) .

(٤) هو أحد العلماء الكبار الذين برعوا في العلم والتعليم في زمن الدولة العثمانية ، اشتهر بحسن الخط ، حتى صار يكنى برئيس الخطاطين . سافر إلى بلاد الفرس وأخذ إجازة من جلال الدواني في إيران ، ثم اشتغل بالتدريس . مات سنة ٩٢٢ هـ ، وقد وجد عنده أكثر من سبعة آلاف مجلد . انظر شيخ الإسلام أبو السعود أفندي وأسلوبه في التفسير للدكتور عبد الله آيديمير ص : (٧ - ٨) .

(٥) هو جلال الدين محمد بن أسعد الدواني الشافعي القاضي بإقليم فارس ، وُلِد في دُوّان ، وسكن شيراز . له حاشية على شرح القوشجي لتجريد الكلام ، وشرح العقائد العضدية ، وشرح تهذيب المنطق . مات سنة ٩١٨ هـ انظر شذرات الذهب : (١٦٠/٨)، والأعلام : (٣٢/٦).

مسلم الفضل فيما بين جماهير الأمم ، الغني عن التعريف على الإطلاق المشتهر بلقبه الشريف في أكناف الآفاق : زين الملة والدين علي المحقق الجرجاني .

وأستاذي الماجد الخطير ، والنقاب المحدث النحرير ، ذو القدر الأتم ، والفخر الأشم ، أبو الفضائل سيدي محمد بن محمد [1] المجاز له من قبل أستاذه الفاضل ، وشيخه الكامل ، ذي النسب والفضل ، المولى المشتهر بحسن جلبي ، محشي شرح المواقف ...

والله سبحانه أسأل مكباً على وجه الذل والمهانة ، ساجداً على جباه الضراعة والاستكانة ، أن يفيض عليهم سجال غفرانه ، وشآبيب رحمته ورضوانه ، ويهدينا سبيل الهدى ومناهج الرشاد ، ويقينا مصارع السوء يوم التناد ، إنه رؤوف بالعباد .

كتبه الفقير إلى الله سبحانه ، الراجي من جنابه عفوه وغفرانه ، أبو السعود ، الحقير عُفي عنه »[2] .

---

(١) هو محمد بن محمد القراماني ، كان مشتغلاً بالعلم ، ومشتهراً بالفضل ، وكان صاحب ذكاء ودقة ، وكان صاحب هيبة ووقار وأدب وحسن خلق وتواضع للصغير والكبير، وقد وصل إلى خدمة المولى علاء الدين علي العربي ، ثم صار معيداً لدرسه ، ثم صار مدرساً بمدرسة توقات ، وفي مدرسة قلندرخانه بمدينة القسطنطينية ، وفي إحدى المدارس الثمان ، ثم مدرساً بمدرسة السلطان بايزيد خان بمدينة أدرنه ، ثم صار قاضياً بالقسطنطينية ، ثم قاضياً بالعسكر في الأناضول ، ثم قاضياً بالعسكر في الروم إيلي ، ثم عُزل عنه في أوائل سلطنة السلطان سليم خان ، وجعل مدرساً بإحدى المدارس الثمان ، وعين له كل يوم مائة وعشرون درهماً ، وقد صنف رسالة متضمنة للأجوبة عن إشكالات المولى الحميدي . مات سنة ٩٢٣ هـ . انظر الشقائق النعمانية ص : (١٨٠ - ١٨١) .

(٢) العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم ص : (٣٦٢ - ٣٦٤) .

فمن مشايخ أبي السعود الذين ذكرهم في تلك الإجازة المذكورة آنفاً :

✵ والده محيي الدين محمد بن مصطفى العمادي .

قرأ أبو السعود على والده حاشية التجريد للجرجاني من أول الكتاب إلى آخره ، مع جميع الحواشي المنقولة عنه ، وقرأ عليه أيضاً شرح المفتاح للمسفور مرتين ، وشرح المواقف له ، وقد حفظ على يديه كتباً ، منها المفتاح للسكاكي ، وغيره .

✵ أبو المعالي مؤيّد زاده عبد الرحمن .

وقد عدّه من شيوخ أبي السعود أيضاً كل من اللكنوي[1] ، والدكتور عبد الله آيديمير[2] ، ومحمد أرطغرل دوز داغ[3] ، وآتسز[4] .

✵ المولى سيدي محمد بن محمد القراماني .

وذكر الدكتور عبد الله آيديمير أن القراماني كان من أوائل معلّمي أبي السعود في صغره ، ومن الذين درسوا على يديه ، وأخذ إجازة منه ، ثم تزوّج أبو السعود زينب هانم بنت شيخه القراماني[5] .

---

(١) انظر الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص : (٨١) .

(٢) انظر شيخ الإسلام أبو السعود أفندي وأسلوبه في التفسير ص : (٧) .

(٣) انظر حياة الأتراك في القرن السادس عشر في ضوء فتاوى شيخ الإسلام أبي السعود أفندي لمحمد أرطغرل دوز داغ ص : (٢٢) .

(٤) انظر ببليوغرافية أبي السعود لآتسز ص : (٢) .

(٥) انظر شيخ الإسلام أبو السعود أفندي وأسلوبه في التفسير ص : (٥ - ٨) .

ومن مشايخ أبي السعود أيضاً غير الذين ذكرهم في الإجازة السابقة :

✵ شيخ الإسلام أحمد بن سليمان بن كمال باشا [1] .

ذكر الدكتور سيد حسين با غجوان عن مصادر تركية أن أبا السعود تتلمذ على يد ابن كمال باشا ، وأعطاه شهادة علمية (إجازة) [2] .

وقد وصف أبو السعود شيخه ابن كمال باشا بأنه : « العالم الرباني ، والعارف الخاقاني ، فاضل الروم ، والفائق في جميع العلوم ، شيخ الخافقين ، ومفتي الثقلين : ابن كمال باشا ، قدّر الله ما يشا ... »[3] .

✵ العلامة المولى قادري جلبي [4] .

وقد عدّه من مشايخه نجم الدين الغزي[5] .

---

(١) تقدمت ترجمته في ص : (٧٤) .

(٢) انظر ابن كمال باشا وآراؤه الاعتقادية - رسالة دكتوراه - : (١/٨٨ - ٨٩) .

(٣) رسالة في بيان لفظ جلبي لأبي السعود . مخطوطة في المكتبة المحمودية برقم : (٢٧٨٧) . نقلاً عن ابن كمال باشا وآراؤه الاعتقادية : (١/٥١) .

(٤) هو المولى عبد القادر الشهير بقادري جلبي ، كان عالماً فاضلاً صاحب ذكاء وفطنة ، وكان لطيف المحاورة حسن النادرة ، كان يعفو عن المسيء ويتجاوز عن المخطىء ، قرأ على المولى سيدي الحميدي ، ثم على ركن الدين ابن المؤيد ، وصار معيداً لدرسه ، ثم صار مدرساً في مدرسة ابن الحاج حسن بالقسطنطينية ، وفي مدرسة الوزير ، وفي مدرسة ببروسه ، وفي إحدى المدارس الثمان ، ثم صار قاضياً ببروسه ثم في القسطنطينية ثم صار قاضياً للعسكر للأناضول وظل على ذلك مدة طويلة ، ثم عُزل عن ذلك ، ثم صار مفتياً في القسطنطينية . مات ببروسه سنة ٥٥٩ هـ انظر الشقائق النعمانية ص : (٢٦٤ - ٢٦٥) ، والكواكب السائرة : (٣/٣٥).

(٥) انظرالكواكب السائرة : (٣/٣٥) .

* المولى سعدي جلبي [1] .

وقد ذكره ابن لالي بالي من مشايخه ، وأن أبا السعود كان ملازماً له حتى قُلّد التدريس [2] .

(١) هو سعد الله بن عيسى بن نهران التطاي الشهير بسعدي جلبي ، ينسب إلى تطاي في ولاية قسطموني ، كان قوي الحفظ جداً ، ملك كتباً كثيرة ، وكان مدرساً في مدارس مختلفة ، وقد فاق أقرانه في تدريسه ، ثم صار قاضياً ومفتياً في استانبول ، وكان في قضائه مرضي السيرة ، محمود الطريقة ، وكان في فتواه مقبول الجواب ، ومهدياً إلى الصواب ، وكان طاهر اللسان لا يذكر أحداً إلا بخير ، له الرسالة السعدية ، وتفسير لسورة الفاتحة ، وحاشية على العناية ، وحاشية على البيضاوي ، وفتاوى . مات سنة ٩٤٥ هـ . انظر الشقائق النعمانية ص : (٢٦٥) ، والعقد المنظوم ص : (٤٤٠) ، وشذرات الذهب : (٢٦٢/٨) .

(٢) انظر العقد المنظوم ص : (٤٤٠) .

المبحث السادس

أقرانـــــه

كان أبو السعود قوياً في مواقفه ومناقشاته ، وكان يجادل العلماء لساعات طويلة ، ويكتب الردود المفيدة ، حتى قال عنه الشوكاني :

« برع في جميع العلوم وفاق الأقران »[١] .

ومن أهم أولئك الأقران :

* المولى شمس الدين محمد بن محمد بن إلياس المشهور بجوي زاده [٢] :

كان من أقران أبي السعود ومن معاصريه ، وقد وقع بينه وبين أبي السعود الخلاف في جواز وقف النقود ، فجمع جوي زاده كتاباً في عدم جواز وقف النقود ، وسعى في إبطاله عندما كان قاضياً بعسكر الروم ، فألّف أبو السعود رسالة في ردّ ذلك بعنوان : « رسالة في مسائل الوقف أو رسالة في وقف المنقول والنقود » [٣] .

---

(١) البدر الطالع بمحاسن مَن بَعْد القرن السابع : (٢٦١/١) .

(٢) ولد في استانبول ، وأصبح في سنة (٩٧٩ هـ) قاضياً في دمشق ، ثم قاضي قضاة مصر ، ثم قاضي العسكر ، ثم أصبح آخر الأمر مفتياً بعد أبي السعود العمادي في استانبول . له رسالة في المسح على الخفين ، ومجموعة الفتاوى . مات سنة ٩٩٥ هـ . انظر تاريخ الأدب العربي - القسم التاسع من الترجمة العربية - ص : (٣٤١) .

(٣) انظر كشف الظنون : (٨٩٨/١) ، وتاريخ الأدب العربي - القسم التاسع ص : (٣٦٥) .

قال ابن لالي بالي :

« ولما وقع الخلاف بينه وبين المولى محمد المشتهر بجوي زاده في جواز وقف النقود الذي شاع في هذه الديار ، وجرى عليه التعامل في تلك الأقطار ، كتب رحمه الله رسالة يحقق فيها جوازه ، وأكثر من الدلائل والنقول مطلقاً على جواز وقف المنقول ؛ إذ جرى عليه التعامل سيما من الفحول »[1] .

✵ محيي الدين البِرْكِوِي [2] :

كان البركوي أيضاً من معاصري أبي السعود ومن أقرانه ، وكان لا يرى الاستئجار على التلاوة وتعليم العلوم ، ويباحث في ذلك ويناظر فصنّف رسالة بعنوان : « إنقاذ الهالكين » سنة (٩٦٧ هـ) يتناول فيها مدى جواز أخذ المال لتلاوة القرآن الكريم أو تخصيص المال لذلك .

---

(١) العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم ص : (٤٤٤ - ٤٤٥) .

(٢) هو محمد بن بير علي الشهير بالبِرْكِوِي أو البِرْكِلِي ، ولد سنة ٩٢٩ هـ في «بالي كسرى» ، نشأ في طلب المعارف والعلوم ، وعكف على التحصيل والإفادة من علماء عصره ، ومنهم : المولى محيي الدين المشتهر بأخي زاده ، وصار ملازماً للمولى عبد الرحمن أحد قضاة العسكر في عهد السلطان سليمان ، ثم غلب عليه الزهد والصلاح ، وحصل بينه وبين الملا عطا الله محبة أكيدة ومودة شديدة ، فبنى له مدرسة في قصبة بركي ، وفوّض تدريسها إليه ، وعين له كل يوم ستين درهماً ، فاجتمع إليه الطلاب من كل مكان ، وانتفع الناس بوعظه ودرسه ، وكان آية في الزهد والصيانة ، ونهاية في الورع والديانة ، له مصنفات عديدة ، منها : تحفة المسترشدين في بيان مذاهب فرق المسلمين ، وجلاء القلوب في أسس العقيدة ، والرد على الشيعة ، ورسالة في أصول الحديث ، والطريقة المحمدية ، وغيرها . مات سنة ٩٨١ هـ . انظر العقد المنظوم ص : (٤٣٦ - ٤٣٧) ، وتاريخ الأدب العربي ص : (٣٧٦ - ٣٩١) ، والأعلام (٦١/٦) ، ولايزال أخونا الأستاذ سالم صانجاقلي يحضر رسالة الدكتوراه في البركوي .

وألّف البركوي رسـالة بعنوان : « السيف الصـارم في عدم جواز وقف النقود والدراهم » بدون الوصية وإضافة إلى ما بعد الموت ، وهي رسالة في الرد على أبي السعود العمـادي ، حيث إنه ألّفـ رسـالة بعنوان : « موقف العقول في المنقول » أو « رسالة في وقف المنقول »[1] .

وللبركوي مصنف آخر بعنوان : « إيقاظ النائمين » ، ذكر فيـه أن في التقوى خير ، وأن الأعمـال مـن أجل الثوابـ الظاهـر والنجاح فهي مكروهة ، وقد ألّفه سنة (٩٧٢ هـ) رداً على كتاب مخالف لأبي السعود[2] .

---

(١) مخطوطة في مكتبة أسعد أفندي برقم : (٣٥٥٠) .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربي ص : (٣٨٣ - ٣٨٤) .

المبحث السابع

مذهبه وعقيدته

أبو السعود العمادي من فقهاء الحنفية ، وعلماء التُّرك المستعربين [1] .

قال شيخ الإسلام في الدولة العثمانية مصطفى صبري[2] عن أبي السعود بأنه ماتريدي المَذْهَب[3] .

فأبو السعود حنفي الفروع ، ماتريدي العقيدة[4] ، إلا أنه لا يقول بكل ما ذُكِر عن أصول عقيدة الماتريدية ، بل يخالف الماتريدية في بعض المسائل ، ويوافقهم في بعضها الآخر، ومنها على سبيل المثال - كما سيأتي

(١) انظر الأعلام للزركلي : (٥٩/٧) ، ومعجم المفسرين : (٦٢٥/٢) .

(٢) تقدمت ترجمته في ص : (٦٤) من هذه الرسالة .

(٣) انظر كتاب موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين : (٣٩/٣ ، ٤٢) .

(٤) من أهم ما يتعلق بعقيدة الماتريدية ما يأتي :

أولاً : أن الماتريدية خالفت السلف في مصادر التلقي والاستدلال ، فقدّموا العقل على النقل .

ثانياً : سلك أبو منصور إمام الماتريدية في استدلاله على وجود الله تعالى طريقة المتكلمين ، وأعرض عن طريقة القرآن والسنة .

ثالثاً : اجتمع في الماتريدية أكثر من بدعة ، فهم مرجئة في باب الإيمان ، ومعطلة في باب الصفات ، ومعتزلة في مسألة التحسين والتقبيح وتعليل أفعال الله تعالى بالحِكَم وغير ذلك ، وأشعرية في مسألة الرؤية .

رابعاً : وافقت الماتريدية السلف الصالح في باب الإيمان باليوم الآخر بما فيه من الحشر والنشر وأحوال البرزخ والجنة والنار والميزان والصراط والشفاعة وكذا القدر والصحابة والإمامة . انظر العلم الشامخ لصالح المقبلي ص : (١١ ، ٢١٧) ، ومنهج الماتريدية في العقيدة للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس ص : (٦٢ - ٦٣) .

بيانه بالتفصيل إن شاء الله تعالى - ما يتعلق بباب الصفات ، فقد أثبت صفة المعية على منهاج أهل السنة والجماعة ، مخالفاً ما عليه الماتريدية من تأويلها ونفيها .

ولعل سلوك أبي السعود للمنهج السلفي في تلك المسألة كان - والله أعلم - نتيجة لعدة أمور ، منها :

تأثره بمنهج شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الحراني ؛ لأنه قد ترجم بعض كتبه من اللغة العربية إلى اللغة التركية ، ومن ذلك ترجمته لكتاب « السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية » ، وسمى أبو السعود هذا الكتاب بعد ترجمته بـ « معراج الإيالة ومنهاج العدالة »[1] ، وهذا يدل على أن أبا السعود كان على اطلاع بما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية ، وربما أفاد بما كتبه في هذا الباب وفي تلك المسائل التي أشبعها شيخ الإسلام ابن تيمية بحثاً وتحقيقاً وتدقيقاً وترجيحاً بما يوافق النقل الصحيح ، ولا يعارض العقل الصريح .

ومنها : تأثره بمناقشاته وردوده على معاصره محيي الدين محمد البِرْكِوي الذي سار على منهاج السلف الصالح في كتاباته وردوده ، فَرَدَّ على أبي السعود في بعض المسائل الفقهية ، في كتابه « السيف الصارم في عدم جواز وقف النقود والدراهم » ، وفي كتاب « إيقاظ النائمين » ، كما ذكرتهما آنفاً [2] .

وسيكون المزيد من التفصيل في بيان عقيدة أبي السعود ، ومدى قربه أو بعده عن الماتريدية ، في الباب الثاني من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى .

---

(١) معراج الإيالة مخطوط يوجد في مكتبة أسعد أفندي بإستانبول ، برقم : (١٩٠١) .

(٢) انظر ص : (١٤١) من هذه الرسالة .

المبحث الثامن

تلاميذه

تتلمذ على يد أبي السعود الكثير من طلبة العلم ، ولا غرابة في ذلك ؛ لأن أبا السعود اشتغل مدة طويلة بالتدريس في مدارس عديدة ، ثم ارتقى إلى المناصب العالية ، من التدريس إلى القضاء ، ثم الإفتاء ، وأخيراً إلى مشيخة الإسلام ، وكان له تلاميذ يكتبون فتاواه سواء باللغة العربية أو باللغة التركية ، وقد استمر في منصب الفتوى نحو ثلاثين سنة .

يقول ابن لالي بالي : « وقد وصل تلاميذه وأصحابه إلى المناصب السمية ، والمراتب السنية »(١) .

ويقول البوريني : « والعجب أن غالب ما رأيناه من قضاة دمشق من تلامذته ، وكلّهم ينتسبون إلى حضرته ، ويتشرّفون بنسبته ، ويرجعون في المناصب إلى ملازمته »(٢) .

وقد تَخَرّج على يديه بعض العلماء الأجلاء ، وبعض الذين نالوا المناصب العالية مثل مشيخة الإسلام ورئاسة الجند بقسميها الآسيوي والأوربي ، ومن هؤلاء ما يأتي حسب تاريخ وفياتهم نقلاً عن كتاب العقد المنظوم لابن لالي بالي حيث عدّهم جميعاً من تلاميذ أبي السعود :

---

(١) العقد المنظوم ص : (٤٤٣) .

(٢) تراجم الأعيان : (٢٣٩/١) .

١- المولى محمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم [1] .

٢- الشيخ عبد الرحمن بن جمال الدين الشهير بشيخ زاده [2] .

كتب له أبو السعود إجازة قال فيها :

« اللهم رب الأرباب . مالك الرقاب . منزل الكتاب . مُحِقّ الحَقّ ومُلْهِم الصَّواب . صلّ وسلم على أفضل من أُوتي الحكمة وفَصْل الخطاب ، وعلى آله الأوتاد وصحبه الأقطاب ، وبعد :

فلما توسّمت في رافع هاتيك الأرقام ، زين العلماء الأعلام . الألمعي[3] الفَطِن ، واللوذعي[4] اللَّقِن[5] . الأريب ذي الطبع السليم الوقاد ، والذهن القوي النقاد . العاطف لأعنة عزائمه ابتغاء مرضاة الله من غير عاطف يثنيه ، والصارف لأزمة صرائمه نحو تحصيل زلفاه بلا صارف يلويه . الساعي في تكميل النفس بالكمالات العلية ، بحسب قوتيه النظرية والعملية . سليل المشايخ الأخيار ، نجل العلماء الأبرار . مولانا الشيخ عبد الرحمن ابن قدوة العارفين الشيخ جمال الملة والدين ، وفَّقَه الله تعالى لما يحبه ويرضاه ، وأتاح له في

---

(١) أخذ العلم على يد أبي السعود وابن كمال باشا وجوي زاده ، ودرّس في عدة مدارس ، ثم قُلّد قضاء حلب ثم دمشق ثم مصر ، ثم صار قاضياً بالعسكر في الأناضول . مات سنة ٩٥٥ هـ . انظر العقد المنظوم ص : (٣٨٤ - ٣٨٥) .

(٢) سبقت ترجمته في ص : (١٣٣) .

(٣) الألمعي : الذكي المتوقِّد ، الذي يتظنّن الأمور فلا يخطىء . انظر لسان العرب : (٤.٧٦/٧) مادة (لمع) .

(٤) اللوذعي : الحديد الفؤاد واللسان الظريف ، كأنه يلذع بذكائه . انظر لسان العرب : (٤.٢٤/٧) مادة (لذع) .

(٥) اللَّقِن : سريع الفهم . انظر لسان العرب : (٤.٦٤/٧) مادة (لقن) .

أولاه وأخراه ، مـــا هو له أولاه وأحراه . دلائل نبـــل ظاهـــر في الفنون ، ومخايل فضل باهر في معرفة الكتاب المكنون .

أجـــــــــــزت له في مطالعة الكتب الفاخرة ، واقتناص العلوم الزاخرة ، التي ألّفها أساطين أئمة التفسير من كلِّ وَجيزٍ وبسيط ، وصنّفها سلاطين أسرة التّقرير والتّحرير من كلِّ شاملٍ ومحيط ، واستخراج ما في مطاويها من الفوائد البارعة ، واستنباط ما في تضاعيفها من الفرائد الرائعة .

وســــــــوّغت له إفادتها للمقتبسين من أنـوارها الرائقـة تفسيراً وتقريراً ، وللمغتنمين من مغانم آثارها عظة وتذكيراً ، على ما نظّمه بنان البيان في سمط السطور ، ورقمه يراعة البراعة في طيّ رقها المنشور ...

والله سبحانه أسأل أن يهدينا سبيل الهدى ومناهج الرشاد ، ويقينا مصارع السوء يوم التناد ، إنه رؤوف بالعباد .

كتبه الفقير إلى الله سبحـــانه ، الراجي من جنابه عفوه وغفرانه : أبو السعود الحقير عُفي عنه »[1] .

٣- حسن بن سنان [2] .

---

(١) العقد المنظوم ص : (٣٦٣ - ٢٦٤) .

(٢) درّس في أكثر من مدرسة ، ثم قُلّد قضاء حلب ، ثم مكة وبروســه وأدرنه ، كان مشاركاً في كثير من العلوم ، وقد طالع كتباً كثيرة ، وجمع المسائل ، وكتب الفوائد ، وحرّر الرسائل ، وكان رجلاً صالحاً ديناً مشكور السيرة في قضائه ، والناس يبالغون في مدحه وثنائه . مات سنة ٩٧٥ هـ . انظر العقد المنظوم ص : (٣٩٠ - ٣٩٢) .

٤- المولى شيخ الإسلام عطا الله أفندي [١] .

٥- عبد الكريم بن محمد بن أبي السعود [٢] .

٦- المولى محيي الدين المشتهر بنكساري زاده [٣].

---

(١) هو معلم السلطان سليم خان ابن السلطان سليمان ، كان فاضلاً ورعاً ديناً ذكياً ، قوي الطبع ، صحيح الفكر ، أصيل الرأي ، آية في التدبير والتصرف . قال عنه ابن لالي بالي : « نشأ رحمه الله بقصبة بركي ، من ولاية آيدين ، صارفاً لرائح عمره في إحراز العلوم والمعارف ، بحيث لا يلويه عن تحصيلها عائق ولا صارف ، وتشرّف بمجالس الأفاضل ، ومحافل الأماثل ، وقرأ على العالم الخطير ، والسميدع النحرير ، فخر الزمان ، علامة الأوان ، المفتي أبو السعود ، وهو مدرس بمدرسة داود باشا » . درّس عطا الله في عدة مدارس ، ثم عُيّن لتعليم السلطان سليم خان ، وهو يومئذٍ أمير بلواء مغنيسيا ، ولما وصلت السلطنة إليه ، علت كلمته ، وارتفعت مرتبته ، حيث بالغ السلطان في إكرامه وإعظامه ، وكان يراجعه في الأمور المهمة تارة مكاتبة ، وأخرى مشافهة ، وكان يجتمع به في كل شهر مرة أو مرتين . له قطع مختارة من الفتاوى . مات سنة ٩٧٩ هـ ، وحضر جنازته في بيته عامة العلماء والوزراء ، وصلى عليه شيخه أبو السعود أفندي ، ودفن بالقسطنطينية . انظر العقد المنظوم ص : (٤٠٧ - ٤٠٨) ، وتاريخ الأدب العربي ص : (٣٥٦) .

(٢) تربّى في كنف جده عدة سنين إلى أن صار ملازماً له ، ثم عُين مدرساً في عدة مدارس ، كان مشهوراً بالكرم والحزم والنباهة ، معروفاً بحسن الخط والكتابة . مات سنة ٩٨١ هـ . انظر العقد المنظوم ص : (٤٣٩) .

(٣) جدّ في الطلب وتميز بخدمة أبي السعود ، وصار ملازماً له ، حتى زوجه ابنته ، درّس في مدارس عديدة ، كان في قول الحق لا يخاف في الله لومة لائم ، إلا أنه ألحق نفسه بزمرة الصوفية ، واسترشد ببعض المشايخ الخلوتية . مات سنة ٩٨١ هـ . انظر العقد المنظوم ص : (٤٣٧ - ٤٣٩) .

٧- محمد بن أحمد المشتهر بابن بزن [١] .

٨- المولى حسن غلام المولى القادري [٢] .

٩- المولى أحمد المشتهر بالكامي [٣] .

١٠- محمود المشتهر بمعلم زاده [٤] .

١١- المولى محمد ابن المعروف بصاروكرز أوغلي زاده [٥] .

١٢- عبد الواسع بن محمد بن أبي السعود [٦] .

---

(١) نشأ على طلب العلم والفضائل ، ولازم أبا السعود ثم درّس في أكثر من مدرسة ، ثم أُذن له بالإفتاء . مات سنة ٩٨٣ هـ . انظر العقد المنظوم ص : (٤٨١ - ٤٨٢) .

(٢) تولى التدريس ، ثم قُلّد قضاء دمشق ثم مصر ثم قضاء مكة ثم القسطنطينية ثم قضاء العساكر بالأناضول ، كان حسن الأخلاق لا يضمر السوء لأحد ولو أساء إليه كثيراً . مات سنة ٩٨٥ هـ . انظر العقد المنظوم ص : (٤٨٧) .

(٣) درّس في عدة مدارس ، ثم قُلّد قضاء أدرنه . مات سنة ٩٨٧ هـ . انظر العقد المنظوم ص : (٤٩٤) .

(٤) كان ملازماً لأبي السعود ، ثم درّس في مدارس القسطنطينية . مات سنة ٩٨٧ هـ . انظر العقد المنظوم ص : (٤٩٥) .

(٥) نشأ في مجالس العلماء ، فصار عالماً عاملاً ، وتولى التدريس ثم القضاء في حلب . له تعليق على كتاب الصوم من الهداية ، وحواش على المفتاح ، وحواش على شرح المواقف . مات سنة ٩٨٩ هـ . انظر العقد المنظوم ص : (٥٠١ - ٥٠٢) .

(٦) درّس في مدرسة محمود باشا تشريفاً لجده ، ثم نقل إلى مدرسة السلطان محمد ، ثم إلى إحدى المدارس الثمان ، وأخيراً إلى مدرسة السلطان سليم ، كان حسن الأخلاق ، كثير التلطف ، وكان يكتب بخط جميل جداً . مات بأدرنه سنة ٩٩٠ هـ . انظر العقد المنظوم ص : (٤٩٨ - ٤٩٩) .

المبحث التاسع

مصنفاته

صنّف أبو السعود عدة مصنفات في العقيدة والتفسير والفقه واللغة والشعر ، وجمع بعض تلاميذه فتاواه ودوّنوها على أبواب وفصول ، وبعضهم الآخر رتّبها على ترتيب كتب الفقه ، وتتميّز كتاباته بالأسلوب العالي الرفيع ، ويميل في أكثر الأحيان إلى العبارات المسجوعة .

ويعتبر أكبر مؤلفاته بالتركية بعد تفسيره المشهور بالعربية : فتاواه ، وقانون نامه ، وعروضه (المعروضات) ، والأخير بالتركية أيضاً في مسائل دينية وفقهية مختلفة أهداه للسلطان سليم .

وقد جمع آتسز التركي أسماء مؤلفات أبي السعود في مكتبات استانبول في رسالة مطبوعة باللغة التركية ، فبلغ عددها (٢٢) مؤلفاً ما بين كتاب ورسالة [١] .

وذكرها بروكلمان في كتابه ملحق تاريخ الأدب العربي والمطبوع باللغة الألمانية فحصرها في (١٩) مصنفاً . وفي الكتاب نفسه المترجم إلى العربية - ترجمة د. محمود حجازي و د. عمر عبد الجليل - بلغ عددها (٢١) مصنفاً [٢] .

وقدجمعت أسماء مصنفاته من جميع المصادر والمراجع التي بين يدي ، ورتّبتها على حروف المعجم فبلغت (٦٠) مصنفاً ، وهي كما يأتي :

---

(١) انظر : ببليوغرافية أبي السعود لآتسز ص : (٥ - ٦) .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان - الأصل الألماني الملحق - ص : (٦٥١) . والطبعة المترجمة منه - القسم التاسع ، العصر العثماني - ص : (٣٦٢ - ٣٦٥) .

١ - إرشـاد العقل السليم إلى مزايـا الكتاب الكريم = تفسـير أبي السعـود[١] .

٢ - بضاعة القاضي في الصكوك[٢] .

٣ - تحفة الطلاب في المناظرة[٣] .

٤ - تسجيل الأوقاف[٤] .

---

(١) طُبع أول مرة سنة (١٢٧٥ هـ) في مجلدين كبيرين بمصر، ثم طُبع مرة ثانية سنة (١٢٩٤ هـ) ، ثم طبع ثالثة في (١٣٠٨ هـ) في ثمانيـة مجلدات كبيرة بمصر، ثم في خمسـة مجلدات ، وأخيراً طبع في تسعـة أجزاء في أربعـة مجلدات مع القـرآن الكريم ، وصورة مخطوطتـه موجودة في مـركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمـة برقم : (١٠٩ ، ١١٠) تفسير وعلوم القـرآن ، وهي مصورة عن النسخـة المحفوظة بدار الكتب المصـرية تحت رقم : (٣٠١) تفسير، وصورة أخرى برقم : (١١) مصورة عن النسخـة الموجودة بمكتبـة الأوقاف العـامة ببغـداد تحت رقم : (٢١٠٣) . وتوجد صورة مخطوطته أيضاً في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض برقم : (١٩٨ ، ١٩٩) . وقد ذكر آتسز بأن عدد أرقام مخطوطاته في مكتبات تركيا بإستـانبول بلغت حوالي (٢٦٦) مخطوطة . انظـر الكواكب السـائرة : (٣٥/٣) ، وكشف الظنـون : (٦٥/١) ، ومعجم المؤلفين : (٣٠٢/١١) ، وتاريخ الأدب العـربي ص : (٣٦٢) رقم (١) ، وببليوغرافيـة أبي السعود لآتسـز ص : (٦ - ٢٨) ، وفهـرس التفسير والمصورات الميكروفيلمية بمركـز البحث العلمي ص : (٨ ، ٤١) رقم : (١١ ، ١٠٩ ، ١١٠) ، وفهرس مخطوطات مركز الملك فيصل : (١٦٥/٢ ، ٢٣٢) رقم : (٣٢٣ ، ٣٩٠) .

(٢) أوله : «الحمد لله الذي أنزل الكتـاب المبين ....» الخ ، انظـر كشف الظنون : (٢٤٧/١) ، وهدية العارفين ص : (٢٥٣) ، ومعجم المؤلفين : (٣٠٢/١١) .

(٣) مخطوطة برلين رقم : (٣/٨١٦٠) ، وهي منظومـة في (٥٢) بيتـاً . انظـر معجم المؤلفين : (٣٠٢/١١) ، وتاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٤) رقم : (٨) .

(٤) مخطوطة لاله لي رقم : (٨٣٥) . نقلاً عن تاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٥) رقم (١٥) .

٥ - تعليقة على تفسير قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ﴾ في سورة يوسف[١].

٦ - تعليقة على الهداية[٢] .

٧ - تعليقة مختصرة على كتاب البيع من كتاب الهداية للمرغيناني[٣] .

٨ - تفسير سورة البقرة[٤] .

٩ - تفسير سورة الكهف[٥] .

١٠ - تفسير سورة الملك[٦] .

١١ -تهافت الأمجاد في أول كتاب الجهاد[٧] .

---

(١) كذا ، وتكملة الآية : ﴿ ... لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ سورة يوسف ، الآية : (٥٢) . انظر فهرس مكتبة أسعد أفندي ص : (٢٨٧) رقم : (٣٧٠٤) .

(٢) انظر كشف الظنون : (٢٠٣٦/٢) .

(٣) انظر كشف الظنون : (٢٠٣٦/٢) ، وفي العقد المنظوم ص : (٤٤٥) بعنوان : «حاشية على العناية من أول كتاب البيع من الهداية» ، تسعها عدة من الكراريس والأوراق . اهـ

(٤) مخطوطة مكتبة بريل رقم : (هـ أول ٣٦٣ ، ثان ٦٦٧) . نقلاً عن تاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٥) رقم : (١٤) .

(٥) مخطوطة أيا صوفيا رقم : (٣٥٩) . نقلاً عن تاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٣) رقم : (٣) .

(٦) مخطوطة قلج علي رقم : (١٠٢٤) ، وبرلين رقم : (٩٦١) . نقلاً عن تاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٣) رقم : (٢) .

(٧) وهي رسالة في شرح كتاب الجهاد من الهداية ، أولها : «اللهم ياولي العصمة والتوفيق ...» الخ . وذكر فيها أنه ورد الأمر العالي على مالكي ممالك التحقيق ليعطفوا عنان طرف الطرف نحو مضمار السير وميدان الجهاد ، الخ ... انظر كشف الظنون : (٢٠٤٠/٢) ، وفي هدية العارفين ص : (٢٥٤) بلفظ : «نهاية الأمجاد على كتاب الجهاد» ، وفي تاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٤) رقم : (١١) بلفظ : « رسالة على أول كتاب السير أي الجهاد » .

١٢ - تهافت الأمجاد في فروع الفقه الحنفي[١] .

١٣ - ثواقب الأنظار في أوائل المنار[٢] .

١٤ - حسم الخلاف في المسح على الخفاف[٣] .

١٥ - دعا نامه[٤] .

١٦ - ديباجة تفسير أبي السعود[٥] .

---

(١) انظر معجم المؤلفين : (١١/٣٠٢) .

(٢) وهو شرح لمختصر المنار في أصول الفقه لأبي البركات النسفي (ت ٧١٠هـ) . انظر هدية العارفين ص : (٢٥٣) ، وكشف الظنون : (٢/١٨٢٦) .

(٣) أوله : «حمد من لايستفتح أغر الكتب والرسائل إلا بتذكاره ...» الخ ، وذكر فيه أنه كتبه لولده مصطفى . انظر هدية العارفين ص : (٢٥٤) ، وكشف الظنون : (١/٦٦٥) .

(٤) كُتِب بالتركية بخط نسخ جميل في نحو (١٢) ورقة ، وأوله : «حمد وسباس وستايش بي قياس أول سامع الأصوات ومجيب الدعوات». وآخره : «رب اغفر لي أنت خير الراحمين ، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين». وقد جمعه من الأحاديث الصحيحة والآثار المنقولة باسم الوزير محمد باشا العتيق ، ورتبه على مقدمة وسبعة أبواب . فالمقدمة : في تعريف الدعاء ، وفضيلته ، وشروطه ، وأوقات الإجابة ، وعلامات القبول . والباب الأول : في الاسم الأعظم ، والأدعية . والثاني : في الأدعية المخصوصة بالسفر والخوف والشدة والمرض ونحوه . والثالث : في أدعية الصباح والمساء والنوم واليقظة . والرابع : في الأكل والشرب واللباس ودخول البيت والحمام والخروج منهما . والخامس : في حفظ النفس والمال . والسادس : في الصوم والعيد وليلة القدر ويوم عرفة . والسابع : في الصلوات المنصوصة ، والدعوات المخصوصة. انظر كشف الظنون : (١/٧٥٥) ، والفهرست الوصفي المفصل للمخطوطات التركية والفارسية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ص : (٣١) رقم : (٤٨) ، ورقم الحفظ : (٥٥٤٥) ، ومخطوطة مكتبة إزمير في تركيا برقم : (٧٨٧) .

(٥) انظر فهرس مكتبة أسعد أفندي ص : (٢٩٦ ، ٣٤١) رقم : (٣٧٤٩ ، ٣٤١٥) .

١٧ - رسالة في إجابات عن مسائل خلافية فقهية[1] .

١٨ - رسالة في الأدعية المأثورة[2] .

١٩ - رسالة في أصل البدعة[3] .

٢٠ - رسالة في الإيمان = الرسالة الإيمانية[4] .

٢١ - رسالة في بعض سور فتاوى[5] .

٢٢ - رسالة في بيان سجود السهو[6] .

٢٣ - رسالة في بيان قطع علم[7] .

٢٤ - رسالة في بيان لفظ جلبي [8] .

٢٥ - رسالة في تصحيح الألفاظ المتداولة بين الناس[9] .

٢٦ - رسالة في تعلم أسلوب كتابة الفتوى[10] .

---

(١) مخطوطة جوتا ، رقم : (١/٣٢) . نقلاً عن تاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٤) رقم : (٦) .

(٢) في مجلد بخط نسخ تركي . انظر فهرس مكتبة عاشر أفندي ، ضمن مجموعة واقف ثاني شيخ الإسلام مصطفى عاشر أفندي ص : (١٠١) رقم : (٤٧) .

(٣) مخطوطة مكتبة لاله لي إسماعيل رقم : (٣١/٧٠٦) من ورقة (٢٢٨/ب - ٢٢٩/أ) .

(٤) أولها : « الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله محمد سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين ، أما بعد ؛ بلكل كه بو كتابك اسمى رساله ايمانيدر بلكل كه » وتقع في (٤٥) ورقة انظر مخطوطة مكتبة حسن خيري رقم : (١٨٧) ، وببليوغرافية أبي السعود ص : (٦٠).

(٥) مخطوطة ولي الدين رقم : (١٥٤٧) ، والإسكندرية فنون رقم : (٧٨) . نقلاً عن تاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٥) رقم : (١٨) .

(٦) انظر فهرس مكتبة أسعد أفندي ص : (٣٠٤) رقم : (٣٧٨٢) .

(٧) انظر تاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٤) رقم : (١٣) .

(٨) مخطوطة بالمكتبة المحمودية بالمدينة المنورة ، ضمن مجموعة برقم : (٢٧٨٧) .

(٩) مخطوطة مكتبة ترنوفالي بإستانبول ، رقم : (٣/١٨٦٥) .

(١٠) انظر فهرس مكتبة أسعد أفندي ص : (٣١٨) رقم : (١٠١٧) .

*- رسالة في التغني = مقالة ضد الغناء .

٢٧ - رسالة في تفسير آية : ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيْمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾(١) .

٢٨ - رسالة في حق الإضافة(٢) .

٢٩ - رسالة في حق الروافض(٣) .

٣٠ - رسالة في الربا والاستخفاف بالدين والجهر بالذكر والتغني واللحن(٤) .

٣١ - رسالة في السؤال والجواب في حق الفاسق(٥) .

*- رسالة في شرح كتاب الجهاد = تهافت الأمجاد في أول كتاب الجهاد .

٣٢ - رسالة في القضاء والقدر(٦) .

---

(١) تكملة الآية : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُوراً ﴾ سورة الأحزاب ، الآية : (٣٨) . انظر فهرس مكتبة أسعد أفندي ص : (٣٠٠) رقم : (٣٦٧٥) .

(٢) انظر فهرس مكتبة أسعد أفندي ص : (٢٧٨) رقم : (٣٧٦٧) .

(٣) مخطوطة مكتبة لاله لي إسماعيل بتركيا ، رقم : (٣٣/٧٠٦) .

(٤) طُبعت بالمطبعة العمومية بتونس عام : (١٣١٧ هـ) .

(٥) مخطوطة مكتبة لاله لي ، رقم : (١٦/٣٧٢٠) .

(٦) طُبعت في المطبعة العامرة بإستانبول عام : (١٢٦٤ هـ) ، وأصلها في مكتبة الحاج محمود أفندي رقم : (٢٠٥٦) .

٣٣ - رسالة في المسائل الشرعية[١] .

٣٤ - رسالة في المسائل المتعلقة بالصوفية[٢] .

٣٥ - رسالة في مسائل الوقف[٣] .

٣٦ - رسالة في المسح على الخُفَّين[٤] .

٣٧ - سؤال ... [حول نزاع فقهي] [٥] .

٣٨ - السؤال والجواب في الفقه[٦] .

---

(١) انظر فهرس مكتبة أسعد أفندي ص : (٣٠٢) رقم : (٣٧٧٢) .

(٢) مخطوطة مكتبة حافظ أفندي ، رقم : (١١/٤٥٢) .

(٣) مخطوطة يحيى أفندي رقم : (٤٣٩) ، وهي رسالة في وقف النقود وجوازه ، وكان المولى جوى زاده جمع كتاباً في عدم جوازه ، وسعى في إبطاله حال كونه قاضياً بعسكر الروم ، ثم ردّه أبو السعود ، وأفتى بجوازه . انظر كشف الظنون : (٨٩٨/١) ، وتاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٤) رقم : (١٢) . .

(٤) مخطوطة أيا صوفيا رقم : (١٥٤٣) ، ونور عثمانية رقم : (١٩٦٨) . انظر تاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٤) رقم : (٥) ، والأعلام للزِّرِكلي : (٥٩/٧) .

(٥) مخطوطة جوتا ، رقم : (٣٢) . نقلاً عن تاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٥) رقم : (١٦) .

(٦) انظر فهرس مكتبة أسعد أفندي ، ص : (٢٥٧) رقم : (٣٦١٠) .

٣٩ - غلطات العوام(١) .

٤٠ - غمزات المليح في أول مباحث قصر العام من التلويح(٢) .

٤١ - فتاوى أبي السعود(٣) .

٤٢ - فتوى في دوران الصوفيه(٤) .

٤٣ - فتوى في صحة وقف الدراهم والدنانير(٥) .

---

(١) انظر هدية العارفين : (٢/٢٥٤) .

(٢) أولها : «الحمد لله تعالى منه المبدأ ، وإليه المنتهى...» الخ . انظر كشف الظنون : (١/٤٩٨) ، وفي هدية العارفين ص : (٢٥٤) بلفظ : «غمرات» بالراء المهملة وهو تصحيف ، وبلفظ : «قصد» بالدال المهملة بدلاً من الراء : غمرات المليح في أول مباحث قصد العام من التلويح .

(٣) فتاوى أبي السعود تارة يكتبونها بالعربية وتارة بالتركية ، وقد جمعها المولى محمد بن أحمد الشهير ببوزن زاده (ت ٩٨٣هـ) ، ودوّنها على أبواب وفصول . وجمعها المولى الإسكليبي المعروف بولي يكان (ت ٩٩٨هـ) ، مع إلحاق فتاوى المولى علي الجمالي وابن كمال وسعدي وابن جوى ، ورتبها على ترتيب كتب الفقه أيضاً . وجمع بعضهم فتاوى أبي السعود من المجاميع في سنة (٩٨٣هـ) باسم السلطان مراد . انظر كشف الظنون : (٢/١٢١٩ ، ١٢٢٠) ، وفي فهرس مكتبة أسعد أفندي ص : (٢١٧) رقم : (٣٧٢٧) ، ذُكر بأنها توجد في مجلد بخط تعليق تركي بلفظ «مجموعة الفتاوى» ، وذُكرت فتاوى أبي السعود أيضاً في الفهرس المذكور ضمن مجموعة رسائل مختلفة في ص : (٣١٨) رقم : (١٠٥٩) ، وتوجد مخطوطتها أيضاً بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، بعنوان : «مجموع فتاوى أبي السعود» ، يُظَن أنه كُتب بخط المؤلف بقلم تعليق بالتركية ، به (٤٣) ورقة ، أوله : «يعني موسى كند وبيله كيدن ... ايتدركه» . وآخره : «اوكون شهر رمضان ايديكنه حكم اولندغى قيد اولندى» . انظر الفهرست الوصفي المفصل للمخطوطات التركية والفارسية ص : (٨٦) رقم : (١٨٥)، ورقم الحفظ : (٨٠٠٩) ضمن مجموع . وفي تاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٤) رقم : (٦) ذُكِر أن علي أفندي جمع فتاوى أبي السعود كما في مخطوطة يني رقم : (٥/٦٢٤) .

(٤) مخطوطة مكتبة رشاد أفندي ، رقم : (١٠/١٠٣٦) من ورقة : (٥٢/أ - ٥٣/ب) .

(٥) مخطوطة ولي الدين، رقم: (١٥٤٨) . نقلاً عن تاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٥) رقم: (١٩) .

٤٤ - فتوى في قتل الشيعة[١] .

٤٥ - الفرق بين المَقَام والمُقَام[٢] .

٤٦ - فوائد في تفسير آية الكرسي[٣] .

٤٧ - قانون المعاملات[٤] .

٤٨ - قانون نامه[٥] .

٤٩ - قصائد أبي السعود[٦] .

---

(١) مخطوطة مكتبة رشاد أفندي ، رقم : (١١/١٠٣٦) من ورقة : (٥٢/أ - ٥٤/ب) . وفي تاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٥) رقم : (٢١) بعنوان محرّف : «فتوى في تحليل قتل اليزيدية» ، وقد ترجمت بأمر السلطان من اللغة التركية ، ومخطوطتها في الموصل رقم : (٩/٢٦٤) ، واليزيدية هم عبدة الشيطان ، وليست من الشيعة ، بل هي فرقة انشقت عن الإباضية ، وهم أتباع يزيد بن أنيسة الذي أنكر كون سورة يوسف من القرآن الكريم ، فلعل العنوان محرّف .

(٢) مخطوطة مكتبة شهيد علي باشا ، رقم : (٢٨٥٩) من ورقة (٣٧/أ - ٣٧/ب) في (٢٠) سطراً . نقلاً عن كتاب : ببليوغرافية أبي السعود لآتسز ص : (٦٠) .

(٣) انظر فهرس مكتبة أسعد أفندي ص : (٣٤١) رقم : (٣٤١٥) .

(٤) انظر هدية العارفين : (٢/٢٥٤) .

(٥) قانون نامه ، أي : كتاب القانون ، أو مجموعة القوانين . انظر فهرس مكتبة أسعد أفندي ضمن مجموعة رسائل مختلفة ص : (٢٥٨ ، ٢٩٩) رقم : (٣٦١٢ ، ٣٧٦٢) .

(٦) انظر فهرس مكتبة أسعد أفندي ص : (٢٩٤) رقم : (٣٧٤١) ، وهي مجموعة من القصائد العربية ، ومنها القصيدة الهائية التي تقع في (٦٧) بيتاً ، أولها :

مَقَالَةُ الحَقِّ عَزَّ قَائِلُهَا ... مَرْكُوزَةٌ في النُّهَى دَلائِلُهَا

ومنها القصيدة النونية في تعلق النفس بالعالم الجسماني ، وتقع في (٤٨) بيتاً ، أولها :

طَالَ النَّوَى بِدَارَةِ الهِجْرَانِ ... مَثْوَى الكُرُوبِ قَرَارَةِ الأَشْجَانِ

ومنها قصيدة في رثاء السلطان سليمان تقع في (٦٧) بيتاً ، أولها :

أَصَوْتُ صَاعِقَةٍ أَمْ نَفْخَةُ الصُّوْرِ ... فَالأَرْضُ قَدْ مُلِئَتْ مِنْ نَقْرِ نَاقُورِ

٥٠ - قصة هاروت وماروت[١] .

٥١ - القصيدة الميمية[٢] .

** - مجموع فتاوى أبي السعود = فتاوى أبي السعود .

٥٢ -المذاهب المنحرفة[٣] .

٥٣ - مسقطات العوام[٤] .

٥٤ - معاقد الطراف في أول تفسير سورة الفتح من الكشاف[٥] .

---

(١) مخطوطة قلج علي رقم : (١٥٢٨) . نقلاً عن تاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٥) رقم : (١٧).

(٢) مخطوطة مكتبة أسعد أفندي رقم : (١١/٣٧١٣) ، وهي قصيدة في الغزل عارض فيها ميمية أبي العلاء المعرّي ، وتقع في (٩٠) بيتاً ، مطلعها :

أَبَعْدَ سُلَيْمَى مَطْلَبٌ وَمَرَامُ ... وَغَيْرَ هَوَاهَا لَوْعَةٌ وَغَرَامُ

وقد شرحها عبد الرحمن بن صاجلي أمير (ت ٩٨٧هـ) ، والشيخ غرس الدين الحلبي (ت ٩٧١هـ) ، وشرحها أيضاً رضي الدين محمد بن إبراهيم الحلبي (ت ٩٥٩هـ) ، وسماه : «المنثور العودي على المنظوم السعودي» ، وقد عرضها جماعة من الآدباء منهم : عبد الرحيم العباسي ، والشيخ عز الدين عبد العزيز الزمزمي المكي ، والشيخ شمس الدين محمد المصري القاضي . انظر هدية العارفين ص : (٢٥٤) ، وكشف الظنون : (١٣٤٧/٢ ، ١٩١٩) ، وتاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٤) رقم : (١٠) .

(٣) مخطوطة مكتبة لاله لي إسماعيل ، رقم : (٧٠٦) من ورقة (٢٣٢/ب - ٢٣٢/أ) في (٣٨) سطراً . وهي باللغة التركية ، وتشتمل على الجبرية والقدرية والرافضة والخوارج والمعطلة والمشبهة . نقلاً عن ببليوغرافية أبي السعود ص : (٦١) .

(٤) انظر فهرس مكتبة أسعد أفندي ص : (٢٥٣) رقم : (٣٥٩٧) .

(٥) انظر كشف الظنون: (١٤٨٠/٢) ، وفي هدية العارفين ص: (٢٥٤) بلفظ : «معاقد الطراز» .

٥٥ - معراج الإيالة ومنهاج العدالة [١] .

٥٦ - معروضات[٢] .

٥٧ - مقالة ضد الغناء = رسالة في التغني[٣] .

٥٨ - منتخبات من فتاوى أبي السعود[٤] .

٥٩ - منشآت[٥] .

٦٠ - موقف العقول في النقول[٦] .

---

(١) وهو ترجمة بالتركية لكتاب «السياسة الشرعية لإصلاح الراعي والرعية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى . انظر مخطوطة مكتبة أسعد أفندي ، رقم : (١٩٠١) . والإيالة بمعنى السياسة أو الولاية . قال شيخ الإسلام ابن تيمية في المقدمة : «أما بعد فهذه رسالة مختصرة فيها جوامع من السياسة الإلهية والإيالة النبوية ، لا يستغني عنها الراعي والرعية» .

(٢) معروضات : كُتبت بالتركية ، وهي في مسائل فلسفية ودينية وفقهية مختلفة ، أهداه أبو السعود للسلطان سليم خان . وكتب عنه باول هورستر بوصفه تطبيقاً للفقه الإسلامي في القرن السادس عشر الميلادي في ضوء ما عرضه شيخ الإسلام أبو السعود . انظر فهرس مكتبة أسعد أفندي ضمن مجموعة رسائل مختلفة ص : (٢٥٨) رقم : (٣٦١٢) وفهرس مكتبة عاشر أفندي ص : (١٥٦) رقم : (١١٣) ، وتاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٤) رقم : (٩) .

(٣) مخطوطة مكتبة لاله لي ، رقم : (٤٦٦) ، ورقة رقم : (٤٩/ب) في (١٨) سطراً . نقلاً عن كتاب بيليوغرافية أبي السعود ص : (٦٠) .

(٤) كُتِب بقلم معتاد بالتركية في القرن الحادي عشر الهجري تقديراً . أوله : «برمسلمان ... طورركن بتول ايله شرعاً اكا نسبة لازم اولورمى؟ ...» . وآخره : «وهذا أيضاً باطل ، وهذيانات العوام لانهاية لها» . انظر الفهرست الوصفي المفصل للمخطوطات التركية بجامعة الإمام بالرياض ص (١٠٠) رقم : (٢٢٢) ، ورقم الحفظ : (١٣٠) ضمن مجموع .

(٥) مخطوطة مكتبة أسعد أفندي ، رقم : (٣٢٩١) ، في مجلد باللغة التركية .

(٦) أولها : «الحمد لله مستحق الحمد وملهم الصواب» الخ . انظر : هدية العارفين ص : (٢٥٤) ، وكشف الظنون : (١٩١٠/٢) ، وفهرس مكتبة أسعد أفندي ضمن مجموعة رسائل مختلفة ص (٢٤١) رقم : (٣٥٥٠) ، بلفظ : «رسالة في وقف المنقول» . وفي تاريخ الأدب العربي ص : (٣٦٣) رقم : (٤) بلفظ : « رسالة في(جواز) وقف النقود (المنقول) » .

المبحث العاشر

جهـــاده وأثـــره

لم تكن وظيفة شيخ الإسلام التي شغلها أبو السعود مقصورة من الناحية الرسمية على سلطته في إصدار الفتاوى التي يطلبها الأفراد فحسب ، بل كانت تتعلق أيضاً بمسائل السياسة والنظام العام ، فقد استصدر السلطان سليم الثاني من أبي السعود فتوى تبيح له المبادرة بإعلان الحرب ضد البندقية عام (١٥٧٠ م)[١] .

وفي زمن السلطان سليمان الأول كان أبو السعود يُستشار في المسائل السياسية ذات الأهمية ، وكان يتعاون مع المفتين في التشريعات السلطانية المختلفة ، حيث أجاز أبو السعود شرعية جميع القوانين الصادرة في عهد السلطان سليمان الأول وأقرها [٢] .

---

(١) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان ص : (٤٧٩) ، والموسوعة الإسلامية الميسرة : (٥٤٣/١ - ٥٤٤) .

(٢) انظر الموسوعة الإسلامية الميسرة : (٥٤٤/١) .

إن عمل أبي السعود في وضع قوانين للشريعة وإجازتها عمل غير محمود في ميزان الإسلام ؛ ذلك لأن تقنين أحكام الشريعة الإسلامية مسألة خطيرة جداً . فإن إلزام القاضي بقولٍ مقنّنٍ أو مذهب معيّن ممتنع شرعاً وواقعاً ، وهو محرّم شرعاً لا يجوز الإلزام به ولا الالتزام به . وقد اتجهت الحكومة العثمانية في أواخر القرن الثالث عشر الهجري قبل انقراضها بإخراج قانون للمعاملات يتلاءم مع روح العصر مقيّداً بالمذهب الحنفي ، فصدرت بذلك « مجلة الأحكام العدلية » متضمنة لجملة من أحكام البيوع والدعاوى والقضاء . وقد صار التقنين دركة أولى لحلول القانون الفرنسي في البلاد الإسلامية ، وواقع الأمتين المصرية والتركية اللتين دوّنتا الأحكام الشرعية انتهى أمرهما إلى التبديل الكلي ، وهذه المفاسد يُخشى أن تؤدّي إلى القضاء على أصل الدين . انظر التقنين والإلزام للدكتور بكر أبو زيد ص : (١٧ ، ٢٠ ، ٩٩) ، والقضاء في الإسلام لمحمد مدكور ص : (١١) ، وتاريخ القانون لزهدي يكن ص : (٢٨٦) .

ولم يكتفِ أبو السعود بما قدمه من إنتاج فكري للإسلام والمسلمين مدة خدمته في الدولة العثمانية نحو ستين سنة ، بل جاهد في سبيل الله بلسانه وسنانه ، وشارك ببيانه وجنانه في بعض الغزوات .

فعندما عيّن السلطان سليمان القانوني أبا السعود قاضياً على رأس العساكر في الروم إيلي (قاضي عسكر) في شهر ربيع الأول عام (٩٤٤ هـ) شارك الجيش في القتال ، وخاض معهم غمار المعارك ، وصار بالقرب من الحاكم وذراعه الأيمن في فتوحاته ، مثل فتح ديار قرا بوغدان ، وفي غزوة استرغون ، وفي فتح ديار بودين ، وبعد فتح الأخيرة ، صلى أبو السعود إماماً بالناس صلاة الجمعة الأولى في تلك المدينة[١] .

وقد حث الحكام والرؤساء على فتح جزيرة قبرص ؛ لأمن الدولة ، ولأهمية موقعها حيث إنها قاعدة بحرية مهمة ، وكان الحجاج الذين يذهبون إلى الحج عن طريق مصر كانوا عرضة للسلب والنهب من قبل قراصنة جزيرة قبرص ، لذلك أفتى أبو السعود بأهمية غزوها [٢] .

---

(١) انظر شيخ الإسلام أبو السعود أفندي وأسلوبه في التفسير ص : (٤٠) .

(٢) انظر نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان ص : (١٦٣) ، والموسوعة الإسلامية الميسرة : (٥٤٣/١ - ٥٤٤) .

المبحث الحادي عشر

مكانته وأقوال العلماء فيه

كان أبو السعود فقيهاً عالماً ، وإماماً عاملاً ، شديد التحرّي في فتاواه ، حسن الكتابة ، مهيباً ، حسن المحاورة ، وافر الإنصاف ، ديّناً ، خيّراً ، سالماً مما ابتلي به كثير من موالي الروم من أكل المكيّفات ، سالم الفطنة ، جيّد القريحة ، لطيف العبارة ، حلو النادرة[1] .

غير أن فيه نوع اكتراث بمداراة الناس ، والميل الزائد لأرباب الرئاسة ومداهنتهم[2] .

انتهت إليه رئاسة الحنفية في زمانه [3] ، ويُعرف بكنية أبي حنيفة الثاني[4] . وكان يُقال له : خطيب المفسرين [5] ، وهو من أعظم موالي الروم وأفضلهم لم يكن له نظير في زمانه في العلم والرئاسة والديانة [6] .

كان حاضر الذهن سريع البديهة ، يكتب الجواب مراراً في يوم واحد

---

(١) انظر الكواكب السائرة : (٣٥/٣) .

(٢) انظر شذرات الذهب : (٣٩٩/٨) ، والأعلام : (٥٩/٧) .

(٣) انظر الفوائد البهية ص : (٨١) .

(٤) انظر الموسوعة الإسلامية التركية : (٣٦٥/١٠) .

(٥) انظر الفوائد البهية ص : (٨٢) ، والتفسير والمفسرون : (٣٤٧/١) .

(٦) انظر الكواكب السائرة : (٣٥/٣) .

على ألف رقعة باللغات العربية والفارسية والتركية ، تبعاً لما يكتبه السائل [1] .

يقول الدكتور محمد حسين الذهبي : « مكث في الإفتاء نحواً من ثلاثين سنة أظهر فيها الدقة العلمية التامة والبراعة في الفتوى والتَّفَنُّن فيها »[2] .

ولم يُرَ أحد غيره في تاريخ الدولة العثمانية استمر في وظيفة مشيخة الإسلام بمثل هذه المدة ، وبمثل هذه الكيفية التي لم يستغل فيها وظيفته لمصالحه الشخصية ألبتَّه .

وقال الشيخ قطب الدين المفتي[3] : واجتمعت به في الرحلة الأولى وهو قاضي استانبول سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة ، فرأيته فصيحاً ، وفي الفن رجيحاً ، فعجبت لتلك العربية ممن لم يسلك ديار العرب ، ولا محالة إنها منح الرب [4] .

وكان مهيباً حظياً عند السلطان[5] ، ولما جمع السلطان سليمان العلماء بمجلسه ، وأمرهم بالمناظرة ، رجّح أبا السعود في بحثه وتبين له فضله ، واستحق التقديم وكان أهله[6] .

---

(١) انظر الأعلام : (٥٩/٧) .

(٢) التفسير والمفسرون : (٣٤٥/١) .

(٣) هو محمد بن أحمد بن محمد بن قاضي خان محمود النهروالي ، قطب الدين الحنفي ، مؤرِّخ من أهل مكة ، تعلّم بمصر ، ونُصّب مفتياً بمكة . له الإعلام بأعلام بلد الله الحرام ، والبرق اليماني في الفتح العثماني ، والفوائد السنية في الرحلة المدنية . مات سنة ٩٨٨ هـ . انظر : البدر الطالع : (٥٧/٢) ، والأعلام : (٦/٦) .

(٤) انظر تاريخ النور السافر ص : (٢٤٠) ، الفوائد البهية ص : (٨٢) .

(٥) انظر الأعلام : (٥٩/٧) .

(٦) انظر تاريخ النور السافر ص : (٢٣٩) .

وكان السلطان يعتمد عليه في المسائل المهمة في شتى أمور الدولة القضائية والحقوقية وغيرها .

وعندما أقام السلطان سليمان احتفالاً كبيراً بمناسبة وضع حجر الأساس لمسجد السليمانية ، وكان أبو السعود حاضراً ، فقد كلّفه السلطان بوضع حجر الأساس بدلاً عنه ، وذلك يدل دلالة واضحة على فضله ومكانته[1] .

كما نال أيضاً إعجاب واحترام السلطان سليم الثاني ، فقد أرسل السلطان كتاباً إلى أبي السعود وهو في طريقه إلى إحدى غزواته ، وكان أبو السعود وقتها مريضاً ، وكان مما جاء في كتابه قوله :

« ياحضرة الشيخ ، يا مولانا ، يا أبا السعود أفندي ، أنت أخي في جميع الأحوال ، أنت أخي في السراء والضراء ، أنت أخي في طريق الحق ، أنت أخي في الدنيا والآخرة » ، ثم ختم كلامه بالدعاء له[2] .

فهذا الموقف وتلك العبارات ترينا قوة العلاقة التي تربط بين السلطان سليم الثاني وبين أبي السعود .

وسأل السلطان سليمان القانوني ابن كمال باشا وقال له :

لو فُرِض أنك كنت في زمن المحقق التفتازاني[3]، أو في زمن المدقق

---

(١) انظر المعجم الإسلامي ص : (٩٣) .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) هو مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني ، سعد الدين ، من أئمة العربية والبيان والمنطق ، ولد بتفتاز من بلاد خراسان . مات سنة ٧٩٣ هـ . انظر الأعلام : (٢١٩/٧) .

السيد الشريف الجرجاني[1] ، ما كنت تكون لهما ؟

فقال : لو كانا في زماني لحملا لي الغاشية[2] .

فاستكثر السلطان منه ذلك وأنكره في باطنه ، ولم يجبه بجواب بعدها .

ثم سأل المفتي أبا السعود بعد ذلك بمدة السؤال نفسه ، فقال أبو السعود في الجواب : كنت أكون تلميذاً قابلاً .

فاستحسن السلطان منه هذا الجواب ، وقال له : أنت صاحب الرأي والصواب ، وخلع عليه سمُّوراً كبيراً [3] يساوي ألف دينار ذهباً [4] .

ونقل الدكتور باغجوان الموازنة التي أجراها بعض الكُتّاب بين أبي السعود وبين شيخه ابن كمال باشا ، فهم يرون أنهما عالمان متبحّران في الاطلاع على الفقه ، والكلام ، والأصول على السواء .

ويرون ترجيح كفة ابن كمال باشا في علوم التصوف ، والحكمة ، والتاريخ ، والأشعار التركية على أبي السعود .

كما يرون تفوّق أبي السعود في الأدب ، وعظمة الأسلوب ، وتناسب البيان ، والأشعار العربية [5] .

---

(١) تقدمت ترجمته في ص : (١٠٣) .

(٢) الغاشية هي غطاء السرج . انظر لسان العرب : (٣٢٦١/٦) مادة : (غشا) .

(٣) السّمّور : فِرَاء غالية الأثمان نسبة إلى دابة معروفة تسمّى بالسمّور ، حيث تُسوّى من جلودها تلك الألبسة . انظر لسان العرب : (٢٠٩٢/٤) مادة : (سمر) .

(٤) انظر تراجم الأعيان : (٢٤٠/١) .

(٥) انظر طبقات المفسرين لعمر نصوحي بيلمن - بالتركية - : (٦٣٨/٢) . نقلاً عن ابن كمال باشا وآراؤه الاعتقادية : (٥٧/١ - ٥٨) .

المبحث الثاني عشر

وفاته

تُوفّي أبو السعود وهو مُفتٍ بدار السلطنة العظمى القسطنطينية الكبرى في يوم السبت الخامس من جمادى الأولى سنة ٩٨٢ هـ ، ويُقال : في يوم الأحد ٦ جمادى الأولى ، الموافق ٢٢ أغسطس عام ١٥٧٤ م . في زمن دولة السلطان سليم ابن السلطان سليمان القانوني ، ودُفن في مقبرة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه بإستانبول[1] .

وقد ذكر بعضهم تاريخ وفاة أبي السعود بالكلمات والحروف الأبجدية بهذه العبارة : (**مات فرد الزمان مولانا**)[2] .

وقد حضر جنازته العلماء والوزراء وسائر أرباب الديوان وخَلْق لا يُحصون

---

(١) انظر العقد المنظوم ص : (٤٤٣) ، والكواكب السائرة : (٣٦/٣) ، وشذرات الذهب : (٤٠٠/٨) ، والبدر الطالع : (٢٦١/١) ، والفوائد البهية ص : (٨٢)

(٢) وهذه الطريقة تعتمد على الحروف الأبجدية ، فكل حرف منها له رقم خاص ، وهي كما يأتي :
أ=١ ، ب=٢ ، ج=٣ ، د=٤ ، هـ=٥ ، و=٦ ، ز=٧ ، ح=٨ ، ط=٩ ،
ي=١٠ ، ك=٢٠ ، ل=٣٠ ، م=٤٠ ، ن=٥٠ ، س=٦٠ ، ع=٧٠ ، ف=٨٠ ، ص=٩٠ ،
ق=١٠٠ ، ر=٢٠٠ ، ش=٣٠٠ ت=٤٠٠ ، ث=٥٠٠ ، خ=٦٠٠ ، ذ=٧٠٠ ، ض=٨٠٠ ، ظ=٩٠٠ ،
غ=١٠٠٠

وعبارة : (**مات فرد الزمان مولانا**) تتكون من الحروف والأرقام الآتية :
م(٤٠) + ا (١) + ت(٤٠٠) + ف(٨٠) + ر(٢٠٠) + د(٤) + ا (١) + ل(٣٠) + ز(٧) +
م(٤٠) + ا (١) + ن(٥٠) + م(٤٠) + و(٦) + ل(٣٠) + ا (١) + ن(٥٠) + ا (١) .
فيصير المجموع = (٩٨٢) وهي تمثّل سنة وفاته . هذه الطريقة أفدتها من فضيلة الدكتور محمد الصادق آيدين بالطائف .

كثرة ، وشهدوا له بالخير ، وصلى عليه المولى سنان[1] في جامع السلطان محمد خان .

سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَزَلْ عَلِيّا لَيْسَ لَهُ فِي العُلُوِّ ثَانِي
قَضَى عَلَى خَلْقِهِ المَنَايَا فَكُلُّ حَيٍّ سِوَاهُ فَانِي[2]

وقد أنشد قبيل موته بساعة هذين البيتين :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ يَكرّانِ مِنْ سَبْتٍ جَدِيْدٍ إِلى سَبْتِ
فَقُلْ لِجَدِيْدِ الثَّوْبِ لابُدَّ مِنْ بِلَى وَقُلْ لاجْتِمَاعِ الشَّمْلِ لابُدَّ مِنْ شَتِّ[3]

وأتى نعيه إلى الحرم المكي ، فنُودي بالصلاة عليه من أعلى زمزم ، وصُلّي عليه صلاة الغائب[4] .

وقد رثاه بعضهم بقصائد جميلة ، وأبيات رصينة ، فمنها ما قاله الانقشاري في تاريخ وفاته :

أَمْسَى بِجِوَارِ رَبِّهِ ذِي الحِلْمِ مُفْتِي الإِسْلامِ بَلْ سَمِيّ الاسْمِ
وَالعِلْمُ بَكَى مُذْ قِيْلَ فِي تَارِيخِهِ قَدْ مَاتَ أَبُو السّعُوْدِ مَوْلَى العِلْمِ[5]

---

(١) هو يوسف بن عبد الله بن إلياس الأماسي ، المعروف بالمولى سنان . قُلّد قضاء حلب ثم دمشق ثم القسطنطينية وأخيراً قضاء العسكر بالأناضول . له حاشية على تفسير البيضاوي . مات سنة ٩٨٦ هـ . انظر العقد المنظوم ص : (٤٨٩- ٤٩١) ، والأعلام : (٨/٢٤١) .

(٢) انظر العقد المنظوم ص : (٤٤٣) .

(٣) تراجم الأعيان : (١/٢٤٤) .

(٤) انظر تاريخ النور السافر ص : (٢٤١) .

(٥) تاريخ النور السافر ص : (٢٣٩) .

ومنها قصيدة مصطفى بن حسن الجَنَّابي[1] :

يَا جَامِعَ الأَمْــوَالِ وَالأَسْبَــابِ	يَا مَالِكاً لِلْخَلْــقِ بِالإِرْهَـــابِ
لَا تُلْهِكَ الدُّنْيَا بِحُسْـــنِ مِثَالِهَا	كُلٌّ يَصِـــيْرُ إِلَى فَنَا وَذَهَابِ
أَيْنَ الَّذِيْنَ تَرَفَّعُوا بِحُصُـــوْنِهِمْ	وَتَمَنَّعُــــوا بِالمُلْكِ وَالأَنْسَابِ
الدَّهْـــرُ بَدَّدَ بِالْمَنِيَّـــةِ شَمْلَهُمْ	وَرَمَـــاهُم مِنْهَا بِسَهْـمِ مُصَابِ
يَا طَالَمَا رَكِبُوا الجِيَـــادَ وَطَالَمَا	سَـــارَتْ لَدَيْهِمْ قَـــادَةُ الرِّكَابِ
يَا مَنْ تَسَنَّمَ بِالْقُصُــوْرِ بِعِيْشَــةٍ	اذْكُرْ هَـــوَانَكَ فِي الثَّرَى وَتُرَابِ
كَمْ وَاثِقٍ بِالدَّهْرِ يَأْمُلُ رَاحَـــةً	وَالمَـــــوْتُ مُسْتَتِرٌ لَهُ بِالْبَابِ
كَمْ عَامِرٍ قَصْراً لِيخلدَ عَيْشُـــهُ	أَمْسَى قَتِيْـــــلاً وَالِياً بِخَرَابِ
أَيْنَ الَّذِي يَسْبِي النُّهَى بِكَلَامِـــهِ	وَقَـدِ انْتَهَى فِي الحُسْـنِ وَالإِعْرَابِ
شَمْسُ البِلَادِ وَصَدْرُهَا وَرَئِيْسُهَا	مُفْتِي الأَنَـــامِ وَوَاحِدُ الأَقْطَابِ
أَعْنِي بِذَاكَ أَبَا السُّعُوْدِ الفَاضِلَا	وَرَئِيْس أَهْـــلِ العِلْمِ وَالأَلْبَابِ
أَمْسَى رَهِيْناً فِي الْقُبُورِ إِلَى الْقِيَا	مِ وَمَالَهُ مِنْ عَـــــوْدَةٍ وَإِيَابِ
قَدْ خَاضَ فِي بَحْرِ البَقَاءِ وَشَبَّ نِيْـ	ـرَانَ الجَوَى فِي مُهْجَةِ الأَحْبَابِ

(١) هو مصطفى بن حسن بن سنان ، أبو محمد الجَنَّابي الرومي . مؤرّخ فاضل . وُلّي التدريس في مدرسة بروسه ، ثم عُيّن قاضياً في حلب ، يقال له السعودي ؛ نسبة إلى أستاذه أبي السعود العمادي . له شعر باللغتين العربية والتركية . مات سنة ٩٩٩ هـ . انظر الأعلام : (٢٣١/٧) .

نَبَذَ الجَمِيْعَ وَرَاءَهُ فَكَأَنَّـــــــهُ شَمْسٌ تَوَارَتْ فِي الضُّحَى بِسَحَابِ

بَكَتِ الصُّخُوْرُ بِمَــوْتِهِ فَلأَجْلِـهِ جَرَتِ الْعُيُـوْنُ مِنَ الفَلاَ وَشِعَابِ

وَلِفَقْدِهِ شُهُبُ السَّمَـــاءِ تَلَهَّبَتْ نَاراً وَدَمْـــعُ السُّحبِ فِي تِسْكَابِ

وَالرَّعْدُ مُضْطَرِبُ الحَشَا مُتَلَهِّفٌ وَالبَرْقُ مِنْ ذَا فِي لَظَـــى وَلهَابِ

وَاللَيْلُ قَدْ لَبِسَ السَّوَادَ وَنَجْمُــــهُ فَقَدَ الهُجُـــوْعَ مُسهِر الأَهْدَابِ

ذَا مَاجِـــــدٌ قَدْراً جَلاَلَةُ قَدْرِهِ لاَ يُسْتَطَاعُ بَيَـــــــانُهَا بِكِتَابِ

هَذَا هُوَ الشَّمْـــسُ المُنِيْرُ بِنُوْرِهِ خَسَفَ البُدُوْر وَزَالَ كُلّ شِهَابِ

كَمْ قَدْ أَرَانَا مِنْ سَمَاءِ كَلاَمِــــــهِ نَجْـمَ الهُدَى فِي أَوْجِ أُفْقِ صَوَابِ

يَا مَنْ بِفَقْـدِ حَيَاتِهِ وَوُجُـــودِهِ أَمْسَتْ قُصُورُ الفَضْلِ شَرَّ يَبَابِ

يُرْجَى لَهُ عِنْدَ الإِلَهِ بِطُـــوْلِ مَا خَدَمَ الوَرَى زُلْفَى وَحُسْـنُ مَآبِ

يَا رَبِّ رَوِّحْ رُوْحَهُ بِسَعَــــادَةٍ وَكَرَامَـــــــةٍ فِي جَنَّةٍ وَثَوَابِ [1]

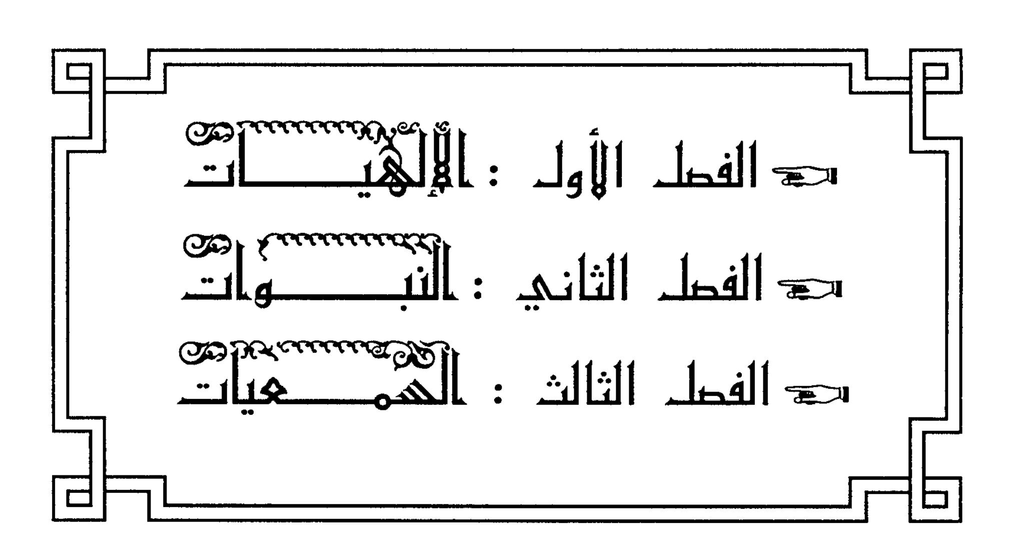
---

(١) انظر العقد المنظوم ص : (٤٥٣ ، ٤٥٤) .



الباب الثاني

آراؤه الاعتقادية



الفصل الأول

الإلهيـــــــــات

- المبحث الأول : الأسماء والصفات والإخبار عن الله
- المبحث الثاني : الرؤيـــــة .
- المبحث الثالث : الإيمـــــان .
- المبحث الرابع : أفعال الله تعالى .

المبحث الأول

الأسماء والصفات والإخبار عن الله

يتناول هذا المبحث بيان عقيدة أبي السعود في الأسماء والصفات والإخبار عن الله تعالى ، والكشف عن مدى تأثّره بغيره ، وهل هو على مذهب السَّلف الصَّالح في الأسماء والصفات ؟ أو يميل إلى رأي أئمة الكلام كالأشعرية والماتُرِيْدِيَّة ؟

وهل سار على طريقة المؤوِّلة في صفات الله تعالى ؟ أو نهج منهج المثبتين في الصفات ؟

هذا ماسأبيّنه - إن شاء الله تعالى - في هذا المبحث من خلال ما يأتي :

أولاً :

ما أثبته في باب الأسماء والصفات والإخبار عن الله تعالى .

ثانياً :

ما أوّله في باب الأسماء والصفات والإخبار عن الله تعالى .

أولاً : ما أثبته في باب الأسماء والصفات والإخبــــار عن الله تعالى

أسماء الله تعالى

العرض :

أثبت أبو السعود جميع أسماء الله تعـالى ، وأثبت معـانيها ، إلا في بعض ما نقله من أقوال تدلّ على تأويلاتٍ في بعضها ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

وقد بيّن معنى أسماء الله الحسنى ، وأنواع الإلحـاد فيهـا ، فقـال في تفسير قوله تعـالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوْهُ بِهَـا وَذَرُوا الَّذِيْنَ يُلْحِدُوْنَ فِي أَسْمَـائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1] :

« والحسنى [تأنيث][2] الأحسـن ، أي : الأسماء التي هي أحسـن الأسماء وأجلّها ؛ لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها ... فالمراد بالأسماء : أسماؤه تعالى حقيقة »[3] .

وقال أيضـاً : « وكونهـا حُسْنى لدلالتهـا على صفات الكمـال من

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : (١٨٠) .

(٢) في النصّ : « تأثيث » ، والصّواب ما أثبته .

(٣) إرشاد العقل السليم : (٢٩٦/٣) .

الجلالة والجمال والإكرام »[1] .

وأما عن الإلحاد في أسمائه تعالى ، فقد بيّن ذلك قائلاً :

« الإلحاد ، واللّحد : الميل والانحراف ، يقال : لحد ، وألحد ؛ إذا مال عن القصد . وقرىء : يلحدون من الثلاثي ، أي : يميلون في شأنها عن الحقِ إلى الباطل إما بأن يُسمّوه تعالى بما لا توقيف فيه .

أو بما يوهم معنى فاسداً، كما في قول أهل البدو: يا أبا المكارم ، يا أبيض الوجه ، [يا سخي][2] ، ونحو ذلك ، فالمراد بالترك المأمور به : الاجتناب عن ذلك ، وبأسمائه ما أطلقوه عليه تعالى ، وسمّوه به ، على زعمهم ، لاأسماؤه تعالى حقيقة ، وعلى ذلك يحمل ترك الإضمار بأَنْ يُقال : يلحدون فيها .

وإما بأَنْ يعدلوا عن تسميته تعالى ببعض أسمائه الكريمة، كما قالوا : وما الرحمٰن ، ما نعرف سوى رحمٰن اليمامة ، فالمراد بالترك الاجتناب أيضاً ، وبالأسماء أسماؤه تعالى حقيقة ، فالمعنى : سمّوه تعالى بجميع أسمائه الحسنى ، واجتنبوا إخراج بعضها من البين .

وإما بأَنْ يطلقوها على غيره تعالى ، كما سمّوا أصنامهم آلهة .

وإما بأَنْ يشتقّوا من بعضها أسماء أصنامهم ، كما اشتقُّوا اللاّت من اللهِ تعالى ، والعُزّى من العزيز .

---

(١) إرشاد العقل السليم : (٢٠/٥) .

(٢) في النصّ : « يا بخى » ، والصواب ما أثبته .

فالمراد بالأسماء : أسماؤه تعالى حقيقة ، كما في الوجه الثاني ، والإظهار في موقع الإضمار مع التجريد عن الوصف في الكل للإيذان بأنَّ إلحادهم في نفس الأسماء ، من غير اعتبار الوصف ، وليس المراد بالتَّرك حينئذٍ الاجتناب عن ذلك ، إذْ لا يتوهم صدور مثل هذا الإلحاد عن المؤمنين ، ليؤمروا بتركه ، بل هو الإعراض عنهم ، وعدم المبالاة بما فعلوا ترقّباً لنزول العقوبة بهم عن قريب »[1] .

فمِنْ تلك الأسماء : (الأول) وأبدأ به مراعاة لحُسْن الاستهلال ، والباقي مرتباً على حروف الهجاء :

الأَوَّلُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ ﴾ [2] :

« هو السَّابق على سائر الموجودات ، لما أنه مبدؤها ومبدعها »[3] .

الآخِرُ

قال أبو السعود في تفسير الآية السابقة أيضاً :

« الآخر : الباقي بعد فنائها حقيقة ، أو نظر إلى ذاتها مع قطع النظر عن مبقيها ، فإنَّ جميع الموجودات الممكنة إذا قطع النظر

(١) إرشاد العقل السليم : (٣/٢٩٦) .

(٢) سورة الحديد ، الآية : (٣) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (٨/٢٠٣) .

عن عِلّتها فهي فانية »[1] .

الأَحَـــدُ

قال أبو السعـــــود في تفسير قوله تعـــــالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَـــدٌ ﴾[2] :

« همزة أحـــــد مبدلة من الواو ، وأصله وحـــد ، لا كهمزة ما يلازم النّفي ويُراد به العموم ...

وقال مَكّي[3] : أصل أحد واحد ، فأبدلت الواو همـزة ، فاجتمع ألفان ؛ لأنَّ الهمزة تشبه الألف ، فحُذفت إحداهما تخفيفاً .

وقال ثعلب[4] : إنّ [أحـــداً لا يبنى][5] عليه العـدد ابتـداءً ، فلا يُقال : أحد واثنان ، كما يُقال واحد واثنان ، ولا يُقال رجل أحد كما يُقال رجل واحد ، ولذلك اختص به تعالى »[6] .

---

(١) إرشاد العقل السليم : (٢٠٣/٨) .

(٢) سورة الإخلاص ، الآية : (١) .

(٣) هو مكي بن أبي طالب بن محمد القيسي ، أبو محمد . مقـرىء عالم بالتفسير والعـربية ، من أهل القيروان . صنّف أكثر من ثمانين مصنَّفاً . مات سنة (٤٣٧ هـ) . انظر سير أعلام النبلاء : (٥٩١/١٧) ، وغاية النهاية في طبقات القراء للجزري : (٣٠٩/٢) .

(٤) هو أحمد بن يحيى بن زيد بن سيّار الشيباني ، أبو العباس ، المعروف بثَعلَب . إمام الكوفيين في النحو واللغة . مات سنة (٢٩١ هـ) . انظر سير أعلام النبلاء : (١٤/ ٥) ، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروز ابادي ص : (٦٥) .

(٥) في طبعة دار إحياء التراث العربي بلفظ : « إن أحد إلا يبنى » ، والتصحيح من طبعة دار الفكر : (٩١٢/٥) .

(٦) إرشاد العقل السليم : (٢١٢/٩) .

الأَعْـــلَى

قال أبو السعـــود في تفسير قوله تعـــالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾[1] :

« الأعلى : إما صفة للربِّ وهو الأظهر، أو للاسم »[2] .

الأَكْـرَمُ

قال أبو السعـــــود في تفسير قول الله تعـــالى : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾[3] :

« وربّك الذي أمرك بالقراءة مبتدئاً باسمه هو الأكرم »[4] .

الإِلَـــٰهُ

قال أبو السعود عند تفسير لفظ الجلالة في البسملة :

« الإله في الأصـــل اسم جنس يقع على كلّ معبـــود بحق أو باطل ، أي مع قطع النَّظـر عن وصفـــ الحقِّيـَّة والبطلان ، لا مع اعتبـــار أحدهما لا بعينه ، ثم غلب على المعبود بالحق »[5] .

---

(١) سورة الأعلى ، الآية : (١) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١٤٣/٩) .

(٣) سورة العلق ، الآية : (٣) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (١٧٨/٩) .

(٥) إرشاد العقل السليم : (١٠/١) .

الْبَـــارِئُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿هُوَ الخَالِقُ البَارِئُ﴾[1] :

« البارئ : الموجد لها بريئاً من التفاوت ، وقيل : المميّز بعضها من بعض بالأشكال المختلفة »[2] .

وقال عند قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾[3] :

« أي : إلى مَن خَلَقكم بريئاً من العيوب والنّقصان والتّفاوت ، وميّز بعضكم من بعض بصور وهيئات مختلفة ، وأصل التركيب الخلوص عن الغير إما بطريق [التقصّي][4] كما في : برئ المريض ، أو بطريق الإنشاء كما في : برأ اللّٰه آدم من الطين ، والتعرّض لعنوان البارئية للإشعار بأنهم بَلَغوا من الجهالة أقصاها ، ومن الغواية منتهاها ، حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذي خَلَقهم بلطيف حكمته بريئاً من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقر الذي هو مثل في الغباوة ، وأَنَّ مَنْ لم يعرف حقوق مُنْعِمِه حقيق بأَنْ تسترد هي منه ، ولذلك أمروا بالقتل وفكّ التركيب »[5] .

---

(١) سورة الحشر ، الآية : (٢٤) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٨/٢٣٤) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (٥٤) .

(٤) في الطبعتين من إرشاد العقل السليم : « التّفصّي » بالفاء ، والمثبت كما في أنوار التنزيل : (١/٦٢) .

(٥) إرشاد العقل السليم : (١/١٠٢) .

الْبَاسِــطُ

الباسط اسم من أسمائه سبحانه وتعالى ، ويوصف اللَّهُ عزَّ وجلَّ بالبسط ، وتوصف يده بالبسط ، وهي صفة فعلية .

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ ﴾[1] :

« أي : يقتر على بعض ، ويوسّع على بعض ، أو يقتر تارة ، ويوسّع أخرى ، حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحِكَم والمصالح ، فلا تبخلوا عليه بما وسَّع عليكم كي لا يبدِّل أحوالكم »[2] .

الْبَاطِــنُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـالى : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ ﴾[3] :

« والبـاطن حقيقـة ، فلا تحوم حوله العقول ، والواو الأولى والأخيرة للجمع بين الوصفين المكتنفين بهمـا ، والوسطى للجمع بين المجموعين ، فهو متصف باستمرار الوجود في جميع الأوقات

(١) سورة البقرة ، الآية : (٢٤٥) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٢٣٨/١) .

(٣) سورة الحديد ، الآية (٣) .

والظهور والخفاء »[1] .

البَـرُّ

قال أبو السعود في تفسير قول الله تعـــالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيْمُ ﴾[2] :

« إنّه هو البرّ : المحســن ، الرحيم : الكثير الرحمــة الذي إذا عُبِد أثاب ، وإذا سُئل أجاب »[3] .

الْبَصِــيْرُ

قال أبو السعـــود في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بَصِــــيْرٌ بِمَا يَعْمَلُوْنَ ﴾[4] :

« أي : عليم بخفيات أعمالهم ، فهو مجازيهم لا محالة »[5] .

---

(١) إرشاد العقل السليم : (٢٠٤/٨) .

(٢) سورة الطور ، الآية : (٢٨) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (١٥٠/٨) .

(٤) سورة البقرة ، الآية : (٩٦) .

(٥) إرشاد العقل السليم : (١٣٣/١ ، ١٦/٢) .

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيْرٌ ﴾ [1] :

« بصير : لا يخفى عليه شيء »[2] .

التَّــوَّابُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعــالى : ﴿ إِ نَّهُ هُوَ التَّــــوَّابُ الرَّحِيْمُ ﴾ [3] :

« إنَّه هو التَّواب ، أي : الرَّجاع على عباده بالمغفـرة ، أو الذي يكثر إعانتهم على التَّوبة ، وأصــــل التَّوب : الرجوع ، فإذا وصف به العبـد كان رجوعاً عن المعصية ، وإذا وصف به البـاري عزَّ وعلا أُريد به الرجوع عن العقاب إلى المغفرة »[4] .

الحَافِــظُ

الحــافظ والحفيظ مـن أسماء اللَّه تعـالى ، والحفظ صفــة مـن صفـاته ، قال أبو السعود في تفسير قوله تعــالى : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ

(١) سورة البقرة ، الآية : (٢٦٥) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١/٢٦٠) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (٣٧) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (١/٩٢) .

شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [1] :

« أي : رقيب مهيمن ، فلا تخفى عليه أعمالكم ، فيجازيكم بحسبها ، أو حافظ مستولٍ على كلّ شيءٍ ، فكيف يضرُّه شيءٌ وهو الحافظ للكلّ ؟ »[2] .

الْحَسِيبُ

قال أبو السعود في تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً ﴾ [3] :

« أي : محاسباً ، فلا تخالفوا ما أمركم به ، ولا تجاوزوا ما حدّ لكم »[4] .

الْحَقُّ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ

---

(1) سورة هود ، الآية : (57) .

(2) إرشاد العقل السليم : (219/4) .

(3) سورة النساء ، الآية : (6) .

(4) إرشاد العقل السليم : (146/2) وبنحوه في : (211/2 ، 106/7) .

الْحَقُّ ﴾[1] :

« والمراد بالحقِّ هو الثَّـــابت الذي يحقُّ ثبوتـه لا محالة ، لكونه لذاته لا الثابت مطلقاً ، وذلك إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان على أطوار مختلفة ، وتصريفه في أحوال متباينة ، وإحياء الأرض بعد موتها ، وما فيـه من معنى البعـــد للإيذان ببعد منزلته في الكمال ... إنه تعالى هو الحق وحـــده في ذاته وصفاته وأفعاله ، المحقق لما سواه من الأشياء »[2] .

الحَـــكَمُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِيْ حَكَماً وَهُوَ الَّذِيْ أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾[3] :

« الحَـــكَم أبلغ مـن الحاكم ، وأدلّ على الرسوخ ؛ لما أنه لا يطلق إلا على العـــــادل ، وعلى من تكرر منه الحكم بخلاف الحاكم »[4] .

(١) سورة الحج ، الآية : (٦) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٦/٩٥ - ١٦٧) .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : (١١٤) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٣/١٧٧) .

الحَكِيْمُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيْمُ الحَكِيْمُ ﴾ [1] :

« الحكيم ، أي : المُحْكِم لمصنوعاته الفاعل لها حسبما تقتضيه الحِكْمة والمصلحة ... الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه المصلحة » [2] .

وقال في معناه أيضاً : « المحيط بالمعلومات ، لا أحد يشاركه في القدرة والحِكمة » [3] .

وقال : « تنطوي شرائعه على الحِكَم والمصالح » [4] .

الحَلِيْمُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيْمٌ﴾ [5] :

« لا يعاجل أصحاب المنّ والأذى بالعقوبة » [6] .

وقال أيضاً : « لا يعاجل بالعقوبة ، فلا يغتر بالإمهال » [7] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (٣٢) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١/٨٥) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (٢/٤٧) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (١/٢٢٦) .

(٥) سورة البقرة ، الآية : (٢٦٣) .

(٦) إرشاد العقل السليم : (١/٢٥٨) .

(٧) إرشاد العقل السليم : (٢/١٥٣) وانظر أيضاً : (١/٢٣٣) .

الْحَمِيْـــدُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـــالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّه غَنِيٌّ حَمِيْـــدٌ ﴾ [1] :

« مستحق للحَمد على نِعمه العِظام . وقيل : حامد بقبول الجيّدِ والإثابة عليه » [2] .

الْحَــــيُّ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوْمُ ﴾ [3] :

« الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء » [4] .

الْخَـــالِقُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ﴾ [5] :

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (٢٦٧) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٢٦١/١) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (٢٥٥) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٢٤٧/١ ، ٢/٢) .

(٥) سورة الحشر ، الآية : (٢٤) .

« الخالق : المقدّر للأشياء على مقتضى حكمته »[1] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَـــالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيْل ﴾ [2] :

« الله خالق كلّ شيءٍ من خـــيرٍ وشــرٍّ وإيمانٍ وكفـرٍ ، لكن لا بالجبر ، بل بمباشرة الكاسب[3] لأسبابها »[4] .

الخَبِـــيْرُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـالى : ﴿ وَاللَّهُ خَبِـــــــيْرٌ بِماَ تَعْمَلُوْنَ ﴾ [5] :

« أي : عالم بأعمالكم ، وبما قصدتم بها »[6] .

الخَــلاَّقُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـــالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَـلاَّقُ

---

(١) إرشاد العقل السليم : (٨/٢٣٤) .

(٢) سورة الزمر ، الآية : (٦٢) .

(٣) انظر الكلام حول مسألة الكسب في المبحث الرابع من هذه الرسالة ص : (٤١٧) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٧/٢٦١) .

(٥) سورة آل عمران ، الآية : (١٥٣) .

(٦) إرشاد العقل السليم : (٢/١٠٠) .

الْعَلِيْمُ ﴾ [1] :

« هو الخَلَّاق لك ولهم ولسائر الموجودات على الإطلاق »[2] .

الـــرَّؤُوف

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيْمٌ ﴾ [3] :

« وأنَّ اللَّه رؤوف رحيم عطف على فضـــل اللَّه ، وإظهـــار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار باستتباع صفة الألوهيّة للرأفة والرَّحمة. وتغيير سبكه وتصديره بحرف التَّحقيق لما أن بيان اتصافه تعالى في ذاته بالرأفة التي هي كمال الرحمة والرحيمية التي هي المبالغة فيها على الدَّوام والاستمرار ، لا بيان حدوث تعلّق رأفته ورحمته بهم »[4] .

الــــرَّبُّ

قال أبو السعود في تفسير قول الله تعـــــالى : ﴿ الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ

(١) سورة الحجر ، الآية : (٨٦) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٥/٨٨) .

(٣) سورة النور ، الآية : (٢٠) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٦/١٦٤) .

الْعَالَمِيْنَ ﴾[1] :

« الرَّبُّ في الأصل مصدر بمعنى التربية ، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً ...

وقيل : صفة مشبهة من ربه يربه مثل نمه ينمه ... ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيداً كربِّ الدار وربِّ الدَّابة »[2] .

الرَّحْمَـٰنُ

قال أبو السعـــود في تفسير قوله تعـــالى : ﴿ وَهُمْ يَكْفُـرُوْنَ بِالرَّحْمَنِ ﴾[3] :

« البليغ الرَّحمة ، الذي وسعت كلّ شيء رحمتـه ، وأحاطت به نعمته »[4] .

وقال أيضاً : « فوصفه بالرحمانيَّة إثر وصفه بخالقيَّة السمٰوات والأرض للإشعار بأنَّ خَلْقهما من آثـار رحمته تعالى ، كما أن قوله تعالى : ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ ﴾[5] للإيذان بأن ربوبيّته تعالى بطريق الرّحمة ، وفيه إشارة إلى أنّ تنزيل القرآن أيضاً من أحكام رحمتـه تعالى ، كما ينبىء عنـه قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَـٰنُ عَلَّمَ

(١) سورة الفاتحة ، الآية : (٢) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١٣/١) وبنحوه في : (٢١/٥) .

(٣) سورة الرعد ، الآية : (٣٠) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٢١/٥) .

(٥) سورة النبأ ، الآية : (٣٧) .

الْقُرْآن ﴾[1] ... »[2] .

الـرَّحِيمُ

قال أبو السعـــود في تفسير قوله تعــالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيْمُ ﴾ [3] :

« الرحيم : المبالغ في الرحمة »[4] .

الـرَّزَّاقُ

قال أبو السعود عنـد تفسير قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُـوَّةِ المَتِيْن ﴾ [5] :

« الذي يرزق كل مـا يفتقـــر إلى الرزق ، وفيـه تلويح بأنه غني عنه »[6] .

---

(1) سورة الرحمن ، الآية : (1) .

(2) إرشاد العقل السليم : (5/6) .

(3) سورة البقرة ، الآية : (37) .

(4) إرشاد العقل السليم : (1/92 ، 2/168) .

(5) سورة الذاريات ، الآية : (58) .

(6) إرشاد العقل السليم : (8/145) .

الـرَّقِيْبُ

قال أبو السعود في تفسير قول الله تعـالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيْباً ﴾ [(١)] :

« أي مراقباً ، وهي صيغة مِن رقب يرقب رقباً ورقوباً ورقباناً إذا أَحَدّ النَّظر لأمرٍ يريـــد تحقيقه ، أي : حافظـاً مطلعاً على جميع مـا يصـدر عنكم مـن الأفعـال والأقـوال ، وعلى مـا في ضمائركم مـن النِّيـات ، مريـداً لمجازاتكم بذلك ، وهو تعليـل للأمـر ووجوب الامتثال به »[(٢)] .

السَّـلامُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [(٣)] :

« ذو السَّلامة من كلِّ نقص وآفة »[(٤)].

---

(١) سورة النساء ، الآية : (١) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١٣٩/٢) .

(٣) سورة الحشر ، الآية : (٢٣) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٢٣٤/٨) .

السَّمِيْعُ

قال أبو السعود في تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ السَّمِيْعُ العَلِيْمُ ﴾[1] :

« السَّميع : المبالغ في سماع كل مسموع »[2] .

الشَّاكِرُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيْمٌ ﴾[3] :

« أي : مُجازٍ على الطاعة ، عبّر عن ذلك بالشكر مبالغة في الإحسان إلى العباد »[4] .

الشَّكُوْرُ

قال أبو السعود في تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَاللّهُ شَكُورُ

(١) سورة الأنعام ، الآية : (١٣) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١١٦/٣) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (١٥٨) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (١٨١/١) .

حَلِيْمٌ ﴾ [1] :

« يعطي الجزيل بمقابلة النَّزر اليسير »[2] .

وقال أيضاً : « الشُّكر من الله سبحانه هو الرضا باليسير من طاعة عباده ، وأضعاف الثواب بمقابلته »[3] .

الشَّهِيْدُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَالَّذِيْنَ هَادُوا وَالصَّابِئِيْنَ وَالنَّصَارَى وَالمَجُوسَ وَالَّذِيْنَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيْدٌ ﴾ [4] :

« أي : عالم بكل شيء من الأشياء ، ومراقب لأحواله ، ومن قضيته الإحاطة بتفاصيل ما صدر عن كلّ فرد من أفراد الفِرَق المذكورة وإجراء جزائه اللائق به عليه »[5] .

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُوْنَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللَّهُ شَهِيْدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُوْنَ ﴾ [6] :

« إنه تعالى مبالغ في الاطلاع على جميع أعمالكم ، وفي

(١) سورة التغابن ، الآية : (١٧) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٨/٢٥٩) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (٢/٢٤٧) .

(٤) سورة الحج ، الآية : (١٧) .

(٥) إرشاد العقل السليم : (٦/١٠٠) .

(٦) سورة آل عمران ، الآية : (٩٨) .

مجازاتكم عليها ، ولا ريب في أنَّ ذلك يسدُّ جميع أنحاء ما تأتونه ، ويقطع أسبابه بالكليَّة »[1] .

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِيْ نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيْدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُوْنَ ﴾[2] :

« والمراد بالشهادة إما مقتضاها ونتيجتها ؛ وهي معاقبته إياهم ، وإما إقامتها وأداؤها بإنطاق الجوارح »[3] .

الصَّمَـدُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾[4] :

« الصَّمد فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده ، أي : هو السَّيِّد المصمود إليه في الحوائج المستغني بذاته ، وكلّ ما عداه محتاج إليه في جميع جهاته .

وقيل الصمد : الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال .

وقيل : الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد »[5] .

---

(١) إرشاد العقل السليم : (٢/٦٣) .

(٢) سورة يونس ، الآية : (٤٦) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (٤/١٥١) .

(٤) سورة الإخلاص ، الآيتان : (١ ، ٢) .

(٥) إرشاد العقل السليم : (٩/٢١٢) .

الظَّاهِرُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ ﴾ [1] :

« الظاهر وجوداً لكثرة دلائله الواضحة » [2] .

العَزِيْزُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيْزُ الحَكِيْمُ ﴾ [3] :

« العزيز الذي لا يُقهر ولا يُغلب على ما يريد » [4] .

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ ﴾ [5] :

« عزيز : غالب على أمره يمضيه كيف يشاء من غير ندٍّ ينازعه ، ولا ضدٍّ يمانعه » [6] .

العَظِيْمُ

قال أبو السعود في تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ

---

(١) سورة الحديد ، الآية : (٣) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٨/٢٠٣ – ٢٠٤) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (١٢٩) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (١/١٦٢) .

(٥) سورة المائدة ، الآية : (٣٨) .

(٦) إرشاد العقل السليم : (٣/٣٥) .

الْعَظِيْمُ ﴾ [1] :

« العظيــم الذي يستحقر بالنسبــة إليــه كلّ ما سواه » [2] .

الْعَــفُوُّ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـــالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوْراً ﴾ [3] :

« يعفو عن الخاطئين ويغفر للمذنبين » [4] .

الْعَــلِيُّ

قال أبو السعــود في تفسير قوله تعـــالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّـاً كَبِيْراً ﴾ [5] :

« إِنَّه تعـالى على علوّ شـأنه يتجاوز عن سيّئـاتكم ويتوب عليكم عند توبتكم ... أو أَنَّه يتعالى ويكبر أن يظلم أحداً أو ينقص حقَّه» [6] .

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَــلِيُّ الْعَظِيْمُ ﴾ [7] :

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (٢٥٥) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١/٢٤٩) .

(٣) سورة النساء ، الآية : (٤٣) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٢/١٨١) .

(٥) سورة النساء ، الآية : (٣٤) .

(٦) إرشاد العقل السليم : (٢/١٧٤) .

(٧) سورة البقرة ، الآية : (٢٥٥) .

« المتعـالي بذاته عن الأشباه والأنداد »[1] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَـلِيِّ الْكَبِيْرِ ﴾ [2] :
« العَـلـيّ الكبير الذي ليس كمثله شيء في ذاتـــه ، ولا في صفاته ولا في أفعاله ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا مُعَقِّب لحُكْمِه »[3] .

الْعَلِيْـمُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـالى : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْـلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ ﴾ [4] :
« المبـالغ في العلم بكلّ معلوم ، فلا يخفى عليـه شيء مـن الأقوال والأفعال »[5] .

الغَفَّـارُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـــالى : ﴿ وَسَخَّـرَ الشَّمْـسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيْ لأجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيْزُ الْغَفَّـــارُ ﴾ [6] :

(١) إرشاد العقل السليم : (٢٤٨/١) .
(٢) سورة غافر ، الآية : (١٢) .
(٣) إرشاد العقل السليم : (٢٧٠/٧) .
(٤) سورة الأنعام ، الآية : (١٣) .
(٥) إرشاد العقل السليم : (١١٦/٣)، وانظر منه : (٨٥/١ ، ١٥٠ ، ١٦٨ ، ١٨١ ، ٢٦٢).
(٦) سورة الزمر ، الآية : (٥) .

« الغَفَّار المبالغ في المغفرة ، ولذلك لا يعاجل بالعقوبة »[1] .

الغَفُـوْرُ

قال أبو السعود في تفسير قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ غَفُوْرٌ ﴾[2] :

« غفور للتَّائب عن عصيانه »[3] .

الغَـــنِيُّ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾[4] :

« أي : هو المعروف بالغنى عن كلِّ ما سواه كائناً من كان وما كان ، فيدخل فيه غناه عن العباد وعن عبادتهم »[5] .

---

(١) إرشاد العقل السليم : (٢٤٢/٧) .

(٢) سورة فاطر ، الآية : (٢٨) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (١٥١/٧) . وبنحوه في (١٣٨/٩) : «الغفور لمن تاب وآمن» .

(٤) سورة الأنعام ، الآية : (١٣٣) .

(٥) إرشاد العقل السليم : (١٨٧/٣) ، وانظر : (٢٥٨/١ ، ٢٦١) .

الفَتَّـــاحُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـالى : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّـــاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [١] :

« الحاكم الفيصل في القضايا المنغلقة »[٢] .

القَــادِرُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيـــــرٌ ﴾ [٣] :

« القـادر هو الذي إِنْ شـاء فعـل ، وإِنْ لم يشـأ لم يفعـل ... ومعنى قدرته تعالى على الممكن الموجود حال وجوده : أنه إن شاء إبقاءه على الوجود أبقاه عليه ؛ فإنَّ عِلَّة الوجود هي علَّة البقـاء ... وإِنْ شاء إعدامه أعدمه ، ومعنى قدرته على المعدوم حال عدمه أنَّه إِنْ شاء إيجاده أوجده ، وإِنْ لم يشأ لم يوجده .

وقيل قـــدرة الإنسان هيئة بها يتمكن من الفعل والترك ، وقدرة اللَّه تعالى عبارة عن نفي العجز ، واشتقاق القـدرة من القدر ؛ لأنَّ القـادر يوقع الفعل بقدر مـا تقتضيه إرادته ، أو بقـدر قوته ، وفيـه دليل على أنَّ مقدور العبد مقدور للَّه تعالى حقيقة ؛ لأنَّه شيء ، وكلُّ

(١) سورة سبأ ، الآية : (٢٦) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١٣٣/٧) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (٢٠) .

شيء مقدور له تعالى »[1] .

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] :

« إنَّ كونه تعالى قادراً على الكل بحيث لا يشذّ من ملكوته شيء مِن الأشياء يستدعي كون ما سواه كائناً ما كان مقدوراً له ، ومِن ضرورته اختصاص القدرة به تعالى واستحالة أنْ يشاركه شيء مِن الأشياء في القدرة على شيء من الأشياء فضلاً عن المشاركة في ملكوت السَّموات والأرض ... فإنَّ شمول القدرة لجميع الأشياء من أحكام الألوهية »[3] .

القَــاهِرُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعــالى : ﴿ وَهُوَ الْقَــاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾[4] :

« أي : هو المتصرِّف في أمورهم لا غيره ، يفعــل بهم ما يشــاء إيجــاداً وإعدامــاً وإماتة وتعذيباً وإثابــة إلى غير ذلك »[5] .

وقال أيضاً عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ

---

(١) إرشاد العقل السليم : (٥٧/١) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : (١٨٩) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (١٢٧/٢) .

(٤) سورة الأنعام ، الآية : (٦١) .

(٥) إرشاد العقل السليم : (١٤٤/٣) .

﴿ وَهُوَ الْحَكِيْمُ الْخَبِيْرُ ﴾[1] :

« تصوير لقهره وعلّوه بالغلبة والقدرة »[2] .

القُــدُّوْس

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِيْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوْسُ ﴾[3] :

« القدوس : البليغ في النَّزاهة عما يوجب نقصاناً »[4] .

القَــدِيْرُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ﴾[5] :

« القدير هو الفعَّال لكل ما يشاء كما يشاء ، ولذلك لم يوصف به غير الباري جلَّ جلاله »[6] .

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ

(١) سورة الأنعام ، الآية : (١٨) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١١٧/٣) .

(٣) سورة الحشر ، الآية : (٢٣) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٢٣٣/٨) .

(٥) سورة البقرة ، الآية : (٢٠) .

(٦) إرشاد العقل السليم : (٥٧/١) .

اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ﴾ [1] : « قدير لا يستعصي عليه أمر من الأمور » [2] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيْهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ﴾ [3] :

« قدير : مبالغ في القدرة » [4] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ﴾ [5] :

« القدرة عبارة عن التَّمكن من الإيجاد والإعدام الخاصين به . وقيل : هي صفة تقتضي ذلك التَّمكن » [6] .

القَـــرِيْبُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِيْ عَنِّيْ فَإِنِّي قَرِيْبٌ أُجِيْبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [7] :

« فإنِّي قريب ، أي : فقل لهم إني قريب ، وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على أحوالهم » [8] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (٢٥٩) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١/٢٥٥) .

(٣) سورة المائدة ، الآية : (١٢٠) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٣/١٠٣) .

(٥) سورة البقرة ، الآية : (٢٠) .

(٦) إرشاد العقل السليم : (١/٥٧) .

(٧) سورة البقرة ، الآية : (١٨٦) .

(٨) إرشاد العقل السليم : (١/٢٠٠) .

الْقَهَّارُ

قال أبو السعود في تفسير قول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [1] :

« القهّار : الغالب الذي لا يغالبه أحد »[2] .

الْقَوِيُّ

قال أبو السعود في تفسير قول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ [3] :

« القوي : الباهر القدرة الغالب على كل شيء »[4] .

الْقَيُّومُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [5] :

« القَيُّوم فيْعُول من قام بالأمر إذا حفظه ، أي : دائم

---

(١) سورة يوسف ، الآية : (٣٩) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٢٧٨/٤) .

(٣) سورة الشورى ، الآية : (١٩) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٢٩/٨) .

(٥) سورة البقرة ، الآية : (٢٥٥) .

القيام بتدبير الخَلْق وحفظه .

وقيل : هو القائم بذاته المقيم لغيره »[1] .

الْكَبِيْرُ

قال أبو السعود في تفسير قول الله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيْرُ الْمُتَعَال ﴾[2] :

« العظيم الشَّأن الذي كلّ شيءٍ دونه »[3] .

اللَّطِيْفُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَطِيْفُ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيْزُ ﴾[4] :

« أي : برّ بليغ البرّ بهم يفيض عليهم من فنون ألطافه ما لا يكاد يناله أيدي الأفكار والظّنون »[5] .

(١) إرشاد العقل السليم : (٢٤٧/١ - ٢٤٨) ، وانظر منه أيضاً : (٢/٢) .

(٢) سورة الرعد ، الآية : (٩) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (٨/٥) .

(٤) سورة الشورى ، الآية : (١٩) .

(٥) إرشاد العقل السليم : (٢٩/٨) .

اللَّهُ

قال أبو السعود في تفسير لفظ الجلالة في البسملة [1] :

« اللَّه أصله الإله ، فحُذفت همزته على غير قياس ، كما ينبئ عنه وجوب الإدغام وتعويض الألف واللام عنها حيث لزماه وجرّدا عن معنى التعريف ، ولذلك قيل ياالله بالقطع ، فإنّ المحذوف القياسي في حكم الثابت فلا يحتاج إلى التّدارك بما ذكر من الإدغام والتعويض .

وقيل : على قياس تخفيف الهمزة ، فيكون الإدغام والتعويض من خواص الاسم الجليل ؛ ليمتاز بذلك عما عداه امتياز مسماه عما سواه بما لا يوجد فيه من نعوت الكمال .

وأما « اللَّه » بحذف الهمزة فعَلَم مختص بالمعبود بالحق لم يطلق على غيره أصلاً ، واشتقاقه من الإِلَـٰهَةِ والأُلُوْهَـةِ والأُلُوْهِيَّـةِ بمعنى العبادة[2] .

وقيل : اشتقاقه من أَلِهَ بمعنى تحيّر ؛ لأنه سبحانه يحار في شأنه العقول والأفهام[3] .

---

(١) سورة الفاتحة ، الآية : (١) .

(٢) كذا ، وفي أنوار التنزيل (٦/١) قوله : « واشتقاقه من أله ألهة وألوهة وألوهية بمعنى عبد » .

(٣) لعلّه يقصد بالتحيّر في شأنه سبحانه : العجز عن إدراك كُنهه جلّ جلاله ، كما قال الإمام الخطابي في كتابه شأن الدعاء ص : (٣٢-٣٣) : « وقال بعضهم : أصله من أَلِهَ الرَّجل يَأْلَهُ ؛ إذا تحيَّر ، وذلك لأن القلوب تَأْلَهُ عند التفكر في عظمة الله سبحانه ، أي : يَتَحَيَّرُ ويعجز عن بلوغ كُنْهِ جلاله » .

وأما أله كعبد وزناً ومعنى ، فمشتقّ من الإله المشتق من إله بالكسر ، وكذا تأله واستأله اشتقاق استنوق واستحجر من الناقة والحجر .

وقيل : من أله إلى فلان ، أي : سكن إليه لاطمئنان القلوب بذكره تعالى وسكون الأرواح إلى معرفته .

وقيل : أله إذا فزع من أمر نزل به وآلهه غيره إذا أجاره ، إذ العائذ به تعالى يفزع إليه ، وهو يجيره حقيقة ، أو في زعمه .

وقيل : أصله لاه على أنه مصدر من لاه يليه بمعنى احتجب وارتفع أطلق على الفاعل مبالغة .

وقيل : هو اسم علم للذات الجليل ابتداء وعليه مدار أمر التوحيد في قولنا : لا إله إلا الله ، ولا يخفى أن اختصاص الاسم الجليل بذاته سبحانه بحيث لا يمكن إطلاقه على غيره أصلاً كافٍ في ذلك ، ولا يقدح فيه كون ذلك الاختصاص بطريق الغلبة بعد أن كان اسم جنس في الأصل .

وقيل : هو وصف في الأصل ، لكنه لما غلب عليه بحيث لا يطلق على غيره أصلاً صار كالعلم ، ويرده امتناع الوصف به .

واعلم أن المراد [بالنكرة][1] في كلمة التوحيد هو المعبود بالحق ، فمعناها : [لا فرد][2] من أفراد المعبود بالحق إلا ذلك المعبود بالحق .

وقيل : أصله « لا ها » بالسريانية ، فعرب بحذف الألف الثانية »[3] .

المُـؤَخِّرُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [4] :

« إنما يؤخِّرهم : يمهلهم متمتعين بالحظوظ الدّنيويّة ، ولا يعجل عقوبتهم حسبما يشاهد ، وهو استئناف وقع تعليلاً للنهي السّابق ، أي : دُمْ على ما كنت عليه من عدم حسبانه تعالى غافلاً عن أعمالهم ، ولا تحزن بتأخير ما تستوجبه من العذاب الأليم ، إذ تأخيره للتّشديد والتّغليظ ، أو لا تحسبنّه تعالى تاركاً لعقوبتهم ، لما ترى من تأخيرها ، إنما ذلك لأجل هذا ، أو لا تحسبنّه تعالى يعاملهم معاملة الغافل

---

(١) في الطبعتين من إرشاد العقل السليم وغيرهما : « واعلم أن المراد بالمنكر » ، والصحيح ما أثبته ؛ لأن المقصود بالنكرة : كلمة « إلٰه »، وأما كلمة المنكر فلا معنى لها ، وقد ذكر الإمام الزركشي أن النكرة بعد « لا » لنفي العام ، فتفيد نفي كل آلهة ، و « إلاّ » بعدها لإثبات ضده وهو ثبوت الإلهية لله تعالى . انظر معنى لا إلٰه إلا الله للزركشي ص : (٨٧- ٨٨) .

(٢) في النص : « لا فراد » ، والمثبت هو الموافق للسياق ، والله تعالى أعلم .

(٣) إرشاد العقل السليم : (١٠/١ - ١١) .

(٤) سورة إبراهيم ، الآية : (٤٢) .

ولا يؤاخذهم بما عملوا ، لما ترى من التأخير ، إنما هو لهذه الحكمة ... وإيقـــاع التـــأخير عليهم ، مع أن المؤخر إنما هو عذابهم لتهويل الخطب وتفظيع الحال ... »[1] .

المُؤْمِـــنُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِيْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ المَلِكُ الْقُدُّوْسُ السَّلاَمُ المُؤْمِـــنُ ﴾ [2] :

« المؤمـن : واهب الأمـن ، وقُرِىء بالفتح بمعنى المؤمـن به على حذف الجار »[3] .

المُبِـــيْنُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـــالى : ﴿ يَوْمَئِـذٍ يُوَفِّيْهِمُ اللَّهُ دِيْنَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُوْنَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ المُبِـــــيْنُ ﴾ [4] :

« المبين : المظهر للأشياء كما هي في أنفسها »[5] .

---

(١) إرشاد العقل السليم : (٥/٥٥) .

(٢) سورة الحشر ، الآية : (٢٣) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (٨/٢٣٤) .

(٤) سورة النور ، الآية : (٢٥) .

(٥) إرشاد العقل السليم : (٦/١٦٧) .

المُتَعَــال

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيْرُ الْمُتَعَــال ﴾ [1] :

« المتعــال : المستعــلي على كل شيء بقـــدرته ، أو المنزّه عن نعوت المخلوقات »[2] .

المُتَكَبِّرُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِيْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوْسُ السَّــلَام الْمُؤْمِــنُ الْمُهَيْمِــنُ الْعَــزِيْزُ الْجَبَّــارُ الْمُتَكَــبِّرُ ﴾ [3] :

« المتكبر : الذي تكبّر عن كلّ مـا يوجب حاجـة أو نقصـاناً ، أو البليغ الكبرياء والعظمة »[4] .

---

(١) سورة الرعد ، الآية : (٩) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٨/٥) .

(٣) سورة الحشر ، الآية : (٢٣) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٢٣٤/٨) .

المَتِـــيْنُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأُمْلِيْ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِيْ مَتِيْنٌ ﴾ [1] :

« أي : قويٌّ لا يدافع بقوة ولا بحيلة »[2] .

المُجِـيْبُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـــالى : ﴿ فَاسْتَغْفِـرُوْهُ ثُمَّ تُوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّيْ قَرِيْبٌ مُجِيْبٌ ﴾ [3] :

« مجيب لمن دعاه وسـأله ، وقد رُوعي في النظم الكريم نكتـة ، حيث قدّم ذكر العلّة الباعثـة المتقدّمة على الأمر بالاستغفار والتوبة ، وأخّـر عنـه ذكر الغائيـــة المتـأخرة عنهمـــا في الوجـــود ، أعني الإجابة »[4] .

المَجِـيْدُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـــالى : ﴿ وَهُوَ الْغَفُــوْرُ

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : (١٨٣) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٣/٢٩٨) .

(٣) سورة هود ، الآية : (٦١) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٤/٢٢١) .

الْوَدُوْدُ ۞ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيْـــــــدُ ﴾ [1] :

« المجيـــد : العظيم في ذاته وصفـــاته ، فإنه واجب الوجود تام القدرة كامل الحكمة »[2] .

الْمُحِــيْطُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـــالى : ﴿ وَاللَّهُ مُحِيْـــطٌ بِالْكَافِرِيْنَ ﴾ [3] :

« أي : لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط »[4] .

الْمُصَــوِّرُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِىءُ المُصَــــــوِّرُ ﴾ [5] :

« المصوِّر : الموجد لصورها وكيفيتها كما أراد »[6] .

---

(١) سورة البروج ، الآيتان : (١٤ ، ١٥) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١٣٨/٩) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (١٩) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٥٤/١) .

(٥) سورة الحشر ، الآية : (٢٤) .

(٦) إرشاد العقل السليم : (٢٣٤/٨) .

المُقْـــتَدِرُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِيْنَ فِي جَنَّـاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيْكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ (١) :

« عنـد مليـك مقتـدر ، أي : عنـد مليـك لا يقـادر قدر ملكه وسلطانه ، فلا شيء إلا وهو تحت ملكوته سبحانه ما أعظم شأنه »(٢).

المَلِكُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ ﴾ (٣) :

« ... ملك مـن الملك الذي هو عبـارة عن السلطان القـاهر ، والاستيلاء البـاهر ، والغلبة التامة ، والقدرة على التصـرف الكلي في أمور العامة بالأمر والنهي »(٤) .

المُهَيْـــمِنُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِيْ لَا إِلَهَ إِلَّا

---

(١) سورة القمر ، الآيتان : (٥٤ ، ٥٥) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١٧٥/٨) .

(٣) سورة الفاتحة ، الآية : (٤) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (١٥/١) .

﴿ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ ﴾[1] :

« المهيمن : الرقيب الحافظ لكل شيء ، مفيعل من الأمن ، بقلب همزته هاءً »[2] .

المَوْلَى

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾[3] :

« مولاهم ، أي : مالكهم الذي يلي أمورهم على الإطلاق »[4] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾[5] :

« بأن اللَّه مولى الذين آمنوا ، أي : ناصرهم على أعدائهم ... وأن الكافرين لا مولى لهم فيدفع عنهم ما حلّ بهم من العقوبة والعذاب ، ولا يخالف هذا قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾[6] ؛ لأن المولى هناك بمعنى المالك »[7] .

---

(١) سورة الحشر ، الآية : (٢٣) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٨/٢٣٤) .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : (٦٢) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٣/١٤٥) .

(٥) سورة محمد ، الآية : (١١) .

(٦) سورة الأنعام ، الآية : (٦٢) .

(٧) إرشاد العقل السليم : (٨/٩٤) .

النَّصِــيْرُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعــالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِــــــيْرُ ﴾ [1] :

« لا يغلب من نصره »[2] .

وقــال في تفســـير قوله تعـالى : ﴿ وَمَالَـهُمْ فِي الأَرْضِ مِـن وَلِيٍّ وَلَا نَصِــــيْرٍ ﴾ [3] :

« ولا نصير ينقذهم من العذاب بالشفاعة أو المدافعة »[4] .

الْوَاحِــدُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [5] :

« واحد ، أي : بالذَّات منزّه عن التّعدُّد بوجه من الوجوه ، فالله مبتدأ ، وإله خبر ، وواحد نعت ، أي : منفرد في ألوهيته »[6] .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : (٤٠) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٢١/٤) .

(٣) سورة التوبة ، الآية : (٧٤) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٨٥/٤) .

(٥) سورة النساء ، الآية : (١٧١) .

(٦) إرشاد العقل السليم : (٢٦٠/٢) .

الْــوَارِثُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيْتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُوْنَ ﴾ [1] :

« ونحن الوارثون ، أي : الباقون بعد فناء الخلق قاطبة ، المالكون للملك عند انقضاء زمان الملك المجازي ، الحاكمون في الكل أولاً وآخراً »[2] .

الْوَاسِــعُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ ﴾ [3] :

« واسع بإحاطته بالأشياء ، أو برحمته يريد التّوسعة على عباده »[4].

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ ﴾ [5] :

---

(١) سورة الحجر ، الآية : (٢٣) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٧٣/٥) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (١١٥) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (١٥٠/١) .

(٥) سورة المائدة ، الآية : (٥٤) .

« واسع : كثير الفواضل والألطاف »[1] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ ﴾ [2] :

« واسع قدرة وفضلاً »[3] .

الْــوَدُوْدُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْغَفُوْرُ الْــوَدُوْدُ ﴾ [4] :

« المحبُّ لمن أطاع »[5].

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيْمٌ وَدُوْدٌ ﴾ [6] :

« ودود : مبالغ في فعل ما يفعل البليغ المودّة بمن يودّه من اللّطف والإحسان »[7].

---

(١) إرشاد العقل السليم : (٥٢/٣) .

(٢) سورة البقرة ، الآية : (٢٦٨) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (٢٦٢/١) .

(٤) سورة البروج ، الآية : (١٤) .

(٥) إرشاد العقل السليم : (١٣٨/٩) .

(٦) سورة هود ، الآية : (٩٠) .

(٧) إرشاد العقل السليم : (٢٣٥/٤) .

الْوَكِيــــلُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوْهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيْلٌ ﴾ [1] :

« متــولِّي أمــــور جميع مخلوقاته التي أنتم مـن جملتهـا ، فَكِلُوا أموركم إليـه ، وتوسّلوا بعبــادته إلى نجــاح مــآربكم الدنيوية والأخروية »[2] .

الْــــوَلِيُّ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِيْنَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ ﴾ [3] :

« أي معينهم أو متولّي أمورهم ، والمراد بهم الذين ثبت في علمه تعالى إيمانهم في الجملة مآلاً أو حالاً »[4] .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : (١٠٢) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١٧٠/٣) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (٢٥٧) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٢٥٠/١) .

الْوَهَّـــابُ

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَـا وَهَبْ لَنَـا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [1] :

« الوهَّـاب : يتنـاول كلّ موهوب ، وفيـه دلالة على أنَّ الهُدى والضَّلال مِن قِبَله تعالى ، وأنَّه متفضِّل بما ينعم به على عباده من غير أَنْ يجب عليه شيء »[2] .

(١) سورة آل عمران ، الآية : (٨) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٢/٩) .

النقــــد :

يظهر من خلال هذا العرض الطويل أنَّ أبا السعـــود أثبت جميع ما تقـدَّم من أسماء اللَّه تعـالى ، وأثبت معـانيها ، وقد أثبت بعضهـا على طـريقة المتكلّمين كالبصير والعلي والواسع وغيرهـا ، وصـرّح بأنَّ أسماء اللَّه تعالى توقيفية ، فلا يجوز تسمية اللَّه تعالى إلا بما ورد في الشرع[1] .

وبيّن أنواع الإلحاد في أسمائه عزّ وجلّ بأَنْ يُسمّى بما لا توقيف فيه ، أو بما يوهم معنى فاسـداً ، أو العـدول عن تسميتـه تعـالى ببعـض الأسماء الكريهـــة ، أو بإطلاق أسمائه تعـــالى على غيره ، أو باشتقـــاق أسماء أصنـامهم مـن بعضهـا ، وغير ذلك . وقوله مقـارب لقول أبي البركات النَّسَفِي[2] في بيان الإلحاد في أسمائه تعالى حيث قال :

« فيُسمُّونه بغير أسمائه الحسنى ، وذلك أن يسمُّوه بما لا يجوز عليه نحو [أن يقولـوا][3] : يا سخي ، يا رفيق ؛ لأنه لم يســمّ نفســـه بذلك ، ومن الإلحاد تسميته بالجسم والجوهر والعقل والعلة »[4] .

ومنهج أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفـات أن يثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه ، أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم ، وينفي

---

(١) انظر إرشاد العقل السليم : (٢٩٦/٣) ، والتوحيد للماتريدي ص : (٣٨ - ٤٣) .

(٢) هو عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ، أبو البركات حافظ الدِّين ، فقيه حنفي مفسِّر ، ماتريدي العقيدة . له مدارك التنزيل وكنز الدقائق وعمدة العقائد . مات سنة ٧١٠ هـ . انظر الجواهر المضية : (٢٩٤/٢) ، والأعلام : (٦٧/٤) .

(٣) في النص المنقول : « أن يقولون » ، وهو خطأ .

(٤) مدارك التنزيل وحقائق التأويل : (٤٥٢/١) .

عنه ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم ، إثباتاً من غير تمثيل ، وتنزيهاً من غير تعطيل[1] .

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة :

« فالأصل في هذا الباب أن يُوصف الله تعالى بما وصف به نفسه ، وبما وصفته به رسله ؛ نفياً وإثباتاً ، فيُثْبَت لله ما أثبته لنفسه ، ويُنفى عنه ما نفاه عن نفسه .

وقد عُلم أنَّ طريقة سلف الأُمَّة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات ، من غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ ، ومن غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ .

وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه - مع إثبات ما أثبته من الصفات - من غير إلحادٍ : لا في أسمائه ، ولا في آياته ، فإنَّ اللَّه ذمّ الذين يلحدون في أسمائه وآياته ، كما قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوْهُ بِهَا وَذَرُوْا الَّذِيْنَ يُلْحِدُوْنَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُوْنَ ﴾[2]، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ يُلْحِدُوْنَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيْرٌ ﴾[3] .

فطريقتهم تتضمّن إثبات الأسماء والصفات ، مع نفي مماثلة المخلوقات ، إثباتاً بلا تشبيه ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، كما قال تعالى :

---

(١) انظر التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيميَّة ص : (٧ - ٨) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : (١٨٠) .

(٣) سورة فصلت ، الآية : (٤٠) .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [1] .

ففي قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ردٌّ للتشبيه والتمثيل ، وقوله : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ردٌّ للإلحاد والتعطيل » [2] .

إنَّ التَّوقيف في أسماء اللَّه وصفاته أحد المعالم البارزة في هذا الباب ، وهو عدم تسمية اللَّه تعالى بما لم يسمّ به نفسه ، أويسمّه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يصفونه إلا بما وصفته به النصوص الشريفة ، وهذا عائد لأمور :

الأول : أنَّ مخالفة هذا المنهج قول على اللَّه تعالى بغير علم ، ورجم بالغيب ، وقد حرّم اللَّه هذا ، وعدّه من الجرائم العظام ، وإذا كان البشر لا يرضون أن يسمّوا بغير أسمائهم ، فكيف يجوز هذا في حق خالق البشر ؟

الثاني : أنَّ مخالفة هذا المنهج تقديم بين يدي اللَّه ورسوله ، وقد نهينا عن التقديم بين يدي اللَّه ورسوله ، وكيف يجيب العبد إذا حاسبه ربُّه يوم القيامة عن وصفه تبارك وتعالى بما لم يصف به نفسه ؟

الثالث : أنّ أسماء الله تبارك وتعالى حسنى ، ومهما اجتهد العبد فإنه قد لا يوفّق للتّعرّف على الاسم الأحسن الذي يستحقه اللَّه عزّ وجلّ [3] .

---

(١) سورة الشورى ، الآية : (١١) .

(٢) التدمرية ص : (٦ - ٨) ، وانظر مجموع الفتاوى : (٣/٣ - ٤) .

(٣) انظر أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة للدكتور الأشقر ص : (١٢٨) .

وقال السَّفَّارِيني[1] : « ومما يجب أن يعلم أن علماء السنة اتفقوا على جواز إطلاق الأسماء الحسنى والصِّفات العُلى على الباري جلَّ وعلا إذا ورد بها الإذن من الشارع ، وعلى امتناعه على ما ورد المنع عنه ، واختلفوا حيث لا إذن ولا منع في جواز إطلاق ما كان تعالى متصفاً بمعناه ولم يكن من الأسماء الأعلام الموضوعة من سائر اللغات ، إذ ليس جواز إطلاقها عليه تعالى محل نزاع لأحد بشرط ألاّ يكون إطلاقها يوهم نقصاً ، بل كان مشعراً بالمدح ، فالجمهور منعوا إطلاق ما لم يأذن به الشارع مطلقاً[2]، وجوّزه المعتزلة مطلقاً[3]، ومال إليه بعض الأشاعرة كالقاضي أبي بكر[4] البَاقِلاَّني[5] ، وتوقف إِمَام الحَرَمَين[6] الجُوَيْني[7] ،

---

(١) هو محمد بن أحمد بن سالم السَّفَّاريني ، شمس الدِّين أبو العون ، عالم بالحديث والأصول والأدب ، محقّق ، له الدراري المصنوعات في اختصار الموضوعات ، وكشف اللثام شرح عمدة الأحكام ، ومنظومة في العقيدة تُسمّى الدُّرَّة المضيّة في عقيدة الفرقة المرضية مع شرحها . مات سنة ١١٨٨ هـ . انظر الأعلام : (١٤/٦) .

(٢) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : (١٤١/٦ - ١٤٣) ، وبدائع الفوائد لابن قيّم الجوزية : (١٦١/١ - ١٧٠) .

(٣) انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص : (٢٣٠) .

(٤) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ، أبو بكر البَا قِلاَّني ، قاض ، من كبار علماء الكلام ، سكن بغداد ومات بها . انتهت إليه رئاسة الأشاعرة ، له إعجاز القرآن ، والإنصاف والتمهيد في الرد على الملاحدة والمعطّلة والخوارج والمعتزلة . مات سنة ٤٠٣ هـ انظر تاريخ بغداد : (٣٧٩/٥) ، والأعلام : (١٧٦/٦) .

(٥) انظر التمهيد ص : (٢٣٠ - ٢٣٦) .

(٦) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني ، ضياء الدِّين أبو المعالي ، شيخ الشافعية ، له مصنفات كثيرة منها الشامل والإرشاد ومغيث الخلق . مات سنة ٤٧٨ هـ . انظر سير أعلام النبلاء : (٤٦٨/١٨) ، والأعلام : (١٦٠/٤) .

(٧) انظر الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ص : (٦١) .

وفصّل الغزالي[١] : فجوّز إطلاق الصفة وهي ما دلّ على معنى زائد على الذات ، ومنع إطلاق الاسم وهو ما يدل على نفس الذات ، واحتج للقول المعتمد أنها توقيفية بأنه لايجوز أن يسمى النبي صلى الله عليه وسلم بما ليس من أسمائه ، فالباري أولى[٢] »[٣] .

ويقول الدكتور الأشقر[٤] :

« أسماء الله الحسنى أعلام وأوصاف ، فهي أعلام يدل كل واحد منها على الواحد الأحد ، يُنادَى به ويناجَى ويستغاث ، وهي من هذه الحيثية مترادفة ؛ لأنها أعلام لذات الله تبارك وتعالى ، وكل اسم من أسمائه فإنه دال على ذاته .

وهي أوصاف يدل كل واحد منها على صفة من صفات الرب تبارك وتعالى اللائقة بكماله وجلاله ، وهي من هذه الحيثية متباينة ، فالرحمٰن الرحيم من حيث دلالتهما مباينان لاسم القدير الدال على القدرة ، واسم السميع الدال على السمع ، واسم البصير الدال على البصر ، وقد يشترك أكثر من اسم من أسماء الله تبارك وتعالى في الدلالة على صفة واحدة مثل الرحمٰن الرحيم ، فإنهما دالان على الرحمة ،

---

(١) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، أبو حامد حجة الإسلام ، فيلسوف متصوّف ، له نحو مائتي مصنَّف . مات سنة ٥٠٥ هـ انظر سير أعلام النبلاء : (٣٢٢/١٩)، والأعلام : (٢٢/٧) .

(٢) انظر الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص : (١٠٠ - ١٠١) .

(٣) لوامع الأنوار البهية للسَّفَّاريني : (١٢٤/١ - ١٢٥) .

(٤) هو الدكتور عمر بن سليمان الأشقر ، من المعاصرين .

ومثل القادر والقدير والمقتدر فإنها دالة على قدرة الله »[1] .

وأسماء الله تعالى كلها حُسنى وصفاته كلها عليا كاملة ، يقول الإمام ابن قيم الجوزية :

« وصفاته كلها صفات كمال محض ، فهو موصوف من الصفات بأكملها ، وله من الكمال أكمله ، وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها ، فليس في الأسماء أحسن منها ، ولا يقوم غيرها مقامها ، ولا يؤدي معناها »[2] .

والحاصل أنَّ أبا السعود أثبتَ جميع ما تقدّم من أسماء الله تعالى ، وأثبت معانيها ، وبيّن أن أسماءه تعالى توقيفية ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[3] ، فلا يجوز تسميته تعالى إلا بما ورد في الشرع ، وهذا هو المنهج الصحيح في باب الأسماء ، إلا أنه أثبت بعضها على طريقة المتكلّمين ، كالبصير فقد فسّره بمعنى محتمل ، ولم يقل إن له تعالى بصراً يليق به يبصر به المبصرات على الوجه الذي يليق بجلاله وعظمته ، وكذلك اسم العلي حيث ذكر معانيه وحصر العلو بعلو الشأن والمكانة ، ولم يثبت العلو الذاتي لله عزّ وجلّ ، واسم الواسع حيث فسّره على منهج المتكلّمين بالإحاطة والرحمة ، وهي عند السلف أعلم بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله . والله تعالى أعلم .

---

(١) أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة ص : (٨٤) .

(٢) بدائع الفوائد ص : (١٦٧ - ١٦٨) .

(٣) سورة الأعراف ، الآية : (١٨٠) .

صفات الله تعالى

صِفَةُ التَّكْوِيْنِ

العــرض :

ذكر أبو السعود في الرسالة الإيمانية أن صفات الله تعالى لا تشبه صفات أحد من مخلوقاته أبداً ، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته أبداً ، وأنَّ الله تبارك وتعالى له صفة الحياة ، وصفة القدرة ، وصفة العلم ، وصفة الكلام ، وصفة السمع ، وصفة البصر ، وصفة الإرادة ، وصفة التّكوين[1] .

النقــد :

ذكر أبو السعود في هذه الرسالة ثماني صفات فقط ، ومن بينها صفة التكوين ، وهذه الصفات هي التي تسمى عند الماتريدية بصفات المعاني أو الصفات الثبوتية الثمان ، وصفة التكوين هي التي ميّزت الماتريدية عن غيرهم ، حيث أثبتوا هذه الصفة ، ولم يقل بها غيرهم من المتكلّمين والفِرَق الإسلامية فيما أعلم[2] .

وقد ذكر ابن كمال باشا - شيخ أبي السعود - هذه الصفات

---

(١) انظر الرسالة الإيمانية لأبي السعود : (ق/٢/ ب) .

(٢) انظر تبصرة الأدلة : (٣٠٦/١) ، وشرح المواقف ص : (١٧٩ - ١٨٠) ، وشرح الفقه الأكبر للقاري ص : (٤٣) ، وإشارات المرام ص : (٢١٢) .

الثمان في رسائله ونص عليها في كثير من مؤلفاته[1] .

وقال البياضي[2] : « الصفات الثبوتية البالغة عندنا إلى ثمانية ، من الحياة والعلم والقدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر والتكوين »[3] .

والماتريدية يعتبرون صفة التكوين صفة حقيقية قديمة قائمة بذات الله زائدة على ذاته[4] .

قال أبو المعين النَّسَفِي[5] : « اعلم أن التكوين والتخليق والخلق والإيجاد والإحداث والاختراع أسماء مترادفة يراد بها كلها معنى واحد ، وهو إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود ، فخص استعمال لفظة التكوين اقتفاءً لآثار أسلافنا [6] رحمهم الله »[7] .

---

(١) انظر رسالة في بيان عقيدة أهل السنة : (ق/١٩٢/ب) ، ورسائل ابن كمال باشا : (١/٣٤) ، ورسالة المنيرة ص : (٦) . نقلاً عن ابن كمال باشا وآراؤه الاعتقادية - رسالة علمية - : (١/٣٠٧ - ٣٠٨) .

(٢) هو أحمد بن حسن بن سنان الدِّين البَيَاضي ، كمال الدِّين ، قاض حنفي ماتريدي ، وُلد في استانبول ، له إشارات المرام من عبارات الإمام ، وسوانح العلوم ، والفقه الأبسط . مات سنة ١٠٩٨ هـ . انظر الأعلام : (١/١١٢) .

(٣) إشارات المرام من عبارات الإمام ص : (١١٤) .

(٤) انظر كتاب التوحيد لأبي منصور الماتريدي ص : (٢٠ من المقدمة ، ٣٣ ، ٤٦ ، ٦٤ ، ٨٦ ، ١١٨ ، ١٤٢) .

(٥) هو ميمون بن محمد بن محمد ، أبو المعين النَّسَفِي الحنفي : عالم بالأصول والكلام من كتبه بحر الكلام ، وتبصرة الأدلة ، والعمدة في أصول الدِّين . مات سنة ٥٠٨ هـ . انظر الجواهر المضية في طبقات الحنفية : (٣/٥٢٧) ، والأعلام : (٧/٣٤١) .

(٦) المقصود بقوله : « أسلافنا » ، أي : أسلاف الماتريدية ، وليس السلف الصالح .

(٧) تبصرة الأدلة في أصول الدين : (١/٣٠٦) .

وقال أيضاً : « إنّ التكوين صفة أزلية قائمة بذات الله تعالى ، كصفة العلم والقدرة والسمع والبصر ، فكان التكوين أزلياً والمكوّن حادثاً ، كالقدرة كانت أزليّة والمقدور حادثاً ، وكذا الإرادة والمراد ، فيكون التكوين لكل مكوّن تكويناً له لوقت وجوده ، كإرادة وجود كل موجود ، يكون إرادةً لوجوده لوقت وجوده »[1] .

وقد أثبت الماتريديون صفة التكوين ، وقالوا بأنّها الصِّفة التي تتعلّق بإيجاد الممكنات ، وتؤثّر في إخراجها من العدم إلى الوجود ، وقَصَروا تعلّق صفة القدرة بصحّة وجود المخلوق ؛ لأنَّ القدرة تتعلّق بالممكنات حال كونها ممكنات .

ولكن لا شأن لها بإيجاد الممكنات ، ولا تتعلّق بإيجاد الممكنات ، ولا تؤثر في إخراجها من العدم إلى الوجود ؛ لأنَّ ذلك وظيفة صفة التكوين أو التّخليق[2] .

وقال أبو المعين النَّسَفِي : « ولا يُقال إنّه اختص بالوجود بعد العدم بمعنى هو غيره ، وهو قدرة الباري جلَّ وعلا ؛ لأنَّ القدرة تقتضي كون ما يدخل تحتها مقدوراً ، ولا تقتضي كونه موجوداً ، ولو اقتضى كونه موجوداً لكان إيجاداً ، إذ الإيجاد ما يوجب الوجود ، كالإجلاس ما يوجب الجلوس ، وليس المقدور بموجود لا محالة ، ولهذا يوصف المعدوم بأنه مقدور ، فدلَّ أنّ هذا باطل ، ولأنَّ الوجود لو حصل بالقدرة لم يكن بنا حاجة إلى القول بالخَلْق والإيجاد ، فكان

---

(١) تبصرة الأدلة : (٣٠٧/١- ٣٠٨) .

(٢) انظر كتاب التوحيد للماتريدي ص : (٢٠ من المقدمة) .

الله تعالى قادراً على العالم لا خالقاً ولا موجداً »[1] .

أما الأشاعرة فلا يقولون بصفة التكوين ، وصفات الأفعال عندهم كلها حادثة ، ويرون أنها ليست من صفات الله تعالى ، بل هي إضافات واعتبارات ، وليس التكوين صفة أخرى غير القدرة والإرادة ، فمرجع صفات الأفعال عندهم مجموع القدرة والإرادة[2] .

واختار الغزالي لرفع هذا الخلاف طريقة القوة والفعل ، فإنّ كون الله خالقاً قبل الخَلْق بالقوّة ، وكونه خالقاً بعد الخَلْق بالفعل ، كالسيف يُسمى صارماً بالقوّة في الغمد ، كما يسمى صارماً بالفعل عند حصول القطع به ، والماء في الكوز يسمى مروياً بالقوة ، وعند الشرب يسمى مروياً بالفعل[3] .

والصواب خلاف الرأيين ، وقد حملهم على هذا الفرار من القول بقيام الصفات الاختيارية به تعالى ، وهو ما يسمونه بحلول الحوادث ، وقد قالت الماتريدية : إنَّ صفة التكوين أزليّة ، وإنَّ الصفات الفعلية ليست في الحقيقة صفاتٍ للّه تعالى ، بل هي من متعلقات صفة التكوين لئلا يلزم حلول الحوادث به تعالى ، وليست قديمة حتى لا يلزم كثرة القدماء .

وأما الأشاعرة فقالوا بنفي التكوين صفة لله تعالى زائداً عن الصفات السبع ، وقالوا : إن صفات الأفعال ليست صفات لله تعالى ، بل هي

---

(١) تبصرة الأدلة : (٣٤٠/١ - ٣٤١) .

(٢) انظر الماتريدية للسلفي : (٤١٨/١ - ٤١٩) .

(٣) انظر الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص : (١٠١) .

إضافات واعتبارات ؛ لئلا يقوم بذاته تعالى حادث[1] .

وعلى هذا فقد اتفق الأشاعرة والماتريدية على منع قيام الحوادث بذاته تعالى ، وكذلك الفلاسفة والمعتزلة وغيرهم من المتكلمين .

والقول بحلول الحوادث يلزم جميع الطوائف حتى الفلاسفة ، وقد قال به من أساطينهم الأولين وفضلائهم المتأخرين غير واحد ، وهو قول طوائف من أهل الكلام من المرجئة[2] والشيعة[3] والكرامية[4] وغيرهم ، وأما جمهور أهل السنة والحديث فإنهم يقولون بها أو بمعناها [5] .

وقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيميّة معنى قيام الحوادث بذاته تعالى ، وبيّن منه ما هو مذهب السلف ، وأن المعنى الصحيح هو أنه لم يزل الله تعالى متكلماً إذا شاء ، كما أنه لم يزل فاعلاً إذا شاء ، فإنه إذا كان

---

(١) انظر الماتريدية للسلفي : (٤٢٠/١) .

(٢) المرجئة هم الذين يزعمون أنّ العمل لايدخل في مسمّى الإيمان ، وأنّ الإيمان هو التصديق ، وأنه لا يزيد ولا ينقص ، وأنه لايجوز الاستثناء في الإيمان . انظر : مقالات الإسلاميين للأشعري ص : (١٣٢) ، والفِصَل لابن حزم : (٧٣/٥) ، والمِلَل والنِّحَل للشهرستاني ص : (١٤٢) . .

(٣) سبق التعريف بهم .

(٤) الكرّامية هم أتباع أبي عبد الله محمد بن كَرّام السجستاني (ت ٢٢٥ هـ) ، وقد تميّزت الكرامية بالقول بأن الإيمان هو قول اللسان فقط دون التصديق ، ودون سائر الأعمال ، وقد وافقت السّلف في إثبات الصفات ، ولكنها بالغت في ذلك إلى حدّ التشبيه والتجسيم . انظر مقالات الإسلاميين ص : (١٤١) ، والفَرْق بين الفِرَق ص : (٢١٥) ، والمِلل والنِّحَل ص : (١١١) .

(٥) انظر منهاج السنة النبوية : (٤٢٢/١) .

كلامه تعالى وهو صفة قائمة به متعلقاً بمشيئته واختياره دلّ ذلك على جواز قيام الحوادث بذاته ؛ لأنَّ ما يتعلّق بالمشيئة والاختيار لا يكون إلا حادثاً ، فكلامه حادث الآحاد قديم النوع ، وكذلك فعله وإرادته ونحو ذلك[1] .

وفَرّق شيخ الإسلام بين ما كان من الصفات لازماً لذاته تعالى أزلاً وأبداً كالحياة والوجود ونحوهما ، فهذا لا يجوز أنْ يتأخّر منه شيء ، كما أنه لا يكون متعلّقاً لمشيئته تعالى واختياره ، وأما ما كان من الصفات غير لازم للذات كالكلام والفعل وغيرهما فهو مما تتعلق به المشيئة والاختيار ، ولا يكون إلا حادثاً شيئاً بعد شيء ، وإن كان نوعه لم يزل موجوداً [2] .

ثم ذكر بعد ذلك أن كلام الله قائم بذاته ، وأنه صفة له ، والصفة لا تقوم إلا بالموصوف ، وردّ على من أنكر ذلك قائلاً :

« فإذا قالوا لنا : فهذا يلزم أن تكون الحوادث قامت به .

قلنا : ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة ؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل ، وهو قول لازم لجميع الطوائف ، ومن أنكره فلم يعرف لوازمه وملزوماته .

ولفظ الحوادث مجمل ، فقد يُراد به الأمراض والنقائص ، والله تعالى منزّه عن ذلك ، كما نزّه نفسه عن السِّنَة والنّوم واللُّغوب ، وعن

---

(١) انظر منهاج السنة النبوية : (٣٥٨/٢ - ٣٨٠) .

(٢) انظر ابن تيمية السلفي للدكتور الهراس ص : (١٢٦) .

أنْ يَؤُودَه حفظ السّموات والأرض وغير ذلك مما هو منزّه عنه بالنّص والإجماع . ثم إنّ كثيراً من نفاة الصِّفات - المعتزلة وغيرهم - يجعلون مثل هذا حجة في نفي قيام الصفات أو قيام الحوادث به مطلقاً ، وهو غلط منهم ، فإنّ نفي الخاص لا يستلزم نفي العام ، ولا يجب إذا نفيت عنه النَّقائص والعيوب أنْ ينتفي عنه ما هو من صفات الكمال ونعوت الجلال ، ولكن يقوم به ما يشاؤه ويقدر عليه من كلامه وأفعاله ونحو ذلك مما دلّ عليه الكتاب والسنة »[1] .

(١) منهاج السنة النبوية : (٣٨١/٢) . وللتفصيل في هذه المسألة انظر : درء تعارض العقل والنقل : (١٤٧/٢ - ١٥٦) ، ورسالة في الصفات الاختيارية لشيخ الإسلام ابن تيميّة ضمن جامع الرسائل : (٣/٢ - ٢٨) .

صِفَةُ الْمَعِيَّةِ

العرض :

ذكر أبو السعود أنَّ المقصود بالمعيَّة هي معية العلم والإحاطة ، لا معية الذات .

كما أنَّه فرّق في كلامه - وإنْ لم يصرِّح - بين أقسام المعية ، فمعيَّة الله تعالى لخَلْقه تنقسم إلى قسمين :

- معيَّة عامة .
- ومعيَّة خاصة .

فنجده في القسم الأول يفسّر آيات المعية العامة بالعلم كما يأتي :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيْبٌ ﴾[1] ، قال : « أي : فقل لهم إني قريب ، وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه »[2] .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيْدِ ﴾[3]، قال : « أي : أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من حبل الوريد ، عبّر عن قرب العلم بقرب الذات تجوّزاً ؛ لأنه موجب له ... »[4] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (١٨٦) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٢٠٠/١) . والعبارات منقولة بتمامها من أنوار التنزيل للبيضاوي : (١٠٦/١) ، وفي آخرها : « من قرب مكانه منهم » ، وبنحوها في الكشاف للزمخشري : (٣٣٧/١) .

(٣) سورة ق ، الآية : (١٦) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (١٢٨/٨) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾[1] ، قال :

« ونحن أقرب إليه علماً وقدرة وتصرفاً منكم ، حيث لاتعرفون من حاله إلا ماتشاهدونه من آثار الشِّدَّة ... ونحن المتولّون لتفاصيل أحواله بعلمنا وقدرتنا ، أو بملائكة الموت »[2] .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[3]، قال : « تمثيل لإحاطة علمه تعالى بهم ، وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما داروا ، وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[4] ، عبارة عن إحاطته بأعمالهم »[5] .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾[6] الآية ، قال :

« إلا هو رابعهم أي : جاعلهم أربعة من حيث إنه تعالى يشاركهم في الاطلاع عليها ...

﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ : يعلم مايجري بينهم »[7] .

---

(١) سورة الواقعة ، الآية : (٨٥) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٢٠١/٨) .

(٣) سورة الحديد ، الآية : (٤) .

(٤) سورة الحديد ، الآية : (٤) .

(٥) إرشاد العقل السليم : (٢٠٤/٨) .

(٦) سورة المجادلة ، الآية : (٧) .

(٧) إرشاد العقل السليم : (٢١٨/٨) .

مما تقدم يظهر لنا بجلاء أنه فسّر آيات المعية العامة بالعلم والإحاطة والاطلاع ، لا معية الذات .

كما نجده في القسم الثاني يُفَسّر آيات المعية الخاصة بالولاية الدائمة والنصرة وإجابة الدعوة والمعونة وكمال الحفظ ... كما يأتي :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1] ، قال : « ... ومعنى المعية : الولاية الدائمة المستتبعة للنصرة وإجابة الدعوة ، ودخول (مع) على الصابرين لما أنهم المباشرون للصبر حقيقة ، فهم متبوعون من تلك الحيثية »[2] .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[3]، قال : « أي معكم بالنصر والإمداد فيما تباشرونه من القتال »[4] .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾[5]، قال : « بالعون والعصمة ، والمراد بالمعية : الولاية الدائمة التي لا تحوم حول صاحبها شائبة من الحزن ، وما هو المشهور من اختصاص (مع) بالمتبوع ، فالمراد بما فيه من المتبوعيّة هو المتبوعيّة في الأمر المباشر »[6].

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (١٥٣) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١٧٩/١) .

(٣) سورة التوبة ، الآية : (٣٦) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٦٤/٤) .

(٥) سورة التوبة ، الآية : (٤٠) .

(٦) إرشاد العقل السليم : (٦٦/٤) .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِيْنَ اتَّقَوْا وَالَّذِيْنَ هُمْ مُحْسِنُوْنَ ﴾[1]، قال بنحو ما قاله في الآية السابقة[2] .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾[3]، قال : « والمراد بالمعية : كمال الحفظ والنصرة ، كما يُنبيء عنه قوله تعالى : ﴿ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ ، أي : مايجري بينكما وبينه من قول وفعل ، فأفعل في كلِّ حالٍ ما يليق بها من دفع ضرٍّ وشرٍّ ، وجَلْبِ نفعٍ وخيرٍ .

ويجوز ألا يقدر شيء على معنى : إنني حافظكما سميعاً بصيراً ، والحافظ : الناصر ، إذا كان كذلك فقد تمَّ ، وبلغت النصرة غايتها »[4] .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾[5]، قال : « تعليل للردع عن الخوف ، ومزيد تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنّصرة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾[6]، وحيث كان الموعود بمحضر من فرعون اعتبر هٰهنا في المعية .

وقيل : أجريا مجرى الجماعة ، ويأباه ماقبله وما بعده من ضمير

(١) سورة النحل ، الآية : (١٢٨) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١٥٣/٥) ، وفي أنوار التنزيل (٤٠٥/١) : «بالعصمة والمعونة» .

(٣) سورة طه ، الآية : (٤٦) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (١٨/٦) .

(٥) سورة الشعراء ، الآية : (١٥) .

(٦) سورة طه ، الآية : (٤٦) .

التثنية ، أي : سامعون مايجري بينكما وبينه فَنُظْهِركما عليه »[1] .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[2]، قال : « معية النصر والمعونة »[3] .

(١) إرشاد العقل السليم : (٦/٢٣٧) .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية : (٦٩) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (٧/٤٨) .

النقـــد :

مما تقـدم ذكره آنفـاً من آيات المعيـة الخـاصة ، نجـد أن أبا السعود فسّرها بما تقتضيه من النصر والعون والحفظ والتأييد لمن أضيفت إليه ، وهي مختصة بمن يستحق ذلك من الرسل وأتباعهم من المؤمنين والمتقين ، وهذه المعية توجب لمن آمن بها كمال الثبوت والقوة .

وظهـر لنا بجلاءٍ أيضاً أنه فسّـر آيات المعيـة العامـة بالعلم والإحاطة ؛ وذلك لأن المعيـة العـامة تقتضي الإحاطـة بجميع الخَلْق من مؤمنٍ وكافرٍ وبرٍّ وفاجرٍ في العلم والقدرة والتدبير والسلطان وغير ذلك مـن معـاني الربوبيـة ، وهـذه المعيـة توجب لمن آمـن بها كمال المراقبة لله عز وجل .

وهـذا الذي ذكره أبو السعود ، وفسَّـر به المعيـة العـامة والخاصة هو الحق الذي لا ريب فيـه ، وهو مـذهب سلف الأمـة وأئمتهـا ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة عنهم :

« فإنهم أثبتوا وآمنوا بجميع ماجاء به الكتاب والسنة كلّه من غير تحريف للكلم ، وأثبتوا أنَّ الله تعـالى فـوق سمٰواته ، وأنّه على عرشـه بَائِنٌ مِن خَلْقه ، وهم منه بائنون ، وهو أيضاً مع العباد عمومـاً بعلمـه ، ومع أنبيـائه وأوليـائه بالنَّصـر والتأييـد والكفـاية ، وهو أيضـاً قـريب مجـيب ، ففي آية النجوى دلالة على أنه عالم بهم »[1] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : (٢٣١/٥) .

وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى : « الله عزّ وجلّ في السماء ، وعلمه في كل مكان ، لا يخلو منه شيء »[1] .

وسُئل نعيم بن حماد[2] رحمه الله عن قوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَاكُنتُمْ﴾ ، قال : « معناه : أنه لا يخفى عليه خافية بعلمه »[3] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

« وقد عُلم أنه ماثَمّ موجود إلا الخالق والمخلوق ، والخالق مباين للمخلوق سبحانه وتعالى ، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته »[4] .

وقال العلامة صديق حسن خان[5] رحمه الله :

« وليس معناه أنه مختلط بالخلق ، فإن هذا لا توجبه اللغة ،

---

(١) كتاب السنة للإمام عبد الله بن الإمام أحمد ، تحقيق : أستاذنا الدكتور محمد بن سعيد بن سالم القحطاني : (١٠٧/١ رقم : ١١) ، وانظر مسائل الإمام أحمد لأبي داود ص : (٢٦٣) ، ومختصر العلو ص : (١٤٠) رقم : (١٣) .

(٢) هو الإمام العلامة الحافظ نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث ، أبو عبد الله الخزاعي المروزي ، وضع ثلاثة عشر كتاباً في الرد على الجهمية . مات سنة (٢٢٩ هـ) . انظر تاريخ بغداد : (٣٠٦/١٣) ، وتهذيب الكمال : (٤٦٦/٢٩) ، وسير أعلام النبلاء : (٥٩٥/١٠) .

(٣) مختصر العلو ص : (١٨٤) رقم : (١١٦) .

(٤) التدمرية ص : (٦٦) .

(٥) هو العلامة محمد صديق بن حسن بن علي خان ، أبو الطيب القنوجي ، تعلم في دلهي وسافر إلى بهوبال ، وتزوج بملكتها ، ولُقّب بنواب عالي الجاه أمير الملك بهادر ، له نيف وستون مصنفاً بالعربية والفارسية والهندية ، مات سنة (١٣٠٧هـ). انظر أبجد العلوم : (٢٧١/٣-٢٨٢) ، وإيضاح المكنون : (١٠/١) ، والأعلام : (١٦٧/٦) .

وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة وأئمتها ، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق ، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته ، وهو موضوع في السماء ، وهو مع المسافر والمقيم أينما كان .

فهو سبحانه فوق العرش ، رقيبٌ على خَلْقه ، مهيمنٌ عليهم ومُطَّلعٌ ، وأخبر أنه : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ۞ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾[1]، وأنه ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾[2]، وأن الملائكة يخافونه من فوقهم ، وهذا المعنى حق على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف ، ولكن يُصان عن الظنون الكاذبة ، وقال : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾[3] ، وقال : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[4] .

وقال ﷺ: « إِنَّ [الَّذِيْ][5] تَدْعُوْنَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ »[6] .

وقال [تعالى] : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾[7] .

---

(١) سورة المعارج ، الآيتان : (٣ - ٤) .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : (١٨) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (١٨٦) .

(٤) سورة ق ، الآية : (١٦) .

(٥) في النص : « الذين » ، والتصحيح من صحيح الإمام مسلم .

(٦) عن أبي موسى رضي الله عنه . رواه الإمام مسلم في صحيحه : في كتاب الذكر والدعاء - باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٠٧٧/٤ ح ٢٧٠٤) رقم : (٤٦).

(٧) سورة المجادلة ، الآية : (٧) .

فكل ما في الكتـــاب والسنـــــة من الأدلة الدَّالة على قربـه ومعيته لا ينـافي ما ذكر من علـــوِّه وفوقيتـه ؛ فإنه سبحانه عليٌّ في دنـــوّه ، وقـــريب في علـــوّه »[1] .

وقال رحمه الله أيضاً : « وليس في كتاب الله ، ولا سنة رسول الله ﷺ ، ولا عن أحدٍ من السلف ، ولا من الصحابة ، ولا مـن التابعين ، ولا عن أئمة الدِّين حرفٌ واحـــــدٌ يخالف ذلك . ولم يقل أحدٌ منهم إنَّ الله ليس في السماء ، أو إنّه ليس على العـــرش ، أو إنّه في كلّ مكان ، وإنّه لا داخـل العالـم ولا خارجه ، ولا متصـــــل به ، ولا منفصـل ، وإنّه لا تجوز الإشارة الحسِّيَّة إليه بالأصابع ونحو هذا »[2] .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة افتراق الناس في صفة المعية إلى أربع فرق :

الفرقة الأولى :

الجهمية[3] النفـاة الذين يقولون : ليس داخل العـالم ، ولا خارج العـــالم ، ولا فوق ، ولا تحت ، لايقولون بعلوه ولا بفوقيتـــه ، بل الجميع عندهم مُأَوَّل أو مفوَّض ، وليس مع الجهمية عن الأنبياء كلمة واحدة توافق مايقولونه من النفي .

---

(١) قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر لصدّيق حسن خان ص : (٥٠ ، ٥١) .

(٢) المرجع نفسه ص : (٥٣) .

(٣) الجهمية هم أتباع جهم بن صفوان السمرقندي ، أبو محرز الراسبي ، ضالٌّ مبتدع قُتِل سنة ١٢٨ هـ . وقد تميّزت الجهمية بالتعطيل والجبر والإرجاء ونفي أسماء الله وصفاته ونفي السمعيات . انظر مقالات الإسلاميين ص : (٢٧٩) ، والفَرق بين الفِرَق ص (٢١١) ، والملل والنِّحل ص : (٨٦) ، ودراسات في الأهواء والفِرق ص : (١٤٤) .

الفرقة الثانية :

الذين يقولون : إنه بذاته في كل مكان ، كما يقوله النجارية[1] ، وكثير من الجهمية ؛ عبادهم وصوفيتهم ، وعوامهم يقولون : إنه عين وجود المخلوقات ، كما يقوله أهل الوحدة[2] .

وهم يحتجون بنصوص المعية والقرب ، ويتأولون نصوص العلوّ والاستواء ، وكلّ نص يحتجون به حجة عليهم ؛ فإن المعية أكثرها خاصة بأنبيائه وأوليائه ، وعندهم أنه في كل مكان ...

والمعية لا تدل على الممازجة والمخالطة ، وكذلك لفظ القرب ، وعند الحلولية[3] أنه في حبل الوريد ، كما هو عندهم في سائر

---

(١) وهم أصحاب الحسين بن محمد النجار (ت ٢٣٠ هـ) ، وقد ذكر الأشعري النجارية ضمن فرق المرجئة في الإيمان ، وعدّهم الشهرستاني من الجبرية ، وهم برغوثية وزعفرانية ومستدركة ، وقد وافقوا المعتزلة في نفي الصفات، وقال عنهم ابن حزم : « إنهم أقرب فرق المعتزلة إلى أهل السنة »، وقد أنكروا رؤية الله تعالى بالأبصار ، وحكى الكعبي عن النجار أنه قال : الباري تعالى بكل مكان ذاتاً . انظر مقالات الإسلاميين للأشعري ص : (١٣٥ ، ١٣٦) ، وأصول الدين ص : (٣٣٤) ، والفَرق بين الفِرق كلاهما للبغدادي ص : (٢٠٧ - ٢١١)، والفِصَل لابن حزم : (٢٦٦/٢) ، والملل والنحل للشهرستاني ص : (٨٨ - ٩٠) .

(٢) وهو القول بأن الله تعالى متّحِد بمخلوقاته وممتزج بها ، كما يمتزج الماء بالطين ، وأن وجود الخالق هو عين وجود المخلوقات ؛ أي أن الوجود واحد . انظر بغية المرتاد لشيخ الإسلام ابن تيمية ص : (٣٩٥) ، ومجموع الفتاوى : (١٧١ ، ٤٦٦) ، والرد على القائلين بوحدة الوجود لعلي القاري ص : (١٣) .

(٣) الحلولية هم الذين يعتقدون أن الله تعالى بذاته حلّ في مخلوقاته ، كما يحل الماء في الإناء ، وأنه تعالى بذاته في كل مكان ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، والقول بالحلول والاتحاد والوحدة مآلها واحد ، وهذه عقيدة غلاة الصوفية كابن عربي وابن سبعين والحلاج وغيرهم . انظر الفَرق بين الفِرق ص : (٢٥٤) ، ومجموع الفتاوى : (١١١/٢ - ٤٩٠) .

الأعيان ، وكل هذا كفر ، وجهل بالقرآن .

الفرقة الثالثة :

الذين يقولون : هو فوق العرش ، وهو في كل مكان ، ويقولون : إنّا نقر بهذه النصوص ، ولا نصرف واحداً منها عن ظاهره، وهذا قول طوائف ذَكرهم أبو الحسن الأشعري[1] في مقالات الإسلاميين[2]، وهو موجود في كلام طائفة من السالمية[3] والصوفية .

وهذا الصنف الثالث التزم حرفية ظاهر النصوص مخالفاً الصنفين الأولين :

فإن الأول : لم يتبع شيئاً من النصوص ، بل خالفها كلها .

والثاني : ترك النصوص الكثيرة المحكمة المبينة ، وتعلّق بنصوص قليلة اشتبهت عليه معانيها .

وهذا الصنف لسان حاله يقول : أنا اتبعت النصوص كلها ؛ لكنه غالط أيضاً .

---

(١) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بِشر من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري رضي الله عنه . كان أبو الحسن إمام المتكلمين ، ومؤسّس مذهب الأشاعرة . وقد رجع إلى مذهب السلف الصالح ، وأظهر انتسابه للإمام أحمد بن حنبل فيما يعتقده . مات سنة ٣٢٤ هـ. انظر تاريخ بغداد : (٣٤٦/١١)، وسير أعلام النبلاء : (٨٥/١٥) .

(٢) ص : (٢٨٨) .

(٣) السالمية تُنسب إلى أبي الحسن أحمد بن محمد بن سالم (ت ٣٦٠ هـ) ، هو وأبوه من تلاميذ سهل بن عبد الله التستري ، ومن أشهر السالمية : أبو طالب المكي صاحب قوت القلوب . انظر تلبيس إبليس ص : (١٦٤ ، ١٦٥) ، ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام للنشار : (٢٩٤/١ ، ٢٩٥) ، والمصادر العامة للتلقي عند الصوفية لصادق سليم ص : (٤٤) .

فكل من قال : إن الله بذاته في كل مكان ، فهو مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها ، مع مخالفته لما فطر الله عليه عباده ، ولصريح المعقول ، وللأدلة الكثيرة .

الفرقة الرابعة :

مَنْ قولهم الحَقّ ، وهم سلف هذه الأمة وأئمتها [1] ، كما تقدم بيانه آنفاً [2].

وهكذا يظهر لنا معتقد أبي السعود في إثبات المعية العامة والخاصة ، وتفسيرهما تفسيراً صحيحاً بما يوافق معتقد السلف الصالح من أهل السنة والجماعة ، والله تعالى أعلم .

---

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : (٥/٢٢٧ - ٢٣١) .

(٢) انظر ص : (٢٣٦) .

صِفَةُ الاسْتِوَاءِ

العـــرض :

فسّر أبو السعود الاستواء بتفسيرين ، وبيّن معنى الاستواء المقيّد من ناحيتين اثنتين :

الاستواء المقيَّد بـ (على) .

والاستواء المقيَّد بـ (إلى) .

وقد ذكر في الأول أكثر من خمسة أقوال في معنى الاســـتواء[1] .

ففي قوله تعالى من سورة الأعراف : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾[2]، قال :

« ثم استوىٰ على العـرش ، أي : استوى أمـره ، واستولى ، وعن أصحابنـا : أنَّ الاستـــواء على العـرش صفـة لله تعـالى بلا كيفـــ ، والمعنى : أنّه تعالى استـــوى على العـــرش على الوجــه الذي عَنَاه منزّهاً عن الاستقرار والتمكن »[3] .

وفي تفسير قوله تعـالى مـن سورة يونس : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي

---

(١) ذكر القرطبي في تفسيره : (٢١٩/٧) أنه جمع أقوال العلماء في مسألة الاســـــتواء في كتـابه : الكتـاب الأسنى في شـرح أسماء الله الحسنى ، وذكر (١٤) قـولاً . وذكر الكوثري في تعليقـه على الأسماء والصفـات للبيهقي صـ : (٤٠٥ ، ٤٠٦) أن لفظ استوى محتمل لخمسة عشر معنى في اللغة .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : (٥٤) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (٢٣٢/٣) .

خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾[1]، قال بنحو ما قاله في تفسير الآية السابقة من سورة الأعراف ، وزاد على ذلك قائلاً : « وهذا بيان لجلالة ملكه وسلطانه ، بعد بيان عظمة شأنه وسعة قدرته ، بما مرّ من خَلْق هاتيك الأجرام العظام »[2] .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾[3]، قال أبو السعود :

« أي استولى على العرش بالحفظ والتدبير، أو استوى أمره . وعن أصحابنا : أنَّ الاستواء على العرش صفة لله عزَّ وجلَّ بلا كيف . وأيّاً ماكان فليس المراد به القصد إلى إيجاد العرش وخَلْقِه ، فلا حاجة إلى جعل كلمة (ثم) للتراخي في الرتبة »[4] .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[5]، قال :

« ... والاستواء على العرش مَجَاز عن المُلْك والسلطان ، متفرّع على الكناية فيمن يجوز عليه القعود على السرير .

يقال : استوى فلان على سرير الملك ، يراد به : ملك ، وإن لم يقعد على السرير أصلاً .

والمراد : بيان تعلّق إرادته الشريفة بإيجاد الكائنات وتدبير أمرها »[6] .

---

(١) سورة يونس ، الآية : (٣) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١١٨/٤) .

(٣) سورة الرعد ، الآية : (٢) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٣/٥) .

(٥) سورة طه ، الآية : (٥) .

(٦) إرشاد العقل السليم : (٥/٦) .

وأما تفسيره الاستواء المقيَّد بـ (إلى) ففي موضعين :

الموضع الأول :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1]، حيث قال أبوالسعود :

« أي : قَصَد إليها بإرادته ومشيئته قصداً سوياً ، بلا صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، من إرادة خَلْق شيء آخر في تضاعيف خَلْقها ، أو غير ذلك ، مأخوذٌ من قولهم : استوى إليه كالسهم المرسل .

وتخصيصه بالذكر هٰهنا إما لعدم تحقّقه في خَلْق السّفليات ...

وإما لإظهار كمال العناية بإبداع العلويات .

وقيل : استوى : استولى وملَك .

والأول هو الظاهر ...

والمراد بالسماء : إما الأجرام العلوية ؛ فإن القصد إليها بالإرادة لا يستدعي سابقة الوجود ، وإما جهات العلو »[2] .

الموضع الثاني :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾[3]، قال أبو السعود :

« أي : قصد نحوها قصداً سوياً لا يلوي على غيره »[4] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (٢٩) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٧٨/١) .

(٣) سورة فصلّت ، الآية : (١١) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٥/٨) .

النقـــد :

يتضح مما تقدم من عرض أقوال أبي السعود ، في الاستواء المقيَّد بـ (على) أنه سَرْدٌ لأقوال بعض العلماء ، ومنها :

- استوى أمره .
- استولى .
- الاستواء صفة لله تعالى بلا كيف .
- استوى على الوجه الذي عناه منزهاً عن الاستقرار والتمكن .
- ليس معناه القصد إلى إيجاد العرش وخَلْقِه .
- الاستواء على العرش مجاز عن الملك والسلطان .
- استولى على العرش بالحفظ والتدبير .
- بيان تعلق إرادته الشريفة بإيجاد الكائنات وتدبير أمرها .

وقد نقل أبو السعود هذه العبارات وتلك الأقوال بتمامها من تفسير البيضاوي ، وبدون ترجيحٍ لأيٍّ من تلك الأقوال المذكورة آنفاً [1] .

والقول الثالث : « الاستواء صفة لله تعالى بلا كيف » . إن كان ظاهره أنه موافق لقول السلف إلا أنه جعل تفسيره ومعناه بين التفويض والإثبات المقيّد باحترازات المتكلّمين والمؤوّلين وتوهماتهم ، وذلك من اضطراب أهل الكلام ، وهو لم يقل : استوى على الحقيقة استواء يليق بجلاله ، بل في نقوله تفويض ظاهر وتأويل واضح .

إلا أنّه في الموضع الأخير في سورة طه صــرّح بأنَّ الاستواء على العرش مَجَاز عن الملك والسلطان ، وهو في ذلك يكون موافقاً لما ذكره الزمخشــري في تفسيره ، حيث قال : « لما كان الاستــواء على

(١) انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل : (٣٤١/١) .

العرش ، وهو سرير الملك مما يردف الملك ، جعلوه كناية عن الملك ، فقالوا : استوى فلان على العرش ، يريدون : مَلَك وإن لم يقعد على السرير ألبتّه ، وقالوه أيضاً لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤدّاه وإن كان أشرح وأبسط وأدلّ على صورة الأمر »[1] .

وجميع هذه الأقوال والتأويلات التي ذكرها أبو السعود في الاستواء - ماعدا قولاً واحداً منها - هي أقوال مخالفة لمذهب السّلف الصالح ، الذين يرون أنَّ الله تعالى مستوٍ على عرشه بذاته حقيقة استواءً يليق بجلاله وعظمته .

وأما تفسير أبي السعود الاستواء المقيّد بـ (إلى) ، ففي الموضع الأول نجده قد نقل بعض تلك العبارات السابقة من تفسير البيضاوي ، ونقل ترجيحه ، وأقرّه على ذلك ، حيث قال البيضاوي :

« ثم استوى إلى السماء : قصد إليها بإرادته ، من قولهم : استوى إليه كالسهم المرسل ، إذا قصده قصداً مستوياً من غير أنْ يلوي على شيء ... وقيل : استولى ومَلَك ... والأول أوفق للأصل ... والمراد بالسماء : هذه الأجرام العلوية ، أو جهات العلو »[2] .

وقد نقل أبو السعود ومن قبله البيضاوي ما سبق ذكره من تفسير الزمخشري بتصرف[3]، إلا أنه لم يقل كقولهما بالاستيلاء ، ولم ينقل ذلك في تفسيره ؛ لأنَّه قال في موضع آخر بأنَّ الاستواء : « من قولك :

---

(١) الكشاف : (٥٣٠/٢) .

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل : (٤٨/١) .

(٣) انظر الكشاف : (٢٧٠/١) .

استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهاً ، لا يلوي على شيء ، وهو من الاستواء الذي هو ضدّ الاعوجاج ، ونحوه قولهم : استقام إليه ، وامتد إليه »[1] .

وأما تفسير أبي السعود الاستواء المقيّد بـ (إلى) في الموضع الثاني نجده قد نقل الكلام بنحوه من تفسير البيضاوي[2]، ومن تفسير الزمخشري أيضاً [3] .

والاستواء على العرش صفة فعلية ثابتة لله - عزّ وجلّ - بالكتاب والسنة كما يأتي :

الأدلة من الكتاب :

إنَّ هذه الصِّفة التي هي صفة الاستواء صفة كمال وجلال ، تمدّح بها ربُّ السمٰوات والأرض ، والقرينة على أنها صفة كمال وجلال أنَّ الله ماذكرها في موضع من كتابه إلا مصحوبة بما يبهر العقول من صفات جلاله وكماله[4] .

وقد ذكر الله تعالى استواءه على عرشه في سبعة مواضع من كتابه الكريم :

---

(١) الكشاف : (٤٤٥/١) .

(٢) انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل : (٣٤٩/٢) .

(٣) انظر الكشاف : (٤٤٥/٣) .

(٤) انظر الأسماء والصفات نقلاً وعقلاً للشنقيطي ص : (٢٨) .

١ - قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيْثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُوْمَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ والأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِيْنَ ﴾[1] .

٢ - قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى على الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيْعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[2] .

٣ - قال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوْقِنُونَ ﴾[3] .

٤ - قال تعالى : ﴿ طه ۞ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۞ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ۞ تَنْزِيْلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ۞ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۞ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ۞ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۞ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾[4] .

٥ - قال تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيْراً ۞ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيْراً ﴾[5] .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : (٥٤) .

(٢) سورة يونس ، الآية : (٣) .

(٣) سورة الرعد ، الآية : (٢) .

(٤) سورة طه ، الآيات : (١-٨) .

(٥) سورة الفرقان ، الآيتان : (٥٨-٥٩) .

٦ - قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۞ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۞ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[1] .

٧ - قال تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2] .

فهذه الآيات تواطأت كلّها على لفظتين : ﴿ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ، و﴿ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ ، وإنَّ النَّاظر إليها بحقٍّ لا يفهم منها إلا علوّ الله عزَّ وجلَّ على عرشه ؛ لأنَّ الاستواء المعدّى بلفظة (على) نصٌّ صريحٌ مُحْكَمٌ في العُلوّ والارتفاع[3] .

الأدلة من السنة :

١ - روى النَّسائي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ أخذ بيده ، فقال : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِيْنَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ... »[4] .

---

(١) سورة السجدة ، الآيتان : (٤-٦) .

(٢) سورة الحديد ، الآيتان : (٣ ، ٤) .

(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل : (٢٧٩/١) .

(٤) تفسير النسائي : (١٥٣/٢ ، ١٥٤ ح ٤١٢) عند تفسير سورة السجدة . والحديث قال عنه الألباني في مختصر العلو ص (١١٢) : «جيد الإسناد» .

٢ - روى أبو بكر الخَـــلَّال[١] في كتـاب السُّنـة له عن قَتَـادة بن النّعمـــان[٢] رضي الله عنـه قال سمعت رســـول الله ﷺ يقول :
« لَـمَّا فَرِغَ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ ، اسْتَوَىٰ عَلَى عَرْشِهِ »[٣] .

أقوال الأئمة وعلماء الأمة :

قال الإمام الأوزاعي[٤] : « كنّا والتابعـــون متوافرون نقـــول : إنَّ الله - تعـالى ذكره - فوق عرشـه ، ونؤمـن بما وردت السنـة به مـن صفاته جلّ وعلا »[٥] .

---

(١) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون ، المعروف بالخلاّل ، من أئمة الحنابلة من أهل بغداد ، له التصانيف الدائرة ، والكتب السائرة مثل الجامع والعلل والسُّنَّة . مات سنة ٣١١ هـ . انظر تاريخ بغداد : (١١٢/٥) ، وطبقات الحنابلة : (١٢/٢) ، وسير أعلام النبلاء : (٢٩٧/١٤) .

(٢) هو قَتَـادة بن النعمـان بن زيد بن عامـر ، أبو عمـر الأنصـاري الظَّفَـري البـدري ، الأمير المجاهد ، من نجباء الصحابة . مات رضي الله عنه سنة ٢٣ هـ . انظر أسد الغابة : (٣٨٩/٤) ، وسير أعلام النبلاء : (٣٣١/٢) ، والإصابة : (٢٢٩/٥) .

(٣) الحـديث ذكره الذهبي في كتـابه العلو للعلي الغفـار وقال عنـه : « رواته ثقـات » ، ونقله ابن القيم أيضاً في كتابه اجتماع الجيوش الإسلامية وذكر أن إسناده صحيح على شـرط البخاري . انظـر مختصـر العلو للعلي الغفـار ص : (٩٨) رقم : (٣٨) ، واجتماع الجيوش الإسلامية تحقيق د. عواد المعتق : (١٠٧/٢ ، ١٠٨) .

(٤) هو شيخ الإسـلام وعالم أهـل الشـام عبد الرحمٰن بن عمرو بن يُحْمَد ، أبو عمـرو الأوزاعي الفقيه ، مات سنة (١٥٧ هـ) . انظر تاريخ الثقات للعجلي ص : (٢٩٦) ، وسير أعلام النبلاء : (١٠٧/٧) ، وتهذيب التهذيب : (٢٣٨/٦) .

(٥) الأسماء والصفات للبيهقي ص : (٤٠٨) ، وانظر مختصر العلو ص : (١٣٧) رقم : (١٢١) ، وقد جوّد ابن حجـر العسقـلاني إسنـاده في كتـابه فتح البـاري (٤١٧/١٣) فقال : « وأخرج البيهقي بسند جيد عن الأوزاعي ... » وذكره .

سئل الإمام ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن المدني[1] عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَـٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾[2] كيف استوى ؟ قال : « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق »[3] .

وروى الإمام أبوسعيد الدارمي[4] بسنده أن رجلاً جاء إلى الإمام مالك بن أنس فقال : يا أبا عبدالله ﴿ الرَّحْمَـٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾[5] كيف استوى ؟ قال : فما رأينا مالكاً وَجَدَ[6] من شيء كوجده من

---

(١) هو ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن فرُّوخ القرشي التيمي مولاهم ، المشهور بربيعة الرأي ، أبو عثمان ، مفتي المدينة ، وشيخ الإمام مالك ، كان من أئمة الاجتهاد . تُوفِّي سنة ١٣٦ هـ انظر الطبقات الكبرى لابن سعد - القسم المتمم لتابعي أهل المدينة - ص : (٣٢٠ رقم : ٢٢٥) ، وتاريخ خليفة بن خياط ص : (٢٦٨) ، والتاريخ الكبير للإمام البخاري : (٢٨٦/٢ رقم ٩٧٦) ، وسير أعلام النبلاء : (٨٩/٦) .

(٢) سورة طه ، الآية : (٥) .

(٣) رواه اللالكائي بسنده في كتابه شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : (٣٩٨/٣) رقم : (٦٦٥) ، وانظر كتاب الأسماء والصفات للبيهقي ص : (٤٠٨ ، ٤٠٩) ، وإثبات صفة العلو لابن قدامه المقدسي ص : (١١٤) رقم : (٩٠) ، ومختصر العلو ص : (١٣٢) رقم : (١١١) ، وقال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية كما في الفتاوى (٣٦٥/٥) : «ومثل هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك » ، وقال أيضاً في الفتوى الحموية الكبرى ص (٤٥) : « رواه الخلال بإسناد كلهم أئمة ثقات » .

(٤) هو عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي السجستاني ، أبو سعيد ، الإمام العلاّمة الحافظ صاحب المسند الكبير ، كان لَهِجاً بالسنَّة بَصيراً بالمناظرة ، تُوفِّي سنة ٢٨٢ هـ انظر سير أعلام النبلاء : (٣١٩/١٣) ، والبداية والنهاية لابن كثير : (٧٧/١١) .

(٥) سورة طه : الآية ، (٥) .

(٦) وَجَدَ ، أي : تغيّظ وغضب . انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: (١٥٥/٥) ، ولسان العرب لابن منظور : (٤٧٧٠/٨) مادة (وجد) .

مقالته ، وعلاه الرُّحَضاء [1] ، وأطرق [2] ، وجعلنا ننتظر ما يأمر به فيه ، قال : ثم سُرّي [3] عن مالك ، فقال : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة، وإني لأخاف أن تكون ضالاً ، ثم أمر به فأُخرج [4] .

وقال الإمام ابن خزيمة [5] : « فنحن نؤمن بخبر الله جلّ وعلا أن خالقنا مستوٍ على عرشه ، لانبدّل كلام الله ، ولا نقول قولاً غير الذي قيل لنا » [6] .

وقال أبو الحسن الأشعري : «نقول إنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ يستوي على

---

(١) الرُّحَضاء يعني : العَرَق . انظر لسان العرب : (٣/١٦٠٨) مادة (رحض) ، والقاموس المحيط للفيروز ابادي (٢/٣٤٣) .

(٢) كذا عند الدارمي ، وفي رواية البيهقي : فأطرق مالك وأخذته الرحضاء ، وفي رواية اللالكائي : وأطرق القوم وجعلوا ينتظرون ما يأتي منه .

(٣) سُرِّي ، أي : انكشف عنه الهم . انظر النهاية : (٢/٣٦٤) ، ولسان العرب : (٤/٢٠٠٤) مادة (سرى) ، والقاموس المحيط : (٤/٣٤٤) .

(٤) انظر الرد على الجهمية لأبي سعيد الدارمي - ضمن عقائد السلف - ص: (٢٨٠)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : (٣/٣٩٨) رقم : (٦٦٤) ، وعقيدة السلف وأصحاب الحديث لأبي عثمان الصابوني ص : (١٨٢ ، ١٨٣) ، والأسماء والصفات ص : (٤٠٨) والاعتقاد والهداية ص : (٧١) كلاهما للبيهقي ، وإثبات صفة العلو لابن قدامة ص: (١١٩) رقم: (١٠٤) ، ومختصر العلو ص : (١٤١) رقم : (١٣٢) ، وفتح الباري : (١٣/٤١٧) حيث جوّد إسناده ابن حجر فقال : «وأخرج البيهقي بسند جيد عن عبد الله بن وهب قال كنا عند مالك ... » وذكره .

(٥) هو محمد بن إسحاق بن خُزَيمة ، أبو بكر السُّلمي النيسابوري الشافعي ، الحافظ الحجة شيخ الإسلام ، صاحب التصانيف . مات سنة ٣١١ هـ . انظر سير أعلام النبلاء : (١٤/٣٦٥) ، والبداية والنهاية : (١١/١٦٠) .

(٦) كتاب التوحيد لابن خزيمة ، تحقيق د. الشهوان : (١/٢٣٣) .

عرشه كما قال [استواءً] يليق به ...»[1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : «والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط من أن الله مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله ويختص به»[2] .

وجاء في مختصر العلو بعد أن ذُكر كلام الإمام مالك وشيخه ربيعة كما تقدم آنفاً :

« وهو قول أهل السنة قاطبة : أن كيفية الاستواء لا نعقلها ، بل نجهلها ، وأن استواءه معلوم كما أخبر في كتابه ، وأنه كما يليق به ، ولا نتعمّق ولا نتحذلق ، ولا نخوض في لوازم ذلك نفياً ولا إثباتاً ، بل نسكت ونقف كما وقف السلف .

ونعلم أنه لو كان له تأويل لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون ، ولما وسعهم إقراره وإمراره والسكوت عنه .

ونعلم يقيناً مع ذلك أنّ اللّه - جلَّ جلاله - لا مثل له في صفاته ، ولا في استوائه ، ولا في نزوله ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة : (٨٥) .

(٢) الفتوى الحموية الكبرى ص : (٣٣) ، وضمن مجموعة الرسائل الكبرى : (٤٣٩/١) . وانظر أقوال الأئمة وغيرهم في التدمرية : (٢٩ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٩٨) ، وشرح حديث النزول ص : (٥٠) ، ومختصر الصواعق المرسلة ص : (٣٠٦) ، وشرح الطحاوية : (٣٨٠/١) ، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : (٣٨٧/٣) ، ورسالة في الاستواء والفوقية لأبي محمد الجويني - ضمن مجموعة الرسائل المنيرية - : (١٨٢/١) .

علواً كبيراً »[1] .

وجميع فرق الأمة تقرّ بأنَّ الله استوى على عرشه حقيقة إلا الجهمية ومن وافقهم؛ فإنهم قالوا : هو مجاز، ثم اختلفوا في مجازه، وقالت فرقة منهم : هو مجمل في مجازاته يحتمل خمسة عشر وجهاً كلها لا يعلم أيها المراد ، إلا أنا نعلم انتفاء الحقيقة عنه بالعقل[2] .

وقد بيّن الإمام ابن قيم الجوزيَّة رحمه الله بطلان هذا الذي قالوه ، وردّ على أقوالهم من اثنين وأربعين وجهاً[3] .

ومعنى الاستواء : العلو ، والارتفاع ، والاستقرار ، والصعود ، كما ذكر ذلك سلف الأُمَّة وأئمتها ، ومنهم ابن عباس وأبو العالية[4] ومجاهد[5] والربيع بن أنس البكري[6]

---

(١) مختصر العلو ص : (١٤١ ، ١٤٢) .

(٢) انظر مقالات الإسلاميين ص : (٢٧٩) ، والإبانة للأشعري ص : (٨٦) ، والفَرق بين الفِرق ص : (٢١١) .

(٣) انظر مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ص : (٣٠٦-٣٢٢) .

(٤) هو رُفَيع بن مِهران ، أبو العالية الرِّياحي البصري . الإمام المقرىء الحافظ المفسِّر . أسلم في خلافة الصديق رضي الله عنه . مات سنة ٩٠ هـ . انظر الطبقات الكبرى لابن سعد : (١١٢/٧) ، وتهذيب الكمال : (٢١٤/٩) ، وسير أعلام النبلاء : (٢٠٧/٤) .

(٥) هو مجاهد بن جَبْر، أبو الحجاج المخزومي مولاهم ، الإمام شيخ القراء والمفسرين. عرض القرآن على ابن عباس رضي الله عنهما ثلاثين مرة . مات سنة ١٠٤هـ ، وقيل غير ذلك . انظر الطبقات الكبرى : (٤٦٦/٥)، وسير أعلام النبلاء : (٤٤٩/٤)، وغاية النهاية في طبقات القراء : (٤١/٢)، وطبقات المفسرين للداودي : (٣٠٥/٢) .

(٦) هو الربيع بن أنس البكري البصري الخراساني المروزي ، كان عالم مرو في زمانه ، مات سنة ١٣٩ هـ . انظر تهذيب الكمال : (٦٠/٩) ، وسير أعلام النبلاء : (١٦٩/٦) ، وتهذيب التهذيب : (٢٣٨/٣) .

والبخاري وابن قتيبة [1] وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عبدالبرّ [2] والبغوي وغيرهم [3] .

قال ابن قيّم الجوزيّة في نونيته :

فَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عَلَيْهَا أَرْبَعٌ ... قَدْ حُصِّلَتْ لِلْفَارِسِ الطَّعَّانِ
وَهِيَ اسْتَقَرَّ وَقَدْ عَلاَ وَكَذَلِكَ ارْ ... تَفَعَ الَّذِيْ مَا فِيْهِ مِنْ نُكْرَانِ
وَكَذَاكَ قَدْ صَعِدَ الَّذِي هُوَ رَابِعٌ ... وَأَبُو عُبَيْدَةَ صَاحِبُ الشَّيْبَانِي
يَخْتَارُ هَذَا القَوْلَ فِي تَفْسِيْرِهِ ... أَدْرَى مِنَ الجَهْمِيِّ بِالْقُرْآنِ [4]

---

(١) هو العلامة الكبير ذو الفنون : عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، أبو محمد الدِّيْنَوَرِي ، وقيل : المروزي ، الكاتب صاحب التصانيف ، ومنها : غريب القرآن ، وغريب الحديث ، والرّد على من يقول بخلق القرآن ، كان رأساً في علم اللسان العربي والأخبار وأيام الناس ، مات سنة ٢٧٦ هـ ، وقيل غير ذلك . انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص : (١٨٣) ، وإشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين ص : (١٧٢) ، وسير أعلام النبلاء : (٢٩٦/١٣) ، والبلغة ص : (١٢٧) .

(٢) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البرّ النَّمَري القرطبي المالكي ، أبو عمر ، الإمام العلاّمة ، حافظ المغرب ، شيخ الإسلام ، صاحب التصانيف الفائقة . ومنها الاستيعاب ، وجامع بيان العلم وفضله ، والتمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد . مات سنة ٤٦٣ هـ . انظر سير أعلام النبلاء : (١٥٢/١٨) ، والأعلام : (٢٤٠/٨) .

(٣) انظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري : (١٩١/١) ، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم : (١٠٥/١) ، والتمهيد لابن عبدالبر : (١٣١/٧) ، والإكليل في المتشابه والتأويل لشيخ الإسلام ابن تيمية - ضمن مجموع الفتاوى - : (٣١٠/١٣) ، ومختصر العلو ص : (١٧١ ، ١٩٤) ، واجتماع الجيوش الإسلامية ص : (٦٥-١٥٦) ، وفتح الباري : (٤٠٥/١٣) ، وغيرها .

(٤) القصيدة النونية بشرح د. الهراس : (٢١٥/١) .

أما شبهة القائلين بخلاف ماذكرنا آنفاً من مذهب السلف الصالح فهي قائمة على التشبيه والتأويل .

وقد بنوا اعتقادهم في عدم اتّصاف الله تعالى بصفة الاستواء على أُسسٍ وأصولٍ فاسدةٍ ، حتى تصوَّروا أَنَّ إثبات صفة الاستواء على الحقيقة يستلزم التَّشبيه والتَّجسيم .

قال أبو البركات النَّسفي في تفسيره : « وتفسير العرش بالسرير ، والاستواء بالاستقرار كما تقوله المشبّهة باطل ؛ لأنّه تعالى كان قبل العرش ولا مكان ، وهو الآن كما كان ؛ لأنَّ التغير من صفات الأكوان »[1] .

وقال القاضي عبدالجبار[2] : «الاستواء هنا بمعنى الاستيلاء والغلبة ، وذلك مشهور في اللغة ، قال الشاعر :

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ[3] عَلَى الْعِرَاقِ
مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ أَوْ دَمٍ مِهْرَاقِ[4] »[5]

---

(١) مدارك التنزيل : (٢/٥٦) .

(٢) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني ، أبو الحسين ، قاضٍ أصولي شيخ المعتزلة في عصره ، له المحيط بالتكليف وتنزيه القرآن عن المطاعن وشرح الأصول الخمسة . مات سنة ٤١٥ هـ انظر تاريخ بغداد : (١١/١١٣) ، والأعلام : (٣/٢٧٣) .

(٣) هو بِشر بن مروان بن الحكم الأموي ، كان أخا عبد الملك بن مروان ، وكان بشر أميراً على العراق . مات سنة ٧٥ هـ . انظر تاريخ خليفة بن خياط ص : (٢٧٣) ، وسير أعلام النبلاء : (٤/١٤٥) .

(٤) قائل هذا البيت غير معروف . انظر لسان العرب : (٤/٢١٦٣) مادة (سوا) ، ومختصر الصواعق ص : (٣١٢) ، وتبصرة الأدلة : (١/١٨٤) .

(٥) شرح الأصول الخمسة : (٢٢٦) .

ولا شك أنَّ هذه التأويلات والشبهات مخالفة لعقيدة السلف الصالح ، وللغة العرب الصحيحة .

جاء في مختصر الصواعق المرسلة : « إنَّ لفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله تعالى بلغتهم ، وأنزل بها كلامه نوعان : مطلق ومقيد .

فالمطلق : مالم يوصل معناه بحرف مثل قوله : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ﴾[1]، وهذا معناه : كمل وتمّ ، يقال : استوى الطعام .

وأما المقيّد : فثلاثة أضراب :

أحدها : مقيّد بإلى ، كقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴾[2]، واستوى فلان إلى السطح وإلى الغرفة ، وقد ذكر سبحانه هذا المعدّى بإلى في موضعين من كتابه ، في البقرة في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[3] ، والثاني في سورة السجدة[4] : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾[5] ، وهذا بمعنى العلو والارتفاع بإجماع السلف .

---

(١) سورة القصص ، الآية : (١٤) .

(٢) سورة البقرة ، الآية : (٢٩) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (٢٩) .

(٤) كذا ، والصحيح : في سورة فصلت .

(٥) سورة فصلت ، الآية : (١١) .

والثاني : مقيّـد بعلى، كقوله : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾[1]، وقوله : ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيّ﴾[2]، وقوله : ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾[3]، وهذا أيضاً معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة .

والثالث : المقـرون بواو(مع) التي تعـدي الفعـل إلى المفعول معه ، نحو : استوى الماء والخشبة بمعنى ساواها .

وهـذه معـاني الاستواء المعقولة في كلامهم ، ليس فيهـا معنى استولى ألبتَّه ، ولا نقله أحد من أئمة اللغة الذين يعتمد قولهم ، وإنما قاله متأخرو النُّحاة ممن سلك طريق المعتزلة والجهمية »[4] .

وقد ردّ شيخ الإسلام ابن تيميَّة على من أَوّل استوى بمعنى استولى، وأبطل تأويلهم من اثني عشر وجهاً[5] .

وأمـا استـدلالهم بالشعـر المذكور آنفـاً ، فيقـال : إنَّ هـذا البيت الأخير من الشعر يُجاب عليه بعدة أجوبة منها :

١ - إن هذا المعنى غير معروف في اللغـة ، فقد روى اللالكائي[6]

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : (١٣) .

(٢) سورة هـــود ، الآية : (٤٤) .

(٣) سورة الفتـح ، الآية : (٢٩) .

(٤) مختصر الصواعق المرسلة ص : (٣٠٦) .

(٥) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : (١٤٤/٥-١٤٩) .

(٦) هو هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي الشافعي اللالكائي ، أبو القاسم ، الإمام الحافظ المجَوِّد المفتي ، مفيد بغداد في وقته . مات سنة ٤١٨ هـ . انظر تاريخ بغداد : (٧٠/١٤) ، وسير أعلام النبلاء : (٤١٩/١٧) .

أن ابن أبي دُؤَاد[1] سأل ابن الأعرابي[2] : أتعرف في اللغة استوى بمعنى استولى ؟ فقال : لا أعرف[3] .

وروى اللالكائي أيضاً أن رجلاً أتى ابن الأعرابي فقال له : « مامعنى قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾[4] ؟ فقال : هو على عرشه كما أخبر عزَّ وجلَّ .

فقال : يا أبا عبدالله ليس هذا معناه ، إنما معناه : استولى . فقال : اسكت ، ما أنت وهذا ، لا يقال : استولى على الشيء إلا أن يكون مضاداً ، فإذا غلب أحدهما قيل : استولى ، أما سمعت النابغة[5] :

إلا لمِثْلِكَ أَوْ مَنْ أنتَ سَابِقُهُ

سَبْقَ الجَوادِ إِذَا اسْتَوْلَى عَلَى الأَمَدِ[6] »[7]

---

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد فرج بن جرير الإيادي القاضي ، كان شاعراً فصيحاً ، وكان جهمياً مبغضاً للسنة ، مات سنة ٢٤٠ هـ . انظر وفيات الأعيان : (٨١/١) ، وميزان الاعتدال : (٩٧/١) ، وشذرات الذهب : (٩٣/٢) .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن زياد بن الأعرابي الهاشمي مولاهم، إمام في اللغة ، له مصنفات في الأدب والتاريخ والقبائل . مات سنة ٢٣١ هـ . انظر إشارة التعيين ص : (٣١١) ، وسير أعلام النبلاء : (٦٨٧/١٠) ، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة ص : (١٩٦) .

(٣) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : (٣٩٩/٣) رقم : (٦٦٧) .

(٤) سورة طه ، الآية : (٥) .

(٥) هو زياد بن معاوية بن ضباب الذُّبْيَاني الغطفاني المضري ، أبو أمامة ، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى لُقِّب بالنَّابِغَة لنبوغه في الشعر وإكثاره منه . مات نحو ٦٠٤ م . انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص : (٦١) ، والأعلام : (٥٤/٣) .

(٦) ديوان النابغة الذبياني ص : (٣٣) .

(٧) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : (٣٩٩/٣ رقم : ٦٦٦) ، وانظر فتح الباري (٤١٧/١٣) ، ولسان العرب لابن منظور : (٢١٦٤/٤) (سوا) .

٢- إن هذا البيت غير معروف قائله ، ولا هو موجود في دواوين العرب وأشعارهم[١] .

٣ - إنه لو صحّ هذا البيت لم يكن فيه حجة عليهم ، وهو على معنى حقيقة الاستواء ؛ فإن بِشْراً هذا كان أخا عبدالملك بن مروان[٢] ، وكان أميراً على العـراق ، فاستوى على سـريرها ، كمـا هو عادة الملوك ونوابهـا أن يجلسوا فوق سرير الملك مستوين عليـه ، وهذا هو المطابق لمعنى هذه اللفظة في اللغة[٣] .

---

(١) انظر مجموع الفتاوى : (١٤٦/٥) ، ومختصر الصواعق ص : (٣٠٦ ، ٣١٢) .

(٢) هو عبـد الملك بن مـروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميـة ، أبو الوليـد القـرشي الأموي ، الخليفة الفقيه . أول من ضرب الدنانير . مات سنة ٨٦ هـ . انظر الطبقات الكبرى لابن سعد : (٢٢٣/٥) ، وتاريخ بغداد : (٣٨٨/١٠) ، وتهـذيب الكمال : (٤٠٨/١٨) ، وسير أعلام النبلاء : (٢٤٦/٤) .

(٣) انظر مختصر الصواعق المرسلة ص : (٣١٢ ، ٣١٣) .

صِفَةُ الْكَلَامِ

العرض :

قال أبو السعود عند قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّيْنَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوْبَ وَالأَسْبَـاطِ وَعِيْسَى وَأَيُّـوْبَ وَيُـوْنُسَ وَهَارُوْنَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ۞ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيْماً ﴾[1] :

« تكليماً : مصدر مؤكد رافع لاحتمال المجاز . قال الفراء[2] : العرب تسمي ماوصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل ، مالم يؤكد بالمصدر ، فإذا أُكّد به لم يكن إلا حقيقة الكلام ، والجملة إما معطوفة على قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ عطف القصة على القصة لا على ﴿ آتَيْنَا ﴾ وما عطف عليه ، وإما حال بتقدير ﴿ قَدْ ﴾ ، كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات ، والمعنى : أن التكليم بغير واسطة منتهى مراتب الوحي ، خصّ به موسى من بينهم ، فلم يكن ذلك قادحاً في نبوة سائر الأنبياء عليهم السلام ، فكيف يتوهم كون نزول التوراة عليه - عليه السلام - جملة قادحاً في صحة نبوة من أنزل عليه الكتاب مفصلاً ، مع ظهور أن نزولها كذلك لحكم مقتضية

---

(١) سورة النساء ، الآيتان : (١٦٣ ، ١٦٤) .

(٢) هو يحيى بن زياد بن عبد الله ، أبو زكريا الفرّاء الديلمي ، مولى بني أسد ، إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب ، له معاني القرآن ، وكتاب اللغات ، والمقصور والممدود . مات سنة ٢٠٧ هـ . انظر إشارة التعيين ص : (٣٧٩) ، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة ص : (٢٣٨) ، والأعلام : (١٤٥/٨) .

لذلك ، من جملتها أن بني إسرائيل كانوا في العناد وشدة الشكيمة ، بحيث لو لم يكن نزولها كذلك لما آمنوا بها ، ومع ذلك ما آمنوا بها إلا بعد اللُّتيّا والَّتي ، وقد فَضَّل الله تعالى نبيّنا محمداً صلى الله عليه وسلم بأن أعطاه مثل ماأعطى كلّ واحد منهم صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً »[1] .

وقال عند قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾[2]:

« وكلَّمَهُ رَبُّه من غير واسطة ، كما يكلِّم الملائكة عليهم السلام ... على أنَّ سماع كلامه عزَّ وجلَّ ليس من جنس كلام المحْدَثين »[3] .

وقال عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ يَشْتَرُوْنَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيْلاً أُوْلَئِكَ لاَخَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾[4] :

« أي : بما يسرُّهم ، أوبشيء أصلاً ، وإنما يقع مايقع من السؤال والتوبيخ والتقريع في أثناء الحساب من الملائكة عليهم ، أو لا ينتفعون بكلمات الله تعالى وآياته ، والظاهر أنَّه كناية عن شِدَّة غضبه وسخطه نعوذ بالله من ذلك »[5] .

---

(١) إرشاد العقل السليم : (٢/٢٥٦) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : (١٤٣) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (٣/٢٦٩) .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : (٧٧) .

(٥) إرشاد العقل السليم : (٢/٥١) . وكذا قال عند قوله تعالى : ﴿ وَلاَيُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : (١٧٤)] قال في تفسيرها (١/١٩٢) : « عبارة عن غضبه العظيم عليهم ، وتعريض بحرمانهم ما أتيح للمؤمنين من فنون الكرامات السنية والزلفى » .

النقــد :

ذكر أبو السعود أنَّ الكلام على حقيقتــه ، ولا يحتمـل المجاز ؛ لأنَّه مؤكّد بالمصــدر ، وتكليم الله تعــالى بغير واسطة منتهى مــراتب الوحي ، وأنَّ سماع كلامـه عزَّ وجلَّ ليس مِـن جنس كلام المحْدَثين ، وقد خُصّ به موسى عليه السَّلام .

وهـذا يدلّ على أنَّه يثبت صفـــة الكلام لله تعـالى ، ولا يؤوّلها ، ولا يقول بالمجاز فيها . وقوله في الموضع الأخير يُحمل على عدم حصول الكلام ، حيث إنَّ عدم التكليم كعدم الرضا ، كما أنَّه تعالى لا ينظر إليهم ، مع أنَّه تعالى يراهم ، أي نظراً معيناً .

وكلام الله صفة ذاتية اختيارية ، ومن اعتقاد أهل السنة والجماعة أنَّ الله عزَّ وجلَّ يتكلَّم ويقول ويتحدَّث ويُنـادي ، وأنَّ كلامـه بصوت وحرف ، وأنَّ القـرآن كلامـه منزَّل غير مَخْلُوق ، وقد استـدلوا بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة .

فمن القرآن الكريم :

قـوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾[1] .

وقوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِـنَ الْمُشْـرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَـــعَ كَلاَمَ اللَّهِ ﴾[2] .

وقوله تعـالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ البَحْـرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتـِ رَبِّي لَنَفِدَ

(١) سورة النساء ، الآية : (١٦٤) .

(٢) سورة التوبة ، الآية : (٦) .

الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِىءِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوْسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِيْنَ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيْثاً ﴾[3] .

ومن السنة :

روى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « احْتَجَّ آدَمُ وَمُوْسَى ، فَقَالَ مُوْسَى : يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُوْنَا خَيَّبْتَنَا ، وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجَنَّةِ ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ : أَنْتَ مُوْسَى ، اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ ، أَتَلُوْمُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِيْ بِأَرْبَعِيْنَ سَنَةٍ ؟» . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « فَحَجَّ آدَمُ مُوْسَى »[4] .

وروى الإمام البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك : « وَلَشأْنِي كَانَ أَحْقَرَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ عزَّ وَجَلَّ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى »[5].

وروى الإمام البخاري بسنده عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيّ رضي الله عنه

---

(١) سورة الكهف ، الآية : (١٠٩) .

(٢) سورة القصص ، الآية : (٣٠) .

(٣) سورة النساء ، الآية : (٨٧) .

(٤) الصحيح ، كتاب القدر - باب حجاج آدم وموسى : (٢٠٤٢/٤ ح ٢٦٥٢) .

(٥) انظر الصحيح كتاب المغازي - باب حديث الإفك (٤٩٩/٧ ح ٤١٤١)، وانظر صحيح مسلم : كتاب التوبة - باب في حديث الإفك (٢١٣٥/٤ ح ٢٧٧٠) .

قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يَقُوْلُ اللّهُ : يَا آدَمُ ! فَيَقُوْلُ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، فَيُنَادَىٰ بِصَوتٍ : إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثاً إِلَى النَّارِ »[1] .

وفي ترجمة الباب قال البخاري تعليقاً : ويذكر عن جابر عن عبدِ اللّهِ بنِ أُنَيْس[2] قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « يَحْشُرُ اللّهُ الْعِبَادَ فَيُنَادِيْهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَن بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ : أَنَا المَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ »[3] .

وقال الإمام البخاري أيضاً : « وإن الله عز وجل ينادي بصوت يسمعه مَن بَعُد كما يسمعه مَن قَرُب ، فليس هذا لغير الله جلّ ذِكْرِه ، وفي هذا دليل أنَّ صوت الله لا يشبه أصوات الخَلْق ؛ لأنَّ صوتَ اللّهِ جلّ ذِكْرِه يسمع من بعد كما يسمع من قرب ، وأنَّ الملائكة يصعقون من صوته ، فإذا تنادى الملائكة لم يصعقوا »[4] .

---

(١) صحيح البخاري ؛ كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ (٦٦٢/١٣ ح ٧٤٨٣) .

(٢) هو عبد الله بن أُنيس الجهني ، أبو يحيى المدني ، شهد العقبة وأحداً والخندق ومابعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ. مات بالشام سنة ٨٠ هـ وقيل : ٥٤ هـ انظر أسد الغابة : (١٧٩/٣) ، وتهذيب الكمال : (٣١٣/١٤) ، والإصابة : (٣٧/٤) .

(٣) صحيح البخاري : (٤٦١/١٣) ، وانظر الأدب المفرد للبخاري ص : (٣٣٧ ح ٩٧٠) ، وخَلْق أفعال العباد ص : (١٤٩ ح ٤٦٣) ، والمسند للإمام أحمد : (٤٩٥/٣) ، والمستدرك للحاكم : (٤٣٨/٢ ، ٥٧٤/٤) ، وتغليق التعليق على صحيح البخاري لابن حجر : (٣٥٥/٥) . الحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وشرحه شيخ الإسلام ابن تيمية شرحاً مفصلاً كما في الفتاوى : (٥١٣/٦ - ٥٤٤) .

(٤) خَلْق أفعال العباد ص : (١٤٩) .

والناس لهم في مسمى الكلام أربعة أقوال :

قيل : إنه اسم للفظ الدال على المعنى .

وقيل : للمعنى المدلول عليه باللفظ .

وقيل : اسم لكل منهما بطريق الاشتراك .

وقيل : اسم لهما بطريق العموم ، وهذا مذهب السلف والفقهاء والجمهور ، فإذا قيل : تكلم فلان : كان المفهوم منه عند الإطلاق اللفظ والمعنى جميعاً . وإذا سمي المعنى وحده كلاماً ، أو اللفظ وحده كلاماً ، فإنما ذاك مع قيد يدلّ على ذلك ، وإنَّ الكلام عند الإطلاق هو المعنى واللفظ جميعاً ، والقرآن والحديث مملوء من آيات الكلام للّه تعالى ، فكان المفهوم من ذلك هو إثبات اللفظ والمعنى لله تعالى[1] .

وقال قوَام السُّنة الأصبهاني[2] : « وخاطر أبو بكر رضي الله عنه - أي راهن قوماً من أهل مكة - فقرأ عليهم القرآن . فقالوا : هذا من كلام صاحبك . فقال : ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ، ولكنه كلام الله تعالى . ولم ينكر عليه أحد من الصحابة .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر : إن هذا القرآن

---

(١) انظر مجموع الفتاوى : (٥٣٣/٦) .

(٢) هو إسماعيل بن محمد بن الفضل التّيمي الأصبهاني ، أبو القاسم ، شيخ الإسلام ، المُلقّب بقِوَام السُّنة . تُوفِّي سنة ٥٣٥ هـ . انظر سير أعلام النبلاء : (٨٠/٢٠) ، والبداية والنهاية : (٢٣٣/١٢) .

كلام الله .

فهو إجماع الصحابة ، وإجماع التابعين بعدهم مثل سعيد بن المسيب[1] وسعيد بن جبير[2] والحسن[3] والشعبي[4] وغيرهم ممن يطول ذكرهم أشاروا إلى أن كلام الله هو المتلو في المحاريب والمصاحف ...

وفي قول أبي بكر رضي الله عنه : « ليس بكلامي ، ولا بكلام صاحبي ، إنما هو كلام الله تعالى » ، إثبات الحرف والصوت ؛ لأنه إنما تلا عليهم القرآن بالحرف والصوت »[5].

---

(١) هو سعيد بن المسيب بن حَزْن بن أبي وهب بن عمرو القرشي المخزومي ، سيّد التابعين ، وأحد العلماء الأثبات . مات سنة ٩٣ هـ ، وقيل ٩٤ هـ . انظر الطبقات الكبرى لابن سعد : (٣٧٩/٢) ، وتهذيب الكمال : (٦٦/١١) ، وسير أعلام النبلاء : (٢١٧/٤) .

(٢) هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي مولاهم الكوفي ، أبو محمد ، تابعي ثقة ثبت فقيه ، تتلمذ على يد ابن عباس رضي الله عنهما . قتله الحجّاج صبراً سنة ٩٥ هـ انظر تهذيب الكمال : (٣٥٨/١٠) ، وسير أعلام النبلاء : (٣٢١/٤) ، وتقريب التهذيب ص : (٢٣٤) .

(٣) هو الحسن بن أبي الحسن البصري ، أبو سعيد ، واسم أبيه : يسار الأنصاري مولاهم كان الحسن من أعلم الناس بالحلال والحرام . مات سنة ١١٠ هـ . انظر الطبقات الكبرى : (١٥٦/٧) ، وتهذيب الكمال : (٩٥/٦) ، وسير أعلام النبلاء : (٥٦٣/٤) .

(٤) هو عامر بن شراحيل الشعبي ، أبو عمرو ، ثقة مشهور فقيه فاضل . قال مكحول: مارأيت أفقه منه . أدرك ٥٠٠ من الصحابة . مات سنة ١٠٤ هـ . انظر الطبقات الكبرى : (٢٤٦/٦) ، وتهذيب الكمال : (٢٨/١٤) ، وسير أعلام النبلاء : (٢٩٤/٤) .

(٥) الحجة في بيان المحجة لأصبهاني : (٣٣١/١ ، ٣٣٢) ، وقال رحمه الله تعالى في الكتاب نفسه : « فصل في إثبات النداء صفة لله عزّ وجلّ »، ثم سَرَد جملة من الآيات والأحاديث . انظر منه : (٢٦٩/١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة : « واستفاضت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة السنة أنه سبحانه ينادي بصوت : نادى موسى ، وينادي عباده يوم القيامة بصوت ، ويتكلم بالوحي بصوت ، ولم ينقل عن أحد من السلف أنه قال : إن الله يتكلم بلا صوت أو بلا حرف ، ولا أنه أنكر أن يتكلم الله بصوت أو بحرف ، كما لم يقل أحد منهم : إنَّ الصوت الذي سمعه موسى قديم ، ولا أنَّ ذلك النِّداء قديم ، ولا قال أحد منهم : إنَّ هذه الأصوات المسموعة من القراء هي الصوت الذي تكلم الله به ؛ بل الآثار مستفيضة عنهم بالفرق بين الصوت الذي يتكلم الله به وبين أصوات العباد »[1] .

وقال شيخ الإسلام أيضاً : « فإثبات الحرف والصوت بمعنى : أنَّ المداد وأصوات العباد قديمة بدعة باطلة لم يذهب إليه أحد من الأئمة ، وإنكار تكلم الله بالصوت وجعل كلامه معنى واحداً قائماً بالنفس بدعة باطلة لم يذهب إليها أحد من السلف والأئمة ، والذي اتفق عليه السلف والأئمة : أنَّ القرآن كلام اللَّه منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود »[2] .

وقال ابن قيم الجوزيَّة على لسان معطّل يعترض على ما يثبته

---

(١) مجموع الفتاوى : (١٢/٣٠٤ ، ٣٠٥) .

(٢) مجموع الفتاوى : (٦/٥٢٨) ، وفيه أن معنى قولهم : منه بدأ ، أي : هو المتكلم به فمنه بدأ ، لا من بعض المخلوقات ، ومعنى قولهم : إليه يعود ، أي : إنه يُرفع من الصدور والمصاحف ، فلا يبقى في الصدور منه آية ولا منه حرف كما جاء في عدة آثار .

السُّـــنّي :

« وَزَعَمْتَ أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَ عَبْـــدَهُ ... مُوْسَى فَأَسْمَعَـــهُ نِدَا الرَّحْمَـٰـنِ
أَفَتَسْمَعُ الآذَانُ غَيْرَ الحَرْفِ وَالصَّـ ... ـوْتِ الَّذِيْ خُصَّتْ بِهِ الأُذُنَـــانِ
وَكَذَا النِّدَاءُ فَإِنَّهُ صَـوْتٌ بِإِجْـــ ... ـمَاعِ النُّحَـــاةِ وَأَهْلِ كُلِّ لِسَانِ
لَكِنَّهُ صَـــــوْتٌ رَفِيْعٌ وَهوَ ضِـــ ... ـدٌّ لِلنِّجَاءِ كِلاَهُمَا صَوْتَانِ »[1]

وقال الطحاوي[2] : « وإن القرآن كلام الله ، منه بدا بلا كيفية قولاً ، وأنزله على رسوله وحياً ، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً ، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية ، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر ، حيث قال تعالى : ﴿ سَأُصْلِيْهِ سَقَرَ ﴾[3] ، فلما أوعد الله بسقر لمن قال : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾[4] ، علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ، ولا يشبه قول البشر »[5].

والحاصل أنَّ أبا السعود يثبت صفة الكلام لله تعالى ، ولايؤوّلها ، ولا يقول بالمجاز فيها ، وهو في ذلك يوافق منهج السلف الصالح .

---

(١) القصيدة النونية بشرح د. الهراس : (٨٢/١) .

(٢) هو أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي ، أبو جعفر الطحاوي الحنفي المصري ، صاحب التصانيف ، الإمام العلاّمة الحافظ الكبير ، محدّث الديار المصرية وفقيهها . مات سنة ٣٢١ هـ . انظر سير أعلام النبلاء : (٢٧/١٥) ، والبداية والنهاية : (١٨٦/١١) .

(٣) سورة المدثر ، الآية : (٢٦) .

(٤) سورة المدثر ، الآية : (٢٥) .

(٥) شرح الطحاوية ، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة : (٢٠٥/١) .

صِفَةُ الحَيَاءِ

العرض :

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَايَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾[1] :

« شروع في تنزيه ساحة التَّنزيل عن تعلّق ريب خاص اعتراهم من جهة ما وقع فيه من ضرب الأمثال ، وبيان لحكمته ، وتحقيق للحقِّ إثر تنزيهها عما اعتراهم من مطلق الرَّيب بالتحدي ، وإلقام الحجر ، وإفحام كافة البلغاء من أهل المدر والوبر ... والحياء : تغيّر النَّفس وانقباضها عمَّا يُعاب به ، أو يُذمّ عليه ، يقال : حيي الرجل وهو حيي ، واشتقاقه من الحياة اشتقاق شظى وحشى ونسى ، من الشظي والنسي والحشي ، يقال : شظى الفرس ونسى وحشى إذا اعتلّت منه تلك الأعضاء ، كأَنَّ من يعتريه الحيا تعتلّ قوته الحيوانية وتنتقص ، واستحيا بمعناه خلا أنَّه يتعدَّى بنفسه وبحرف الجر ، يقال : استحييته واستحييت منه ، والأول لا يتعدَّى إلا بحرف الجرّ ، وقد يحذف منه إحدى الياءين ... فكما أنّه أسند إليه سبحانه بطريق الإيجاب في مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ يَسْتَحْيِي مِنْ ذِيْ الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ أَنْ يُعَذِّبَهُ »[2] ، وقوله عليه السلام :

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (٢٦) .

(٢) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً . رواه السيوطي بنحوه في الجامع الكبير ، وله طرق أخرى ، فرواه ابن النجار في تاريخه، والبيهقي في الزهد ، وقال ابن حبان إنه باطل لا أصل له . انظر اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي : (١٣٣/١) ، وكشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني : (٢٤٤/١ ح ٧٤١) .

« إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيْمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ الْعَبْدُ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْراً حَتَّى يَضَعَ فِيْهِمَا خَيْراً »[1] ، يُراد به التَّرك الخاص على طريقة التَّمثيل ، حيث مثّل في الحديثين الكريمين تركه تعذيب ذي الشّيبة وتخييب العبد من عطائه بترك من يتركهما حياءً ، كذلك إذا نفى عنه تعالى في المواد الخاصة كما في هذه الآية الشريفة ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَايَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ ﴾[2] ، يُراد به سلب التَّرك الخاص المضاهي لترك المستحى عنه لا سلب وصف الحياء عنه تعالى رأساً كما في قولك : إن الله لايوصف بالحياء ؛ لأن تخصيص السلب ببعض المواد يوهم كون الإيجاب من شأنه تعالى في الجملة ، فالمراد ههنا عدم ترك ضرب المثل المماثل لترك من يستحى من ضربه ، وفيه رمز إلى تعاضد الدواعي إلى ضربه ، وتآخذ البواعث إليه ، إذ الاستحياء إنما يتصور في الأفعال المقبولة للنفس المرضية عندها ، ويجوز أن يكون وروده على طريقة المشاكلة »[3] .

---

(١) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه رواه أبو داود بنحوه في سننه في كتاب الصلاة - باب الدعاء : (١٦٥/٢ ح ١٤٨٨) ، وانظر أيضاً سنن الترمذي في كتاب الدعوات - باب ١٠٥ : (٥٢٠/٥ ح ٣٥٥٦) ، وسنن ابن ماجه في كتاب الدعاء - باب رفع اليدين في الدعاء : (١٢٧١/٢ ح ٣٨٦٥) ، وعندهما بلفظ : « صِفْراً خَائِبَتَيْنِ » ، وقال الترمذي عقبه : « هذا حديث حسن غريب » ، وصحح إسناده الألباني في صحيح سنن أبي داود : (٢٧٨/١ ح ١٣٢٠) .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية : (٥٣) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (٧١/١ ، ٧٢) .

النقــد :

مما تقدم من النقول يظهر - والله أعلم - أنَّ أبا السعود يثبتُ صفة الحياء لله تعالى ، وإن كان يوجد في بعض نقوله بعض العبارات الموهمة التي تدل على التأويل أو هي في الحقيقة حيلة على التأويل .

والحياء صفةٌ ثابتةٌ للَّه عزَّ وجلَّ بالكتاب والسُّنة .

فأما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾[2] .

وأما السنة فقد روى الإمام أبو داود بسنده عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْراً »[3] .

وقال الإمام ابن قيم الجوزية :

« وَهُوَ الْحَيِيُّ فَلَيْسَ يَفْضَحُ عَبْدَهُ
عِنْدَ التَّجَاهُرِ مِنْهُ بِالْعِصْيَانِ
لَكِنَّهُ يُلْقِي عَلَيْهِ سِتْرَهُ
فَهُوَ السِّتِّيرُ وَصَاحِبُ الْغُفْرَانِ »[4]

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (٢٦) .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية : (٥٣) .

(٣) الحديث سبق تخريجه .

(٤) القصيدة النونية مع شرحها : (٢/٨٦) .

وقال الدكتور الهرَّاس في شرحه : « وحياؤه تعالى وَصْفٌ يليق به ليس كحياء المخلوقين الذي هو تغيّر وانكسار يعتري الشخص عند خوف ما يُعاب أو يُذمّ ، بل هو ترك ما ليس يتناسب مع سعة رحمته وكمال جوده وكرمه وعظيم عفوه وحِلْمه ، فالعبد يجاهره بالمعصية مع أنَّه أفقر شيء إليه ، وأضعفه لديه ، ويستعين بنعمه على معصيته ، ولكن الربَّ سبحانه مع كمال غناه ، وتمام قدرته عليه يستحي من هتك ستره وفضيحته ، فيستره بما يهيئه له من أسباب السِّتر ، ثم بعد ذلك يعفو عنه ويغفر »[1] .

(١) شرح القصيدة النونية : (٨٦/٢) .

بَدِيْعُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ

العرض :

قال أبو السعود عند قوله تعالى : ﴿ بَدِيْعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُوْلُ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ ﴾[1] :

« بديع السمٰوات والأرض ، أي : مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه ، ولا قانون ينتحيه ؛ فإنَّ البديعَ كما يُطلق على المبتدِع يُطلق على المبتدَع ، نصَّ عليه أساطين أهل اللغة ، وقد جاء بَدَعَه كمنعه ، بمعنى أنشأه كابتدعه ، كما ذكر في القاموس وغيره[2] ، ونظيره السميع بمعنى المسمِع في قوله : أَمِنْ رَيْحَانة الدَّاعي السميع ، وقيل : هو من إضافة الصِّفة المشبّهة إلى فاعلها للتخفيف بعد نصبه على تشبيهها باسم الفاعل كما هو المشهور ، أي : بديع سمٰواته ، من بدع إذا كان على شكل فائق وحسن رائق ، وهو حجة أخرى لإبطال مقالتهم الشَّنعاء تقريرها أنَّ الوالد عنصر الولد المنفعل بانفصال مادته عنه ، والله سبحانه مُبْدِع الأشياء كلّها على الإطلاق ، منزّه عن الانفعال ، فلا يكون والداً »[3] .

(١) سورة البقرة ، الآية : (١١٧) .

(٢) انظر القاموس المحيط : (٣/٣) ، والنهاية : (١٠٦/١) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (١٥١/١) ، وبنحوه عند تفسير سورة الأنعام - الآية (١٠١) ، وانظر منه أيضاً : (١٦٨/٣ ، ١٦٩) .

النقـــد :

مـا ذكره أبو السعود عن صفـة بديع السمٰوات والأرض ، ومـا نقله عن علماء اللغة وأهل اللسان هو الحقّ ، ويمكن إضافة ما يأتي :

يوصف اللّٰه عزَّ وجلَّ بأنَّه بديع السمٰوات والأرض وما فيهن ، وهي صفة ثابتة له بالكتاب والسنة .

فمن الكتاب بالإضافة إلى ما سبق قوله تعالى :

﴿ بَدِيْعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُوْنُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَـــاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ ﴾[1] .

ومن السُّنَّة :

ما رواه الإمام ابن ماجه بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سَمِع النبيُّ صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول :

اللهم إنِّي أســألك بِأَنَّ لك الحمد ، لا إله إلا أنت وحدك لا شــــريك لك ، المنَّان ، بديع السمٰوات والأرض ، ذو الجلال والإكرام .

فقال صلى الله عليه وسلم : « لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَم الَّذِيْ إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَىٰ ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ »[2] .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : (١٠١) .

(٢) السنن في كتاب الدعاء - باب اسم الله الأعظم : (١٢٦٨/٢ ح ٣٨٥٨) ، وانظر سنن أبي داود في كتاب الصلاة - باب الدعاء : (١٦٧/٢ ح ١٤٩٥) ، وسنن النسائي في كتاب السهو - باب الدعاء بعد الذكر : (٥٢/٣ ح ١٣٠٠) ، وقال عنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه : (٣٢٩/٢ ح ٣١١٢) بأنه حسن صحيح .

وقال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي[1] في تفسيره : « بديع السمٰوات والأرض ، أي : خالقهما ومبدعهما في غاية ما يكون من الحسن والخلق البديع والنظام العجيب المحكم »[2] .

(١) هو عبد الرحمن بن ناصر بن حمد آل سعدي التميمي النجدي الحنبلي ، أبو عبد الله ، الشيخ المحقّق علّامة القصيم ، له مصنَّفَات كثيرة منها تفسيره المسمّى تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن ، والقول السّديد في مقاصد التوحيد ، والفتاوى السعدية . مات سنة ١٣٧٦ هـ . انظر مقدّمة تحقيق الفواكه الشهية في الخطب المنبرية له بتحقيق إبراهيم بن عبد الله الحازمي ص : (٧ - ١٢) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : (٥/٦٢٨) .

الاستهـــــزاء

العرض :

قال أبو السعـــود في تفسير قوله تعـــالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْـــزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُوْنَ ﴾[1] :

« أي يجازيهم على استهزائهم ، سُمي جزاؤه باسمه ، كما سمي جزاء السَّيّئة سيِّئة للمشاكلة في اللفظ ، أو المقارنة في الوجود ، أو يرجع وبال الاستهـــزاء عليهم ، فيكون كالمستهـــزىء بهم ، أو ينزل بهم الحقـــارة والهوان الذي هو لازم الاستهـــزاء ، أو يعـــاملهم معـــاملة المستهـــزىء بهم ، أمـــا في الدنيـــا فبـــإجراء أحكام المسلمين عليهم واستـدراجهم بالإمهـال والزيادة في النعمـة على التمـادي في الطغيـان ، وأما في الآخرة فبما يروى أنه يفتح لهم باب إلى الجنـــة فيسرعون نحوه ، فإذا صاروا إليه سدّ عليهم البـاب[2] ، وذلك قوله تعـــالى : ﴿ فَالْيَوْمَ

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (١٥) .

(٢) قال أبو صالح : يُقال لأهل النار وهم فيها : اخرجوا ، وتفتح لهم أبوابها ، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليهـا يريدون الخـروج ، والمؤمنون ينظـرون إليهم على الأرائك ، فإذا انتهوا إلى أبوابهـا غلقت دونهم ، فذاك هو سبب الضحـك . انظـر الكشـاف : (٢٣٣/٤) ، والتفسير الكبير للرازي : (٩٣/٣١) ، وأنوار التنزيل : (٥٧٩/٢) . وروى البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣١٠ ح ٦٧٥٧) عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم : « إِنَّ الْمُسْتَهْـزِئِيْنَ بِالنَّـاسِ يُفْتَحُ لأَحَـدِهِمْ بَابٌ فِي الجَنَّـةِ ، فَيُقَالُ لَهُ : هَلُمَّ هَلُمَّ ، فَيَجِيْءُ بِكَرْبِهِ وَغَمِّهِ ، وَإِذَا جَاءَ أُغْلِقَ دُوْنَهُ ، فَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ يُفْتَحُ لَهُ البَّابُ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ ، فَيُقَالُ لَهُ : هَلُمَّ ، فَمَا يَأْتِيْهِ مِنَ الإِيَاسِ » . وانظـر الترغيب والترهيب للمنـذري : (٦١١/٣) ، والدرّ المنثور في التفسير المأثور للسيوطي : (٧٨/١) .

الَّذِيْنَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُوْنَ ﴾[1] ، وإنما استؤنف للإيذان بأنهم قد بلغوا في المبالغة في استهزاء المؤمنين إلى غاية ظهرت شناعته عند السامعين ، وتعاظم ذلك عليهم حتى اضطرهم إلى أن يقولوا : مامصير أمر هؤلاء ؟ وما عاقبة حالهم ؟ وفيه أنه تعالى هو الذي يتولى أمرهم ، ولايحوجهم إلى المعارضة بالمثل ، ويستهزىء بهم الاستهزاء الأبلغ الذي ليس استهزاؤهم عنده من باب الاستهزاء ، حيث ينزل بهم من النَّكال ، ويحلّ عليهم من الذُّلِّ والهوان مالايوصف ، وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدُّد والاستمرار ، كما يعرب عنه قوله عز قائلاً : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُوْنَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْن ﴾[2] ، وما كانوا خالين في أكثر الأوقات من تهتك أستار ، وتكشف أسرار ، ونزول في شأنهم واستشعار حذر من ذلك ، كما أنبأ عنه قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُوْنَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُوْرَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوْبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَاتَحْذَرُوْنَ ﴾[3] »[4] .

---

(١) سورة المطففين ، الآية : (٣٤) .

(٢) سورة التوبة ، الآية : (١٢٦) .

(٣) سورة التوبة ، الآية : (٦٤) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٤٧/١) .

النقـــد :

يظهـر مما تقـدم أنَّ أبا السعود يثبت أنَّ الله يستهـزىء عن طـريق المشـاكلة والمقـابلة ، وذكر أنواعاً وضـروباً مـن الاستهـزاء بالكافرين في الدنيا والآخرة ، وهو في هذا الإثبات على منهج أئمة السلف .

قال قوام السُّنَّة الأصبهـاني : « وتولى الذّب عنهم[١] حين قالوا : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُوْنَ ﴾ [٢] ، فقـال : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [٣] . وقال : ﴿ فَيَسْخَرُوْنَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [٤] ، وأجاب عنهم ، فقال : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ﴾ [٥] ، فأجلّ أقدارهم أن يوصفوا بصفة عيب ، وتولى المجازاة لهم فقال : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [٦] . وقال : ﴿ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [٧] ؛ لأن هـاتين الصفتين إذا كانت مـن الله لم تكن سفهـاً ؛ لأنَّ الله حكيـم ، والحكيم لا يفعل السَّفـه ، بل ما يكون منه يكون صواباً وحكمة »[٨] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة ردّاً على الذين يدّعون أنَّ هناك مجازاً في القرآن الكريم : « وكذلك مـا ادّعوا أنه مجاز في القـرآن كلفظ المكر

---

(١) أي أنّ الله تعالى تولّى الذَّبَّ عن المؤمنين .

(٢) سورة البقرة ، الآية : (١٤) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (١٥) .

(٤) سورة التوبة ، الآية : (٧٩) .

(٥) سورة البقرة ، الآية : (١٣) .

(٦) سورة البقرة ، الآية : (١٥) .

(٧) سورة التوبة ، الآية : (٧٩) .

(٨) الحجة في بيان المحجة : (١٦٨/١) .

والاستهـزاء والسخرية المضاف إلى الله ، وزعموا أنه مسمى باسـم ما يقابله على طريق المجاز ، وليس كذلك ، بل مسميات هذه الأسماء إذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلماً له ، وأما إذا فعلت بمن فعلها بالمجني عليه عقـوبة له بمثل فعله كانت عدلاً ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوْسُفَ ﴾ [1] . فكاد له كما كادت إخوته لما قال أبوه : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيْدُوا لَكَ كَيْداً ﴾ [2]، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيْدُوْنَ كَيْداً ❁ وَأَكِيْدُ كَيْداً ﴾ [3]، وقال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْـراً وَمَكَـرْنَا مَكْـراً وَهُمْ لَا يَشْعُـرُوْنَ ❁ فَانْظُـرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَـةُ مَكْرِهِمْ ﴾ [4] ، وقال تعـالى : ﴿ الَّذِيْنَ يَلْمِـزُوْنَ المُطَّوِّعِيْنَ مِـنَ المُؤْمِنِيْنَ فِي الصَّدَقَاتِـ وَالَّذِيْنَ لَا يَجِـدُوْنَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُوْنَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ [5] .

ولهذا كان الاستهزاء بهم فعلاً يستحق هذا الاسم ...

وقال بعضهم : استهزاؤه : استدراجه لهم .

وقيل : إيقاع استهزائهم ورد خداعهم ومكرهم عليهم .

وقيل : إنه يظهر لهم في الدنيا خلاف ما أبطن في الآخرة .

وقيل : هو تجهيلهم وتخطئتهم فيما فعلوه ، وهذا كله حق ، وهو

---

(١) سورة يوسف ، الآية : (٧٦) .

(٢) سورة يوسف ، الآية : (٥) .

(٣) سورة الطارق ، الآيتان : (١٥ ، ١٦) .

(٤) سورة النمل ، الآيتان : (٥٠ - ٥١) .

(٥) سورة التوبة ، الآية : (٧٩) .

استهزاء بهم »[1] .

وجاء في مختصر الصواعق : « إنَّ اللَّهَ تعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقاً ، ولا ذلك داخل في أسمائه الحسنى ، ومَنْ ظَنَّ من الجهال المصنِّفِين في شرح الأسماء الحسنى أنَّ مِن أسمائه : الماكر - المخادع - المستهزىء - الكائد ، فقد فاه بأمر عظيم تقشعرُّ منه الجلود ، وتكاد الأسماع تصمّ عند سماعه ، وغرّ هذا الجاهل أنَّه سبحانه وتعالى أطلق على نفسه هذه الأفعال فاشتقّ له منها أسماء ، وأسماؤه كلّها حُسْنَى ، فأدخلها في الأسماء الحسنى ، وأدخلها وقرنها بالرحيم - الودود - الحكيم - الكريم ، وهذا جهل عظيم ، فإنَّ هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقاً ، بل تُمْدَحُ في موضعٍ ، وتُذمّ في موضع ، فلا يجوز إطلاق أفعالها على الله مطلقاً ، فلا يقال : إنَّه تعالى يمكر ويخادع ويستهزىء ويكيد ، فكذلك بطريق الأولى لا يشتق له منها أسماء يسمى بها ، بل إذا كان لم يأتِ في أسمائه الحسنى المريد ولا المتكلم ولا الفاعل ولا الصانع ؛ لأن مسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم ، وإنما يوصف بالأنواع المحمودة منها ، كالحليم والحكيم والعزيز والفعَّال لما يريد ، فكيف يكون منها الماكر - المخادع - المستهزىء ؟

ثم يلزم هذا الغالط أَنْ يجعل من أسمائه الحسنى : الداعي والآتي والجائي والذاهب والقادم والرائد والناسي والقاسم والساخط والغضبان واللاعن ، إلى أضعاف أضعاف ذلك من الأسماء التي أطلق على نفسه

---

(١) مجموع الفتاوى : (١١١/٧ -١١٢) .

أفعالها في القرآن ، وهذا لايقوله مسلم ولا عاقل .

والمقصود أنَّ اللّه سبحانه لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجـزاء لمن فعـل ذلك بغير حق ، وقد علم أن المجازاة على ذلك حسنة من المخلوق ، فكيف من الخالق سبحانه ، وهذا إذا نزلنا ذلك على قاعدة التحسين والتقبيح العقليين ، وأنه سبحانه منزّه عمـا يقدر عليه مما لا يليق بكماله ، ولكنه لا يفعله لقبحه وغناه عنه ، وإن نزلنـا ذلك على نفي التحسين والتقبيح عقـلاً ، وأنه يجوز عليـه كل ممكن ولا يكون قبيحاً ، فلا يكون الاستهـزاء والمكر والخـداع منـه قبيحاً ألبتَّه ، فلا يمتنع وصفه به ابتداءً لا على سبيل المقابلة على هذا التقـدير ، ولا على التقـديرين ، فإطلاق ذلك عليـه سبحانه على حقيقتـه دون مجازه ، إذ الموجب للمجاز منتفٍ على التقـديرين ، فتأمله ، فإنه قاطع »[1] .

والحاصل أنه يجوز في باب الإخبار عن الله تعالى إثبات أنه سبحانه وبحمده يستهزىء بمن يستحق ذلك عقوبة له عن طريق المشاكلة والمقابلة ، وليس عن طـريق المجاز ، فلا يوصف بذلك على سبيـل الإطلاق ، وإنما يوصف به حين يكون مدحاً ، وعلى وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق ، وهـذا هو الإثبـات الحق ، وبنحو ذلك أثبت أبو السعـود ، كما تقدم آنفاً .

(١) مختصر الصواعق المرسلة ص : (٢٥٠ - ٢٥١) .

الجَـنْـبُ

العـــرض :

قال أبو السعود في تفسير قوله تعـالى : ﴿ أَنْ تَقُوْلَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾[1] :

« أي جانبه ، وفي حقّه وطاعته ...

وقيل : في ذات الله على تقدير مضاف كالطاعة .

وقيـل : في قُرْبه مـن قوله تعـالى : ﴿ وَالصَّـاحِبِ بِالْجَنْبِ ﴾[2] ، وقرىء في ذكر الله »[3] .

النقـــد :

وافق أبو السعود السّلف في عدم جعل الجنب صفة من صفات الله الذاتية ، على خلاف من أخطأ وأثبت هذه الصفة [4] .

يقول الإمام ابن جرير الطـبري عند تفسير هذه الآية : « وقوله : ﴿ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾[5] يقول : على ما ضيّعت مـن العمل

---

(١) سورة الزمر ، الآية : (٥٦) .

(٢) سورة النساء ، الآية : (٣٦) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (٧/٢٦٠) .

(٤) ومـن هؤلاء الذين أثبتوا هـذه الصفـة : صـديق حسـن خان في كتابه قطف الثمـر ص : (٦٧) ، والذين أثبتوا هذه الصفة يستدلـون بقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُوْلَ نَفْسٌ يَا حَسْـرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ .

(٥) سورة الزمر ، الآية : (٥٦) .

بما أمرني الله به ، وقصّرت في الدنيا في طاعة الله »[1] .

ويقول الإمـــام الدارمي في ردّه على بِشْـــر المَرِّيْسِي[2] : « وادّعى المعـــارض أيضـــاً زوراً على قـــوم أنهم يقـــولون في تفسير قول الله : ﴿ يَا حَسْـــرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾[3] . قال : يعنـــــون بذلك الجنب الذي هو العضو ، وليس على ما يتوهمونه .

فيقال لهذا المعارض : ما أرخص الكذب عندك وأخفّه على لسانك ، فإنْ كنت صادقاً في دعواك ، فأشِرْ بها إلى أحد من بني آدم قاله ، وإلا فلم تشنّع بالكذب على قوم هم أعلم بهذا التفسير منك ، وأبصر بتأويل كتاب الله منك ومن إمامك ؟!

إنما تفسيرها عندهم : تحسّر الكفار على ما فرّطوا في الإيمان والفضائل التي تدعو إلى ذات الله تعالى ، واختاروا عليها الكفر والسخرية بأولياء الله ، فسمّاهم الساخرين ، فهذا تفسير الجنب عندهم ، فمن أنبأك أنهم قالوا : جنب من الجنوب ؟ فإنه لا يجهل هذا المعنى كثير من عوام المسلمين فضلاً عن علمائهم »[4] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيميّة : « لا يُعرف عالم مشهور عند

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : (١٩/١١) .

(٢) هو بِشْر بن غياث ابن أبي كريمة عبد الرحمٰن المَرِّيْسِي ، العَدَوي بالولاء ، أبو عبد الرحمٰن ، فقيه معتزلي جهمي عارف بالفلسفة ، يُرمَى بالزَّندقة ، وهو رأس الطائفة المريسية القائلة بالإرجاء ، وهو من أهل بغداد ، ويُنسب إلى درب المريس . مات سنة ٢١٨ هـ . انظر تاريخ بغداد : (٧/ ٥٦) ، والأعلام : (٥٥/٢) .

(٣) سورة الزمر ، الآية : (٥٦) .

(٤) نقض الإمام أبي سعيد على المريسي العنيد، تحقيق الدكتور رشيد الألمعي : (٨٠٧/٢) .

المسلمين ، ولا طائفة مشهورة من طوائف المسلمين أثبتوا لله جنباً نظير جنب الإنسان ، وهذا اللفظ جاء في القرآن في قوله :﴿ أَنْ تَقُوْلَ نَفْسٌ يَا حَسْـرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾[1] ، فليس في مجرّد الإضافة ما يستلزم أن يكون المضاف إلى اللَّه صفة له ، بل قد يُضاف إليه من الأعيان المخلوقة وصفاتها القائمة بها ما ليس بصفة له باتفاق الخلق ، كقوله تعالى : بيت اللَّه ، وناقة اللَّه ، وعباد اللَّه ، بل وكذلك رُوح اللَّه عند سلف المسلمين وأئمتهم وجمهورهم ، ولكن إذا أُضيف إليه ما هو صفة له وليس بصفة لغيره ، مثل : كلام اللَّه ، وعلم اللَّه ، ويد اللَّه ، ونحو ذلك ، كان صفة له .

وفي القرآن ما يبين أنَّه ليس المراد بالجنب ما هو نظير جنب الإنسان ، فإنه قال : ﴿ أَنْ تَقُوْلَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾[2] .

والتفريط ليس في شيء من صفات اللَّه عزَّ وجلَّ ، والإنسان إذا قال : فلان قد فرّط في جنب فلان أو جانبه ، لا يريد به أن التفريط وقع في شيء من نفس ذلك الشخص ، بل يريد به أنه فرّط في جهته وفي حقه .

فإذا كان هذا اللفظ إذا أُضيف إلى المخلوق لا يكون ظاهره أنَّ التفريط في نفس جنب الإنسان المتصل بأضلاعه ، بل ذلك التفريط لم يلاصقه ، فكيف بظن أن ظاهره في حق الله أن التفريط

---

(١) سورة الزمر ، الآية : (٥٦) .

(٢) سورة الزمر ، الآية : (٥٦) .

كان في ذاته »[1] .

ويقول ابن قيم الجوزية :

« فهذا إخبار عما تقوله هذه النفس الموصوفة بما وصفت به ، وعامة هذه النفوس لا تعلم أن لله جنباً ، ولا تقرّ بذلك ، كما هو الموجود منها في الدنيا ، فكيف يكون ظاهر القرآن أنَّ اللَّه أخبر عنهم بذلك ، وقد قال عنهم : ﴿ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾[2] .

والتفريط فعل أو ترك فعل ، وهذا لا يكون قائماً بذات اللَّه ، لا في جنب اللَّه ولا في غيره ، بل يكون منفصلاً عن اللَّه ، وهذا معلوم بالحسّ والمشاهدة .

وظاهر القرآن يدل على أن قول القائل : ﴿ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾[3] ، ليس أنه جعل فعله أو تركه في جنب يكون من صفات الله وأبعاضه ، فأين في ظاهر القرآن ما يدلّ على أنه ليس لله إلا جنب واحد ، يعني به الشق ؟ »[4].

وقد ذكر ابن الجوزي[5] عند تفسير (جنب الله) خمسة أقوال :

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح : (١٤٥/٣ ، ١٤٦) .

(٢) سورة الزمر ، الآية : (٥٦) .

(٣) سورة الزمر ، الآية : (٥٦) .

(٤) الصواعق المرسلة : (٢٥٠/١) .

(٥) تقدّمت ترجمته في ص : (١١٤) .

الأول : في طـاعة الله .

والثاني : في حَـقّ الله .

والثالث : في أَمر الله .

والرابع : في ذِكر الله .

والخامس : في قرب الله وجواره [1] .

والحاصل أنَّ تفسير الأئمة لهذه الآية على الأقوال الخمسة السابقة يدلّ على أنَّ المعنى عندهم : على ما فرطت في طلب قرب الله تعالى ، وهو الجنـة ، فليس المقصود بالآية إثبـات الصِّفـة ، بل المقصود حكم آخر وهو تفـريط العبـد في حق الله تعـالى ، ولهـذا فلا دلالة في هـذه الآية على أنَّ الجنب من الصفات ؛ لأنَّ الآية ما سيقت لذلك والله أعلم .

---

(١) انظر زاد المسير : (١٩٢/٧) .

ثانياً : ما أوّله في باب الأسماء والصفات والإخبار عن الله تعالى

يتضمن هذا القسم بيان ما وقع فيه أبو السعود وما نقله من تأويلات لبعض الأسماء والصفات والإخبار عن الله تعالى ، كما يأتي :

الْجَبَّار

العرض :

قال أبو السعود في تفسير اسم الله (الجبار) في قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِيْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوْسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيْزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ ﴾ [1] :

« الذي جَبَرَ خَلْقَه على ما أراد أو جَبَرَ أحوالهم أي : أصلحها »[2].

---

(١) سورة الحشر ، الآية : (٢٣) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٢٣٤/٨) .

النقـــد :

إنَّ القول الأول الذي نقله أبو السعود ، وصـــــــدّره في تفسير معنى الجبَّار بقوله : الجبار الذي جَبَر خَلْقَه على ما أراد ، هو قول مخالفـــ لمذهب السلف الصالح ، وفيه شبه بقول الجبرية[1] .

ولفظ الجبر لفظ بدعي ليس من ألفاظ الكتاب والسنـة ؛ ولذلك أنكر أئمة السَّلف الصالح على من قال : جبر الله العباد على ما أراد .

قال ابن قيّم الجوزية : « والنبي صلى الله عليـه وسلم أَخْـبر[2] بمثـل ما أخبر به الرَّبُّ تعالى[3] أَنَّ العبـد مُيَسَّـرُ لِمَا خُلِق له ، لا مَجْبُور . فالجَبْرُ لفظ بدعي ، والتَّيْسِير لفظ القرآن والسنة »[4] .

---

(١) الجبرية : سمّوا بذلك نِسْبـة إلى الجَبْر ، وهو أَنَّ الله تعـالى جَبَرَ الخَلْقَ على الإيمان والكفـر والطاعة وخَلَقَهـا فيهم ، فالعبـد مجبور على فعله ، لاقدرة له في ذلك ولا مشيئـة ، فهو كالريشـة في مهبّ الريح ، والجبرية صنفان : الأول : الجبريـة الخالصة أو الغالية ، وهي التي لا تُثبت للعبـد فعلاً ولاقدرةً على الفعـل أصلاً ، وأوضح مَن يُمثّل هـذا الاتجـاه فرقة الجهمية . والثاني : الجبرية المتوسطة أو غير الغالية ، وهي التي تثبت للعبـد قدرةً غير مؤثّرة ، ويمثّلها أهل الكلام من الأشاعرة والمتصوّفة ونحوهم . انظر اعتقادات فِرَق المسلمين والمشركين ص : (١٠٣) ، والملل والنِّحل ص : (٨٦) ، ودراسات في الأهواء والفِرَق ص : (١٨٥ ، ١٩٥) .

(٢) كما روى الإمام مسلم في صحيحه في كتاب القدر - باب كيفية الخَلْق الآدمي في بطـن أُمّه : (٢٠٤٠/٤ ح ٢٦٤٧ رقم ٧) عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنــه قال : كان رسول الله ﷺ ذاتَ يــومٍ جالساً ، وفي يده عُودٌ يَنْكُتُ به ، فرفع رأسه ، فقال : « مَا مِنْكُمْ مِن نَفْسٍ إِلاَّ وَقَدْ عُلِـمَ مَنْزِلُهَا مِنَ الجَنَّـةِ وَالنَّـارِ » . قالوا : يا رســول الله فَلِمَ نعمــلُ ؟ أَفَلا نَتَّكِلُ ؟ قال : « لا . اِعْمَلُوْا ، فَكُلٌّ مُيَسَّـــــرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ » . وانظر صحيح البخاري الأحاديث رقم : (١٣٦٢ ، ٤٩٤٥ ، ٤٩٤٦ ، ٤٩٤٧ ، ٤٩٤٨ ، ٤٩٤٩ ، ٦٢١٧ ، ٦٦٠٥ ، ٧٥٥٢) .

(٣) في قوله : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ سورة الليل :(٥ - ٧).

(٤) التِّبْيَـــان في أقسام القرآن ص : (٤٢) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة : « ولهذا أنكر الأئمة على مَن قال : جَبَرَ الله العباد ، كالثَّوري[1] والأَوْزَاعِي[2] والزُّبَيْدِي[3] وأحمد بن حنبل وغيرهم ، وقالوا : الجَــبْر لا يكون إلاّ مِـن عـاجز ، كما يَجْبُر الأب ابنته على خلاف مرادها »[4] .

ونقـل شيخ الإسـلام ابن تيميـَّة أقوالهم عن الجبر ؛ « فقال الزُّبَيْدي : أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل ، ولكن يقضي ويقدر ويخلق ويجبل عبده على ما أحبّ .

وقال الأوزاعي : ما أعرف للجبر أصلاً في القرآن ولا في السنة ؛ فأهاب أن أقول ذلك ، ولكن القضاء والقدر والخَلْق والجَبْل ، فهذا يُعرف في القرآن والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فهذان الجوابان اللذان ذكرهما هذان الإمامان في عصر تابعي التابعين مِن أحسن الأجوبة »[5] .

---

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق ، أبو عبد الله الثَّوري الكوفي ، أمير المؤمنين في الحديث ، شيخ الإسلام ، إمام الحُفَّاظ ، سيِّد العلماء العاملين في زمانه ، له كتاب الجامع الكبير والجامع الصغير وكتاب في الفرائض . مات سنة ١٦١ هـ . انظر الطبقات الكبرى لابن سعد : (٣٧١/٦) ، وتاريخ بغداد : (١٥١/٩) ، وسير أعلام النبلاء : (٢٢٩/٧) .

(٢) تقدّمت ترجمته في ص : (٢٥١) .

(٣) هو محمد بن الوليد بن عامر الحمصي القاضي ، أبو الهذيل . ثِقَة ثَبْتٌ من كبار أصحاب الزهري . قال ابن سعد : كان أعلم أهل الشام بالفتوى والحديث . مات سنة ١٤٩ هـ وقيل غير ذلك. انظر الطبقات الكبرى لابن سعد : (٤٦٥/٧) ، ومشاهير علماء الأمصار لابن حبان ص : (١٨٢) ، وسير أعلام النبلاء : (٢٨١/٦) ، وتقريب التهذيب ص : (٥١١) رقم (٦٣٧٢) .

(٤) منهاج السنة النبوية : (٣٦/٣) .

(٥) درء تعارض العقل والنقل : (٦٦/١) ، وانظر مجموع الفتاوى : (٣٢٣/٣ ، ١٠٥/٨) ، وشرح حديث النزول ص : (٧٧) .

وروى أبو بكر الخَلاّل[1] عن الإمام أحمد بن حنبل أنه سُئل عن رجل يقول : إنَّ اللَّه جَبَر العبــاد . فقــال : « هكذا لا تقــول » ، وأنكر هذا ، وقال : ﴿ يُضِـلُّ مَنْ يَشَـــاءُ وَيَهْــدِيْ مَنْ يَشَـــاءُ ﴾[2][3] .

وروى الخَلاّل أيضاً أنّ رجلاً جاء للإمام أحمـد ، فقـال له : إن فلاناً قال : إنَّ الله جبر العباد على الطاعة . فقال : « بئس ما قال »[4] .

فلفظ الجبر فيه إجمال يُراد به إكراه الفاعل على الفعل بدون رضاه ، ويُراد به خَلْق مـا في النفوس مـن الاعتقـادات والإرادات ، ولذلك قال شيخ الإسـلام ابن تيميَّـة : « فلمـــا كان لفظ الجبر مجملاً نهى الأئمة الأعلام عن إطلاق إثباته أو نفيه »[5] .

والواجب في مثل هذه الحالة إثبـــات ما أثبته الكتاب والسُّنــة ، ونفي مـا نفاه الكتاب والسنة ، وما لم ينطق به الكتاب والسنـة لا بنفي ولا إثبات يُستفصَـل فيه قول القـائل ، فمَن أثبت مـا أثبته الله ورسوله ، فقـد أصاب ، ومَن نفى ما نفـاه الله ورسوله فقد أصـاب ، ومَن أثبت مـا نفاه الله ، أو نفى ما أثبته اللَّه فقد لبس دين الحق بالباطل[6] .

إلا أنَّ أبا السعود لا يقول بالجَبْر ولا يعتقـده ، ويدلّ على ذلك مـا ذكر

---

(١) تقدمت ترجمته .

(٢) سورة النحل ، الآية : (٩٣) .

(٣) انظر كتاب السنة لأبي بكر الخلاّل - باب الرد على القدرية وقولهم : إنّ الله جبر العباد على المعاصي : ص : (٥٥٠ رقم ٩٢٠) .

(٤) المصدر السابق ص : (٥٥٠ رقم ٩٢١) .

(٥) مجموع الفتاوى : (١٣٢/٨) .

(٦) انظر مجموع الفتاوى : (٧/ ٦٦٤ ، ٦٦٥) .

عند قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [1] :

« الله خالق كل شيء من خير وشر وإيمان وكفر ، لكن لا بالجبر ، بل بمباشرة الكاسب لأسبابها »[2] .

وأما القول الثاني الذي ذكره أبو السعود في معنى الجبار : جبر أحوالهم ، أي : أصلحها ، فهو جزء من التفسير الصحيح لاسم الجبار ، حيث إنَّ له ثلاثة معانٍ كما ذكرها الإمام ابن قيم الجوزية بقوله :

« وَكَذَلِكَ الْجَبَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ	وَالْجَبْرُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ
جَبْرُ الضَّعِيفِ وَكُلُّ قَلْبٍ قَدْ غَدَا	ذَا كَسْرَةٍ فَالْجَبْرُ مِنْهُ دَانِ
وَالثَّانِي جَبْرُ الْقَهْرِ بِالْعِزِّ الَّذِيْ	لَا يَنْبَغِيْ لِسِوَاهُ مِنْ إِنْسَانِ
وَلَهُ مُسَمّى ثَالِثٌ وَهُوَ الْعُلُـ	ـوُّ فَلَيْسَ يَدْنُوْ مِنْهُ مِنْ إِنْسَانِ
مِنْ قَوْلِهِمْ جَبَّارَةٌ لِلنَّخْلَةِ الْعَلْيَـ	ـا الَّتِي فَاتَتْ لِكُلِّ بَنَانِ »[3]

فالجبار يتضمن ثلاثة معاني :

فهو بمعنى القهار .

وبمعنى الرؤوف الجابر للقلوب المنكسرة ولمن لاذ به ولجأ إليه .

وبمعنى العليّ الأعلى .

---

(1) سورة الزمر ، الآية : (62) .

(2) إرشاد العقل السليم : (261/7) .

(3) القصيدة النونية : (103/2) .

وقال الشيخ ابن عثيمين[1] عن هذه المعاني الثلاثة للجبار :

« الأول : جَبْر القوة ، فهو سبحانه وتعالى الجبار الذي يقهر الجبابرة ، ويغلبهم بجبروته وعظمته ، فكلّ جبار وإنْ عظم فهو تحت قهر الله عزَّ وجلَّ وجبروته ، وفي يده وقبضته .

الثاني : جَبْر الرَّحمة ، فإنَّه سبحانه يجبر الضعيف بالغنى والقوة ، ويجبر الكسير بالسَّلامة ، ويجبر المنكسرة قلوبهم بإزالة كسرها وإحلال الفرج والطمأنينة فيها ، وما يحصل لهم من الثواب والعاقبة الحميدة إذا صبروا على ذلك من أجله .

الثالث : جَبْر العلو ، فإنه سبحانه فوق خَلْقه عالٍ عليهم ، وهو مع علوّه عليهم قريب منهم يسمع أقوالهم ، ويرى أفعالهم ، ويعلم ما توسوس به نفوسهم »[2] .

وقال الزّجّاج[3] في تفسير الجبار : « أصل الجبر في الكلام إنما وضع

---

(١) هو محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين الوهيبي التميمي ، أبو عبد الله ، الشيخ العلاّمة ، وُلِد عام ١٣٤٧ هـ في مدينة عُنَيزة ، وهو الآن يعمل إماماً في الجامع الكبير ، ومدرساً في كليتي الشريعة وأصول الدّين بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم ، بالإضافة إلى عضوية هيئة كبار العلماء بالمملكة ، له مصنّفات كثيرة منها القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ، وشرح لمعة الاعتقاد ، ومجموع الفتاوى في عدة مجلدات . انظر علماؤنا للبدراني والبراك ص : (٤٢) ، والمجموع الثمين للسليمان ص : (٧) .

(٢) مجموع فتاوى ابن عثيمين : (١٦١/١ - ١٦٢) .

(٣) هو إبراهيم بن السريّ بن سهل ، أبو إسحاق الزَّجّاج ، عالم بالنحو واللغة ، وُلِد ومات في بغداد ، له مصنَّفات منها الاشتقاق والأمالي وإعراب القرآن في ثلاثة أجزاء . مات سنة ٣١١ هـ انظر تاريخ بغداد : (٨٩/٦) ، والأعلام : (٤٠/١) .

للنماء والعلو . يقال : جَبَرَ اللَّهُ العظم إذا نمّاه ... واللّه تعالى عالٍ على خَلْقه بصفاته العالية ، وآياته القاهرة ، وهو المستحق للعلوّ والجبروت »[1] .

وكما أنَّ اسم اللّه تعالى (الجبّار) ثابت بالكتاب ، فهو ثابت بالسُّنة أيضاً ، فقد روى الإمام البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في حديث الرؤية ، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم : فَيَأْتِيهِمُ الْجَبَّارُ فِي صُوْرَةٍ غَيْرِ صُوْرَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ »[2] .

(١) تفسير أسماء الله الحسنى ص : (٣٤ - ٣٥) .

(٢) الصحيح ، في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ : (٤٣١/١٣ ح ٧٤٣٩) .

صِفَةُ الْيَدِ - الْيَدَيْنِ - الْيَمِيْنِ - الْقَبْضَة

العـــرض :

قال أبو السعود عند قوله تعـالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[1] :

« فإنَّ كلاً مِـن غلّ اليـد وبسطها مَجَاز عن محـض البُخل ، مـن غير قصد في ذلك إلى إثبات يـــد وغلّ أو بسط ، ألا يرى أنَّهم يستعملونه حيث لا يُتصور فيه ذلك ، كما في قوله :

جَادَ الحِمَى بَسْطَ الْيَـدَيْنِ بِوَابِلٍ

شَكَرَتْ نَـــــــدَاهُ تِلاَعُهُ وَوِهَادُه[2]

وقد سَلَك لَبِيْد[3] هذا المسلك السديد حيث قال :

وَغَـدَاةَ رِيْحٍ قَـــدْ شَهِدْتُ وَقَرَّةٍ[4]

إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَـــدِ الشِّمَالِ زِمَامُهَا [5]

فإنَّه إنما أراد بذلك إثبات القدرة التَّامة للشمال على التصرف في القرة كيفما تشاء

---

(١) سورة المائدة ، الآية : (٦٤) .

(٢) لم أعثر على قائله .

(٣) هو لَبيد بن ربيعة بن مالك العامري ، أبو عقيل ، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية وهو أحد أصحاب المعلّقـات . أدرك الإسـلام ، ووفد على النبي صلى الله عليـه وسلم . مـات سنة (٤١ هـ) . انظر الإصابة في تمييز الصحابة : (٤/٦) ، والشعر والشعـراء ص : (١٢٣)، والأعلام : (٥/٢٤٠) .

(٤) القِرَّة : ما أصابـ الإنسان وغيره من القُرّ، والقُرّ : البرد عامة . انظر لسان العربـ : (٣٥٧٩/٦) مادة (قرر) .

(٥) انظر ديوان لبيد العامري ص : (٣١٥) ، وفيه بلفظ : «وَغَدَاةَ رِيْحٍ قَدْ وَزَعْتُ وَقَرّةٍ» .

على طريقة المجـــاز ، من غير أن يخطر بباله أنْ يثبت لها يداً ، ولا للقـــرة زمامـــاً ، وأصله كناية في من يجوز عليه إرادة المعنى الحقيقي ، كما مـــرّ في قـــوله تعالى : ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَـامَةِ ﴾[1] في سورة آل عمران .

وقيـل : أرادوا مـاحكى عنهم بقوله تعـالى : ﴿ لَقَـدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِ يْـنَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾[2] .

﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾[3]: دعاء عليهم بالبخل المذموم والمسكنـــة ، أو الفقـــر والنّكد ، أو بغـلّ الأيدي حقيقـــة ، بأنْ يكونوا أســارى مغلولين في الدُّنيـا ويسحبوا إلى النّـار بأغلالهـا في الآخرة ، فتكون المطابقـة حينئـذٍ مـن حيث اللفظ ، وملاحظة المعنى الأصلي ، كما في : سبّني سبّ الله دابره .

﴿ وَلُعِنُـوا ﴾ : عطف على الدُّعاء الأول ، أي : أُبعِدوا من رحمة الله تعالى .

﴿ بِمَا قَالُوا ﴾ : أي بسبب ماقالوا من الكلمة الشّنعاء .

وقيل : كلاهما خبر .

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَـان ﴾ : عطف على مقـدّر يقتضيـه المقـام ، أي : كلاّ ، ليس كذلك ، بل هو في غاية مـايكون مـن الجُود ، وإليـه أشير بتثنيـة اليد ، فإنَّ أقصى ماينتهي إليه همم الأسخياء أنْ يُعطوا ما يعطونه بكلتا يديهم .

وقيل : التثنية على منحه تعالى لنعمتي الدنيا والآخرة .

وقيل : على إعطائه إكراماً واستدراجاً »[4] .

وقال عند قـــوله تعـالى : ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَـا مَنَعَـكَ أَنْ تَسْجُـــدَ

(١) سورة آل عمران ، الآية : (٧٧) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : (١٨١) .

(٣) سورة المائدة ، الآية : (٦٤) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٥٨/٣) .

لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[1] :

«أي : خَلَقْته بالذات من غير توسّط أب وأم ، والتَّثنية لإبراز كمال الاعتناء بخَلْقه عليه الصلاة والسَّلام ، المستدعي لإجلاله وإعظامه قصداً إلى تأكيد الإنكار ، وتشديد التوبيخ »[2] .

وقال عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيْعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتُ بِيَمِيْنِهِ ﴾[3] :

«تنبيه على غاية عظمته ، وكمال قدرته ، وحقارة الأفعال العظام ، التي تتحيَّر فيها الأوهام ، بالنسبة إلى قدرته تعالى ، ودلالة على أنَّ تخريب العالم أهون شيء عليه ، على طريقة التَّمثيل والتَّخييل ، من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازاً ، كقولهم : شابت لمة الليل .

والقبضة : المرة من القبض ، أُطلقت بمعنى القبضة ، وهي المقدار المقبوض بالكفّ تسميةً بالمصدر ، أو بتقدير ذات قبضة ، وقُرِىء بالنَّصب على الظرف تشبيهاً للموقف بالمبهم ، وتأكيد الأرض بالجميع ؛ لأنَّ المراد بها الأرضون السبع ، أو جميع أبعاضها البادية والغائرة »[4].

(١) سورة ص ، الآية : (٧٥) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٧/٢٣٦) .

(٣) سورة الزمر ، الآية : (٦٧) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٧/٢٦٢ ، ٢٦٣) .

النقـــد :

ذكر أبو السعود عدّة تأويلات لصفة اليد - اليدين - اليمين - القبضة .

ففي صفة اليدين عند قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[1] ، قالوا : أي خلقته بالـذَّات من غير توسّط أب وأم ، والتثنية لإبراز كمال الاعتنـاء بخلْقه عليه الصلاة والسلام[2] .

وقالوا : المراد من اليدين غاية الجود والسخاء[3] .

أو المراد : منحه تعالى لنعمتي الدُّنيا والآخرة ، أو إعطائه إكراماً واستدراجاً[4] .

وفي صفة اليد قالوا : المراد من اليد القدرة التَّامة ، من غير قصد إلى إثبات يد[5] .

وفي صفة اليمين قالوا : غاية عظمته[6] .

وفي صفة القبضة : زعموا أنَّ هذا دلالة على تخريب العالم من غير اعتبار

---

(١) سورة ص ، الآية : (٧٥) .

(٢) وبنحوه في أنوار التنزيل للبيضاوي : (٣١٧/٢) ، ومدارك التنزيل للنسفي : (٢٠٤/٣) ، وتعليقات الكوثري على الأسماء والصفات للبيهقي ص : (٣١٧) .

(٣) وبنحوه في أنوار التنزيل : (٢٧٤/١) ، ومدارك التنزيل : (٤٢٣/١) .

(٤) انظر أنوار التنزيل : (٢٧٤/١) .

(٥) ومنهم من أوّل اليد بالنِّعمة ، بالإضافة إلى القدرة ، كما في المواقف للإيجي ص : (٢٩٨) ، وتعليقات الكوثري على الأسماء والصفات ص : (٣١٦) ، وإشارات المرام للبَيَاضي ص : (١٨٩) .

(٦) انظر أنوار التنزيل : (٣٣١/٢) ، ومدارك التنزيل : (٢٣٢/٣) .

القبضة واليمين حقيقة أو مجازاً[1] .

وهـذا النفي ، وتلك التأويلات قال بها المؤوِّلون والنُّفاة بناءً على اعتقادهم بأنَّ حمل النّصوص على معانيها الحقيقية يستلزم التَّجسيم والتَّشبيه ، وقد اعتمدوا في تأويلات تلك النصوص على المجاز ، فالمجاز عندهم هو قسيم الحقيقة ، أي : بمعنى الشيء المقابل للحقيقة ، والقول بالمجاز قول مُحْدَث ، وقد حَدَث بعد القرون المُفَضَّلة ، وكان منشؤه من جهة المعتزلة ، كما نصَّ على هذا شيخ الإسلام ابن تيميَّة ، وتلميذه ابن قَيِّم الجوزية رحمهما الله تعالى .

قال شيخ الإسلام : « وإنما هذا اصطلاح حادث ، والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ، ونحوهم من المتكلمين »[2] .

وجاء في مختصر الصواعق قوله : « وإذا علم أَنَّ تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز ليس تقسيماً شرعياً ولا عقلياً ولا لغوياً ، فهو اصطلاح محض ، وهو اصطلاح حدَث بعد القرون الثلاثة المفضلة بالنَّصِّ ، وكان منشؤه من جهة المعتزلة والجهميَّة ، ومَن سلك طريقهم من المتكلمين »[3] .

وقد ذهبت المعتزلة ، وطائفة من الأشعرية إلى أنَّ المراد باليدين معنى النِّعمتين ، وطائفة من الأشعرية أيضاً أنَّ المراد باليدين القدرة ؛ لأنَّ

---

(١) وبنحوه في أنوار التنزيل : (٣٣١/٢) ، ومدارك التنزيل : (٢٣٢/٣) ، ومنهم من حرّف الأصابع إلى القدرة كما في عمدة القاري للعيني : (٢٥/ ٨٨ ، ١٠٨ ، ١٦٨) .

(٢) الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيميّة ص : (٨٤) .

(٣) مختصر الصواعق المرسلة ص : (٢٣٣) .

اليـــد يعبّر بها في اللغـة عن القـدرة[1] . وأوّل بعضهم صفة اليـد بالذّات ، فقـال ابن حزم بعد أَنْ ذَكَر الآيات التي فيهـا اليـدين : « إنَّ هـذا إخبـار عن اللّهِ عزَّ وجلَّ لايُرجع من ذكر اليـد إلى شيء سـواه تعالى ... ولايجـــوز لأحد أنْ يصف اللّه تعــالى بأنَّ له عينين ؛ لأنَّ النَّــص لم يأتــِ بذلك ، ونقول : إنَّ المـــــراد بما ذكرنا : اللّه عزَّ وجلَّ لاشيء غيره »[2] .

وقال البيضـاوي : « خلقتـــه بيـديّ : خلقته بنفسي مـن غير توسّط كأب وأمّ »[3] .

وزعم بعـض القـدرية[4] أنَّ اليـد المضـافة إليـه بمعنى القـدرة[5] ، أو هي مجاز عن القدرة التّامة[6] . وأوّل المعتزلة اليد بالقوة أو النِّعمة[7] .

وقد نقل أبو السعود عبارة البيضاوي في تفسيره عند نقله نفي اعتبار اليدين

---

(١) انظر مقالاتــ الإسلاميين ص : (٥٢٢) ، وأصـــول الـدين للبغدادي ص : (١١٠) ، والفِصَــل لابن حزم : (١٦٦/٢) ، والإرشـــاد للجويني ص : (١٥٥) ، وشـرح المـواقف ص : (١٧٥ ، ١٧٦) ، ولوامع الأنوار للسفاريني : (٢٣٢/١) .

(٢) الفِصَل لابن حزم : (٣٤٨/٢ ، ٣٤٩) .

(٣) أنـوار التنزيل للبيضــاوي : (٣١٧/٢) ، وكذلك فسّـرها محمـد جمـال الدين القـاسمي في تفسيره - محاسن التأويل - : (١٩٠/١٤) .

(٤) القَدَريَّة هم المنكرون للقَدَرِ ، والقائلون : بأنَّ الأمرَ أُنُفٌ ، فأنكروا علم اللّه السابق وكتابته للمقادير ومشيئته وخَلْقه وتقديره أو بعض ذلك ، وقالوا : إن أفعال العباد مقدورة لهم على جهة الاستقلال . ومن رؤوسهم معبد الجهني المقتول سنة ٨٠ هـ وغيلان الدمشقي المقتول سنة ١٠٥ هـ وقد تحوّلت القدرية في القرن الثاني وما بعده إلى المعتزلة والجهمية والصوفية والباطنية وانصهرت فيها . انظر مقالات الإسلاميين ص : (١٥٥) ، والفَرق بين الفِرَق ص : (١١٤) ، والملل والنِّحَل ص : (٤٨) ، ودراسات في الأهواء والفِرَق والبدع ص : (١٨٣ ، ٢٤٥) .

(٥) انظر أصول الدين للبغدادي ص : (١١١) .

(٦) انظر المواقف في علم الكلام للإيجي ص : (٢٩٨) .

(٧) انظر شرح الأصول الخمسة ص : (٢٢٨ ، ٢٢٩) .

سواء كانتا حقيقة أو مجازاً ، حيث قال عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيْعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَـٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِيْنِهِ ﴾[1] :

« تنبيه على عظمته وحقارة الأفعال العظام، التي تتحير فيها الأوهام ، بالإضافة إلى قدرته ، ودلالة على أنَّ تخريب العالم أهون شيء عليه على طريقة التمثيل والتَّخييل من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولامجازاً »[2] .

فهذه التَّأويلات التي ذكرها أبو السعود مخالفة لظواهر النّصوص الشرعية الصريحة في إثبات اليدين من كتاب اللّه تعالى ، ومن سُنَّة رسوله صلى اللّه عليه وسلم ، كما أنه مخالف لمذهب السَّلف الصَّالح رحمهم اللّه تعالى الذين يثبتون اليدين صفتين ذاتيتين خبريتين إثباتاً بلا تشبيه ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، كما وصف الله به نفسه ، ووصفه به رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بذلك من غير تحريف ولاتعطيل ولاتكييف ولاتمثيل ، ويستدلون على ذلك بأدلة كثيرة من الكتاب و السنة .

الأدلة من كتاب الله تعالى :

١- قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُوْدُ يَدُ اللّهِ مَغْلُوْلَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيْهِمْ وَلُعِنُوْا بِمَا قَالُوْا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوْطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾[3] .

٢- قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَاإِبْلِيْسُ مَامَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ

---

(١) سورة الزمر ، الآية : (٦٧) .

(٢) أنوار التنزيل : (٣٣١/٢) .

(٣) سورة المائدة ، الآية : (٦٤) .

أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِيْنَ ﴾[1] .

٣- قوله تعالى : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيْهِمْ ﴾[2] .

٤- قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِيْ بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ﴾[3] .

٥- قوله تعالى : ﴿ وَمَاقَدَرُوْا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيْعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِيْنِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُوْنَ ﴾[4] .

الأدلة من السنة :

١- روى الإمام مسلم بسنده عن أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوْبَ مُسِيْءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوْبَ مُسِيْءُ اللَّيْلِ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا »[5] .

٢- روى الإمام البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يَجْمَعُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِيْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ فَيَقُوْلُوْنَ : لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيْحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا ، فَيَأْتُوْنَ آدَمَ ، فَيَقُوْلُوْنَ : يَا آدَمُ أَمَا تَرَى النَّاسَ ؟ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلاَئِكَتَهُ ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ حَتَّى يُرِيْحَنَا

---

(١) سورة ص ، الآية : (٧٥) .

(٢) سورة الفتح ، الآية : (١٠) .

(٣) سورة الملك ، الآية : (١) .

(٤) سورة الزمر ، الآية : (٦٧) .

(٥) صحيح مسلم : كتاب التوبة - باب قبول التوبة من الذنوب ... (٢١١٣/٤ ح ٢٧٥٩) .

مِنْ مَكَانِنَا هَذَا ... »[1] .

٣- روى الإمام البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « إِنَّ اللَّه يَقُوْلُ لأَهْلِ الجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ ، فَيَقُوْلُوْنَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ...»[2] .

٤- روى الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَدُ اللَّهِ مَلْأَىٰ لايَغِيْضُهَا نَفَقَةٌ ، سَحَّاءُ اللَّيْل وَالنَّهَار » ، وقال : «أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفق مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ ، وَقَالَ : عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَىٰ المِيْزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ »[3] .

٥- روى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « احْتَجَّ آدَمُ وَمُوْسَى ، فَقَالَ مُوْسَى : يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُوْنَا خَيَّبْتَنَا ، وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجَنَّةِ ، فَقَالَ آدَمُ : أَنْتَ مُوْسَى ، اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ ، أَتَلُوْمُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِيْ بِأَرْبَعِيْنَ سَنَةٍ ؟» . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « فَحَجَّ آدَمُ مُوْسَى ،

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التوحيد ـ باب قول الله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (٤٠٣/١٣ ح ٧٤١٠) ، وفي باب ماجاء في قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ : (٤٨٦/١٣ ح ٧٥١٦) ، وانظر صحيح مسلم : كتاب الإيمان ـ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها : (١٨٤/١ ح ١٩٤) .

(٢) صحيح البخاري : كتاب التوحيد ـ باب كلام الرب مع أهل الجنة : (٤٩٦/١٣ ح ٧٥١٨) ، وانظر صحيح مسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ـ باب إحلال الرضوان على أهل الجنة : (٢١٧٦/٤ ح ٢٨٢٩) .

(٣) صحيح البخاري : كتاب التوحيد ـ باب قول الله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (٤٠٤/١٣ ح ٧٤١١) ، وانظر صحيح مسلم : كتاب الزكاة ـ باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف : (٦٩٠/٢ ح ٩٩٣) .

فَحَجَّ آدَمُ مُوْسَى »[1] .

وفي رواية أخرى : « قَالَ مُوْسَى : أَنْتَ آدَمُ الَّذِيْ خَلَقَكَ اللّٰهُ بِيَدِهِ »[2].

وقد ذهب أئمة السّلف الصالح رحمهم الله تعالى إلى إثبات اليدين لله تعالى على الوجه اللائق به سبحانه ، دون تأويلٍ ولا تحريفٍ لمعناهما الظاهر والمفهوم من سياق النصوص المذكورة آنفاً .

ومنهم ابن خزيمة حيث قال : « باب ذكر إثبات اليد للخالق البارىء جلَّ وعلا ، والبيان أنَّ اللّٰه تعالى له يدان كما أعلمنا في محكم تنزيله ... » ، وسَرَدَ جملةً من الآيات تدلُّ على ذلك ، ثم قال : « باب ذكر البيان من سُنَّة النبي صلى الله عليه وسلم على إثبات يد اللّٰهِ جلَّ وعلا ، موافقاً لما تلوناه من تنزيل ربنا لا مخالفاً ، قد نزّه الله نبيه ، وأعلى درجته ، ورفع قدره عن أنْ يقول إلا ماهو موافق لما أنزله اللّٰه عليه من وحيه »[3] .

وقال رحمه اللّٰه تعالى أيضاً : « نحن نقول : للّٰهِ جَلَّ وعلا يدان كما أعلمنا الخالق البارىء في محكم تنزيله ، وعلى لسان نبيّه المصطفى صلى الله عليه وسلم ... »[4] .

وذكر أبو الحسن الأشعري أنَّ من جملة ماعليه أهل الحقِّ والسُّنَّة : أنَّ للّٰه

---

(١) صحيح مسلم : كتاب القدر - باب محاجة آدم وموسى عليهما السلام : (٢٠٤٢/٤ ح ٢٦٥٢ - ١٣) .

(٢) المصدر السابق ح (٢٦٥٢ - ١٥) .

(٣) كتاب التوحيد لابن خزيمة : (١١٨/١ ، ١١٩) .

(٤) المرجع السابق : (١٩٣/١) .

يدين بلا كيف[1] .

وَرَدَّ على أهل البدع في تأويلها [2] .

وذكر اللالكائي في كتابه شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة قوله :

« سياق مادلّ من كتاب الله عزّ وجلّ ، وسُنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم ، على أنّ من صفات الله عزّ وجلّ : الوجه والعين واليدين »[3] .

ثم بعد ذلك سَرَدَ الأدلة النقليّة على ثبوت هذه الصفات للهِ عزّ وجلّ [4] .

وقال أبو القاسم إسماعيل الأصبهاني في كتابه الحجة في بيان المحجة :

« فصل في إثبات اليد لله تعالى صفة له » .

ثم قال بعد أنْ أَوْرَدَ بعض الآيات التي تدلُّ على ذلك :

« ذكر البيان مِن سُنَّة النبي صلى الله عليه وسلم على إثبات اليد موافقاً للتنزيل »[5] .

ثم أورد أحاديث بسنده تدلّ على ذلك .

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة بعد أنْ ذَكَرَ عدَّة آيات تعبِّر عن صفة

---

(1) انظر الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري ص : (١٨) .

(2) المرجع السابق ص : (٩٧ ـ ١٠٦) .

(3) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي : (٣/٤١٢) .

(4) المرجع السابق : (٣/٤١٣ ـ ٤٣٣) .

(5) الحجة في بيان المحجة للأصبهاني : (١/١٨٥ ـ ١٩٨) .

اليـــد :

« وقد تواتر في السُّنة مجيء اليد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، فالمفهوم من هذا الكلام : أنَّ لله تعالى يــــدين مختصَّتان به ذاتيَّتان له ، كما يليق بجلاله »[1] .

وشبهة النُّفاة والمؤوِّلين لليدين : أنَّه يلزم من إثباتهما حقيقة لله التجسيم ، وتشبيه الله بخَلْقه .

وأنَّ اللغة العربية تدلُّ على صحَّة التَّأويل والمجاز ، وأنَّه لايلزم من ذكر اليد أَنْ تكون دالةً على اليد الحقيقية المعلومة ، فيستعمل لفظ اليد في القدرة ، يقال : يد السلطان فوق يد الرعية ، أي : قدرته غالبةُ على قدرتهم .

ولما كان المقصود من اليد حصول القدرة أطلق اسم القدرة على اليد ، وقد يقال : هذه البلدة في يد الأمير ، وإن كان الأمير مقطوع اليد ، ويقال : فلان في يده الأمر والنهي والحلّ والعقد .

وقد يراد باليد النِّعمة ، وإنما حسن هذا المجاز ؛ لأنَّ آلة إعطاء النعمة اليد ، وغير ذلك من التأويلات والمعاني[2] .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر لليد خمسة وعشرين معنى ، وإنْ

---

(١) الرسالة المدنية لشيخ الإسلام ابن تيميَّة ، تحقيق الفريان ص : (٤٥) ، وهي ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : (٦/٣٦٣) .

(٢) انظر أصول الدين للبغدادي ص : (١١٠) ، والمواقف في علم الكلام للإيجي ص : (٢٩٨) ، وأساس التقديس للرازي ص : (١٦٢) .

كان بعضها داخلاً في بعض[1] .

فشبهاتهم تتمثّل في الخوف من التجسيم ، وتشبيه الله بخَلْقه ، فيلجأون إلى تأويل ذلك بالقدرة ، أو بالنعمة .

والحقُّ أنَّ ماذهب إليه المؤوّلون والنفاة في صفة اليدين مخالف لظواهر النصوص الشرعية التي ذكرنا بعضها آنفاً [2]، والتي تدل بصريح العبارة على إثبات ذلك ، كما أنه مخالف لمذهب السلف الصالح رحمهم الله تعالى .

ويمكن الرَّد على تلك الشبهة بما يأتي :

(١) إنَّ زعمهم بأنَّ إثبات اليدين حقيقة لله تعالى يلزم منه التجسيم ، وتشبيه الله بخَلْقه ، هو زعم باطل ؛ لأنَّ اللازم المذكور إنما يلزم مَن أثبت يدين مماثلتين لأيدي المخلوقين ، وأما من أثبت يدين تليقان بالله لاتشبهان أيدي المخلوقين ، فإن هذا لايلزمه ماذكروه ؛ لأنَّ إثبات يدين حقيقيتين تليقان بالله تعالى ، هو مثل إثبات علم وقدرة وحياة وسمع وبصر يليق بالله تعالى ، ثم إنَّ طرد قولهم إنكار جميع صفات الله تعالى ؛ لأنَّا لانشاهد في الخارج متصفاً بها إلا المخلوق[3] .

ويقال أيضاً : إنَّ هذا التَّوهُّم باطل ؛ لأنه ليس في المخلوقات يد تمسك

---

(١) انظر فتح الباري لابن حجر : (١٣/٣٩٤) .

(٢) ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة موضع وروداً متنوعاً متصرفاً فيه مقروناً بما يدل على أنها يد حقيقية . انظر مختصر الصواعق المرسلة ص : (٣٣٤) .

(٣) انظر الرسالة المدنية ص : (٣١) ، وموقف المتكلّمين : (٢/٥٨٧) .

السمٰوات السبع وتطويها ، ويد تقبض الأرضين السبع ، ولأصبع توضع عليها الأرض ، وأصبع توضع عليها الجبال ، ولا غير ذلك مما ورد في كثير من النصوص الشرعية المثبتة لصفة اليد[1] .

وإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات كيفية .

وقول القائل : إنَّ الظاهر غير مراد ، فهذه العبارة - كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة - : « خطأ : إما لفظاً ومعنى ، أو لفظاً لا معنى ؛ لأنَّ الظاهر قد صار مشتركاً بين شيئين :

أحدهما : أَنْ يُقال : إِنَّ اليد جارحة مثل جوارح العباد ، وظاهر الغضب : غليان دم القلب لطلب الانتقام ، وظاهر كونه في السماء أن يكون مثل الماء في الظرف ، فلاشك أن من قال هذه المعاني ، وشبهها من صفات المخلوقين ، ونعوت المحْدَثين ، غير مراد من الآيات والأحاديث ، فقد صدق وأحسن ، إذ لايختلف أهل السنة أنَّ الله تعالى ليس كمثله شيء لافي ذاته ولافي صفاته ولافي أفعاله ... وليست هذه المعاني المحْدَثة المستحيلة على الله هي السابقة إلى عقل المؤمنين ، بل اليد عندهم كالعلم والقدرة والذات ، فكما كان علمنا وقدرتنا وحياتنا وكلامنا ونحوها من الصفات أعراضاً تدل على حدوثنا ، يمتنع أن يوصف الله بمثلها ، فكذلك أيدينا ووجوهنا ونحوها أجساماً كذلك مُحْدَثة ، يمتنع أَنْ يُوصف الله سبحانه بمثلها ...

والثاني : أنَّ هذه الصفات إنما هي صفات الله سبحانه كما يليق بجلاله ،

---

(١) انظر مختصر الصواعق المرسلة ص : (٣٢٩) .

نسبتها إلى ذاته المقدسة كنسبة صفات كلِّ شيء إلى ذاته »[1].

(٢) إنَّ تأويل اليدين بالقوة أو بالقدرة باطل لأمرين :

الأول : لأنه يلزم من ذلك إبطال فائدة التخصيص بذكر خلق آدم باليدين ؛ لأنَّ جميع المخلوقات مخلوقة بقدرة الله تعالى وقوته ، والآية سِيْقت مساق التخصيص لآدم دون غيره ، وذلك بخَلْقه باليدين دون سائر المخلوقات[2] .

وأما قولهم بأنَّ الفائدة من تخصيص آدم بالذكر : التشريف والإكرام ، كما أضاف المؤمنين بلفظ العباد إلى نفسه ، وكما أضاف الكعبة إلى نفسه كذلك .

فالجواب : أنَّ إضافة التشريف لابد أن تكون لمعنى انفرد به المضاف عن غيره ، والمعنى الذي انفرد به آدم هو خَلْقُ اللَّهِ له بيديه ، بخلاف غيره من المخلوقات ، حيث خلقها بقوله : ﴿ كُنْ فَيَكُوْنُ ﴾ كما جاءت به الآثار[3] .

الثاني : أنَّ اليدين في الآية وردتا بصيغة التثنية ، وتأويلها بالقدرة لايصح ؛ لأنَّ قدرة اللَّه تعالى صفته ، وهي مفردة ، ولايصح أن يُقال : إنَّ اللَّه تعالى له قدرتان ، أو أنه خلق بقدرتيه[4] .

وقد نقل ابن حجر في الفتح قول ابن التين[5] : أن قوله صلى الله عليه

(١) الرسالة المدنية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص : (٣٠ - ٣٢) ، وانظر التدمرية ص : (٦٩ - ٧٨) .

(٢) انظر الإبانة ص : (٤٣) ، والاعتقاد للبيهقي ص : (٣٥) ، والتمهيد للباقلاني : (٢٥٩) .

(٣) انظر الرسالة المدنية ص : (٥٩ ، ٦٠) .

(٤) انظر الرسالة المدنية ص : (٥١) ، والتمهيد للباقلاني ص : (٢٥٩) .

(٥) هو أبو محمد عبد الواحد السَّفَاقُسِي المالكي ، الإمام العلاّمة ، شارح صحيح البخاري . تُوفِّي سنة ٦١١ هـ انظر كشف الظنون : (٥٤٦/١)، وشجرة النور الزكية لابن مخلوف ص (١٦٨).

وسلم : « وَبِيَدِهِ الأُخْرَى الْمِيْزَان »[1] : يدفع تأويل اليد هنا بالقدرة[2] .

(٣) إن تأويل اليدين بالنعمة لايصح ، وذلك لأمور :

الأول : أنَّ اليدين ذكرتا في الآية بلفظ التثنية ، فتفسيرهما بالنعمة يجعل نعم الله على آدم محصورة بأمرين ، وهذا باطل ؛ لأنَّ نعم الله لاتُعَدّ ولاتُحصى ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوْهَا ﴾[3] ، والقول بأنَّ المراد نعمتين على الخصوص تخصيص بلا مخصِّص .

ولو كان معنى اليد النعمة لقُرئت الآية : « بل يداه مبسوطة أومنبسطة » ؛ لأن نعم الله أكثر من أن تحصى ، ومحال أن تكون نعمه نعمتين لاأكثر ، فهما يدان حقيقة ، والآية جاءت تكذيباً لليهود حين قالوا : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوْلَةٌ ﴾ ، فقال تعالى : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيْهِمْ ﴾ ، ولايقول أحد : إنَّ معنى ﴿ غُلّتْ أَيْدِيْهِمْ ﴾ : غُلّت نعمهم ، ولم يرد اليهود أيضاً بقولهم : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوْلَةٌ ﴾ أي : نعمه مغلولة ، فهم أرادوا اليد حقيقة ، وردّ الله عليهم مقالتهم بإثبات أن يديه مبسوطتان ينفق كيف يشاء[4] .

الثاني : إن تفسيرهما بالنعمة يبطل فائدة تخصيص آدم بخلقه لهما ؛ لأنَّ آدم وإبليس مشتركان في حصول النِّعمة لهما من الله تعالى[5] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه في ص : (٣٠٤) .

(٢) انظر فتح الباري : (٣٩٤/١٣) .

(٣) سورة إبراهيم ، الآية : (٣٤) .

(٤) انظر كتاب التوحيد لابن خزيمة : (١٩٨/١) .

(٥) انظر الرسالة المدنية ص : (٤٦) ، والإبانة ص : (٤٣) ، والاعتقاد للبيهقي ص : (٣٥) ، وأصول الدين ص : (١١١) .

ولايجوز في لسان العرب ، ولافي عادة أهل الخطاب أنْ يقول القائل : عملت كذا بيدي ، ويعني به النعمة ، وإذا كان الله عزَّ وجلَّ إنما خاطب العرب بلغتها وما يجري مفهوماً في كلامها ، ومعقولاً في خطابها ، وكان لايجوز في لسان أهل البيان أن يقول القائل : فعلت بيدي ، ويعني النعمة ، بطل أن يكون قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ النعمة[1] .

ومن تأمل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ يُبَايِعُوْنَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُوْنَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيْهِمْ ﴾ [2] ، فإنه يستبعد حمل اليد الثابتة لله تعالى على المجاز ؛ لأنَّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم بأيديهم ، ويضرب بيده على أيديهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو السفير بين الله تعالى وبين خلقه ، فكانت مبايعتهم له مبايعة لله تعالى ، ولما كان سبحانه فوق سمٰواته على عرشه وفوق الخلائق كلّهم ، كانت يده فوق أيديهم ، كما أنه سبحانه فوقهم ، فهل يصح هذا لمن ليس له يد حقيقة ؟ وكيف يستقيم أنْ يكون المعنى قدرة الله تعالى ونعمته فوق قدرهم ونعمهم ؟ [3] .

---

(١) انظر الفتوى الحموية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية ص : (٩٨) ، وهي ضمن مجموعة الرسائل الكبرى : (٤٦١/١) ، والتمهيد للباقلاني ص : (٢٥٩) .

(٢) سورة الفتح ، الآية : (١٠) .

(٣) انظر مختصر الصواعق المرسلة ص : (٣٣٤ - ٣٣٥) .

صِفَةُ الْوَجْهِ

العرض :

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾[1] :

« فَثَمَّ وجه الله : ثَمَّ اسم إشارة للمكان البعيد خاصة مبني على الفتح ، ولايتصرف سوى الجرّ بمن ، وهو خبر مقدَّم ، ووجه الله مبتدأ ، والجملة في محلِّ الجزم على أنها جواب الشرط ، أي : هناك جهته التي أمر بها ، فإنَّ إمكان التَّولية غير مختص بمسجد دون مسجد ، أو مكان دون آخر ، أو فثَمَّ ذاته بمعنى الحضور العلمي ، أي : فهو عالم بما يفعل فيه ، ومثيب لكم على ذلك ، وقرىء بفتح التاء واللام أي : فأينما توجهوا القبلة »[2] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[3] :

« إلا ذاته ، فإن ماعداه كائناً ماكان ممكن في حدّ ذاته عرضة للهلاك والعدم »[4] .

وقال بنحوه في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (١١٥) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١/١٥٠) .

(٣) سورة القصص ، الآية : (٨٨) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٧/٢٨) .

وَالإِكْرَامِ ﴾[1] كما تقدَّم ذكره آنفاً [2] .

وجمع بين الذَّات والجهة والتَّقرب عند قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِيْنَ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾[3] ، حيث قال : « ذاته ، أوجهته ، ويقصدون بمعروفهم إيـاه تعالى خالصاً ، أو جهـة التقرب إليه لا جهة أخرى »[4] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِيْنَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾[5] :

« طلباً لرضاه خاصة من غير أن ينظر إلى جانب الخلق رياءً وسمعة ، ولا إلى النفس زينة وعجباً »[6] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيْدُوْنَ وَجْـهَ اللَّهِ ﴾[7] :

« أي تبتغون به وجهه تعالى خالصاً »[8] .

---

(١) سورة الرحمٰن ، الآية : (٢٧) .

(٢) انظر إرشاد العقل السليم : (١٨٠/٨) .

(٣) سورة الروم ، الآية : (٣٨) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٦٢/٧) .

(٥) سورة الرعد ، الآية : (٢٢) .

(٦) إرشاد العقل السليم : (١٧/٥) .

(٧) سورة الروم ، الآية : (٣٩) .

(٨) إرشاد العقل السليم : (٦٢/٧) .

النقـــد :

ذكر أبو السعود قولين في بيان المراد بوجه الله عز وجل في المواضع التي جاء فيها ذكر الوجه من القرآن الكريم :

القول الأول : المراد بالوجه في قوله تعالى :﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾[1] ، أي : الجهــة .

القول الثاني : المراد بالوجه في الآيات الأخرى : الذات .

فأما القول الأول فقد استدلَّ به جماعة من السَّلف منهم الإمام الشافعي ومجاهد وشيخ الإسلام ابن تيميَّة ، وهو تفسير ابن عباس الذي ذكره عنه ابن أبي حاتم ، واختيار الشوكاني[2] .

وقد استدلوا بذلك بناءً على أن هذه الآيــة الكريمة في قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾[3] ليست من آيات الصفات ، وأنَّ الوجه المذكور في هذه الآية ليس هو الوجه الذي يُراد به الصفة ، ويفهم ذلك من سياق الآية الكريمة ، الذي يدلُّ على أنَّ المراد بالوجه فيها : الجهة أو القبلة ، وهما معنيان متقاربان .

وهذه الآية الكريمة ليست مِن مَوارد النِّزاع ؛ لأنَّ المراد بالوجه هنا :

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (١١٥) .

(٢) انظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري : (١/٥٥٣) ، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم : (١/٢١٢) ، والأسماء والصفات للبيهقي ص : (٣٠٩) ، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميَّة : (٣/١٩٣ ، ٦/١٤ ـ ١٧) ، وفتح القدير للشوكاني : (١/١٦٦) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (١١٥) .

القبلة ، فإنَّ الوجه هو الجهة في لغة العرب ، يقال : قصدت هذا الوجه ، أي : إلى هذه الجهة .

وكذلك سياق الكلام في الآية الكريمة يدلُّ على المراد ، حيث قال : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ ، والمشرق والمغرب : الجهات ، والوجه هو الجهة ، يقال : أيُّ وجه تريد ؟ أَيْ : أَيُّ جهة تريد ؟ وأنا أريد هذا الوجه ، أَيْ : هذه الجهة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾[1] ، ولهذا قال :﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ ، أي : تستقبلوا وتتوجهوا .

وقد وضّح شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة - في المناظرة التي عُقدت له - دَلالةَ هذه الآية الكريمة توضيحاً شافياً كافياً ، فقال :

« ولهذا لما اجتمعنا في المجلس المعقود ، وكنت قد قلت : أمهل كلَّ مَن خالفني ثلاث سنين إنْ جاء بحرف واحد عن السَّلف يخالف شيئاً مما ذكرته كانت له الحجة ، وفعلتُ وفعلتُ ، وجعل المعارضون يفتّشون الكتب ، فظفروا بما ذكره البيهقي[2] في كتاب الأسماء والصفات في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ ، فإنه ذكر عن مجاهد والشافعي أنَّ المراد : قبلة اللهِ .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (١٤٨) .

(٢) هو أحمد بن الحسين بن علي ، أبو بكر البيهقي ، له مؤلفات عديدة في شتى ميادين المعرفة ، تصل إلى ألف جزء كما ذكر ذلك السيوطي وابن عساكر ، مات البيهقي سنة ٤٥٨ هـ . انظر طبقات الشافعية للأسنوي ص : (١٩٨) ، وسير أعلام النبلاء : (١٨/١٦٣) ، والنجوم الزاهرة : (٥/٧٧) ، وشذرات الذهب : (٤/٣٠٤) .

فقال أحد كبرائهم في المجلس الثاني : قد أحضرت نقلاً عن السّلف بالتأويل .

فوقع في قلبي ماأعدّ ، فقلت : لعلك قد ذكرت ما رُوي في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ ؟

قال : نعم .

قلت : المراد بها قبلة الله .

فقال : قد تأوّلها مجاهد والشافعي ، وهما من السَّلَف .

ولم يكن هذا السؤال يرد عليّ ، فإنَّه لم يكن شيء مما ناظروني فيه صفة الوجه ، ولاأثبتها ، لكن طلبوها من حيث الجملة ، وكلامي كان مقيداً كما في الأجوبة ، فلم أرَ إحقاقهم في هذا المقام ، بل قلت : هذه الآية ليست من آيات الصفات أصلاً ، ولاتندرج في عموم قول من يقول : لاتؤوّل آيات الصفات ... »[1] .

وبعد أنْ زاد هذا شرحاً قال : « ولكن مِن الناس مَن لا يُسَلِّم أنَّ المراد بذلك جهة الله ، أي قبلة الله ، ولكن يقول : هذه الآية تدلُّ على الصفة ، وعلى أنَّ العبد يستقبل ربَّه ... ويقول : إنَّ الآية دلّت على المعنَيَيْن ، فهذا شيء آخر ليس هذا موضعه ، والغرض أنه إذا قيل : فثم قبلة الله ، لم يكن هذا من التأويل المتنازع فيه الذي ينكره منكرو تأويل آيات الصفات ، ولاهو مما يستدلّ به عليهم المثبتة ، فإنَّ هذا المعنى صحيح في نفسه ، والآية دالَّة عليه ، وإنْ كانت دالَّة على ثبوت صفة فذاك شيء آخر ، ويبقى دلالة

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : (١٥/٦ ـ ١٦) .

قوله : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ على فثم قبلة الله ، هل هو من باب تسمية القبلة وجهاً باعتبار أنَّ الوجه والجهة واحد ؟ أو باعتبار أنَّ مَن استقبل وجه الله فقد استقبل قبلة الله ؟ فهذا فيه بحوث أخرى ليس هذا موضعها »[1] .

وقد عدّ الإمام ابنُ خُزَيمة والإمام ابن قيّم الجَوزيَّة هذه الآية : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ من آيات الصفات ؛ وذلك باعتبار دلالة أخرى ، وهي أنه لو لم يثبت له صفة وجه لم يجز ذلك إذا أريدت الجهة ، وبناءً على أن قوله : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ كقوله في سائر الآيات التي ذكر فيها الوجه ، فإنه قد اطَّرد مجيئه في القرآن والسُّنة مضافاً إلى الرَّبِّ تعالى على طريقة واحدة ومعنى واحد ، فليس فيه معنيان مختلفان في جميع المواضع غير الموضع الذي ذكر في سورة البقرة ، وهو قوله : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ ، وهذا لايتعيَّن حَمْله على القبلة والجهة ، ولايمتنع أنْ يراد به وجه الرَّبِّ حقيقة ، فحمله على غير القبلة كنظائره كلّها أولى ، وقد ذكر في مختصر الصواعق المرسلة عدَّة أوجه لتأكيد هذا المعنى[2] .

وأما القول الثاني في بقية الآيات ، وتفسير الوجه بالذات كما نقله أبو السعود في أكثر من موضع واحد ، فهو تعطيل لهذه الصفة ، وهو مذهب أهل التأويل ونفاة الصفات .

وممن قال بهذا القول شيخ أبي السعود : ابن كمال باشا حيث قال :

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : (١٧/٦) .

(٢) انظر كتاب التوحيد لابن خزيمة : (٢٥/١) ، ومختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ص : (٣٤٠) .

« والوجه يُعَبَّر به عن ذات الشيء »[1] .

وقال البغدادي[2] : « والصحيح عندنا أن وجهه ذاته »[3] .

فأهل التَّأويل قالوا : المراد بالوجه الذَّات المقدسة ، وأما كونه صفة لله فلا ، وهو قول جمهور المتكلمين من الأشاعرة والماتريدية وغيرهم ، وممن قال بهذا أيضاً أبو الهذيل العَلَّاف[4] من المعتزلة ، حيث يثبت لله وجهاً هو هو[5] .

والحق أنَّ صفة الوجه من الصفات الثابتة لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، وقد أثبتها السَّلف الصالح إثبات وجود لا إثبات تكييف وتحديد ، وبه قال الأئمة الأربعة وكثير من أتباعهم[6] .

---

(١) تفسير ابن كمال باشا : (٣٦٨/١) ، نقلاً عن ابن كمال باشا وآراؤه الاعتقادية : (٣٥١/١) .

(٢) هو عبد القاهر بن طاهر التميمي ، أبو منصور البغدادي ، نزيل خراسان ، وأحد أعلام الشام ، له تصانيف منها : الفَرق بين الفِرَق وأصول الدين والتّكملة في الحساب . مات سنة ٤٢٩ هـ . انظر سير أعلام النبلاء : (٥٧٢/١٧) ، والبداية والنهاية : (٤٨/١٢) .

(٣) أصول الدين للبغدادي ص : (١١٠) .

(٤) هو أبو الهذيل محمد بن الهذيل بن عبد الله العبدي المعروف بالعلاف ، المتكلّم شيخ البصريين في الاعتزال وصاحب المقالات في مذهبهم مات سنة ٢٣٥ هـ . انظر سير أعلام النبلاء : (٥٤٢/١٠) ، ولسان الميزان : (٤١٣/٥) ، وشذرات الذهب : (٨٥/٢) .

(٥) انظر الإرشاد للجويني ص : (١٥٥) ، ومقالات الإسلاميين ص : (١٦٥ ، ١٨٩ ، ٢١٨) ، وفتح القدير : (١٦٩/٥) ، وزاد المسير لابن الجوزي : (١١٤/٨) ، وشرح النووي على صحيح مسلم : (١٤/٣) ، وقد فسّر النووي الوجه بالذات في شرحه لحديث رقم : (١٧٩) وفيه : « لَأَحرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ » .

(٦) انظر كتاب التوحيد لابن خزيمة : (٢٤/١ - ٤٤) ، والأسماء والصفات للبيهقي ص : (٣٠١ - ٣١٢) ، وشرح الفقه الأكبر للقاري ص : (٥٨ ، ٥٩) ، والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص : (٨٤) ، والإبانة للأشعري ص : (٣٥) ، والاعتقاد والهداية ص : (٥٣) .

وهذا هو المذهب الصحيح ، وهو إجراء آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها ، مع نفي الكيفية والتشبيه عنها ، وقد احتجُّوا على ذلك بأنَّ الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات تكييف ، فكذلك إثبات الصفات .

والذي يبطل مذهب أهل التأويل ماذكره البيهقي[1] والخطابي[2] وغيرهما في قوله تعالى : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ : فأضاف الوجه إلى الذات ، وأضاف النعت إلى الوجه ، فقال : ﴿ ذُوْ ﴾ ، ولو كان ذكر الوجه صلة ولم يكن صفة للذات لقال : ذي الجلال ، فلما قال : ﴿ ذُوْ الجَلَالِ ﴾ علمنا أنه نعتٌ للوجه ، وأنَّ الوجه صفة للذات .

وقد ثبت في الخطاب العربي الذي أجمع عليه أهل اللغة أنَّ تسمية الوجه في أيِّ محل وقع من الحقيقة والمجاز يزيد على قولنا ذات ، فأما الحقيقة فذلك مشهور لايمكن دفعه ، وأما في مقامات المجاز فكذلك أيضاً ؛ لأنه يقال : فلان وجه القوم : لايراد به ذات القوم ، إذ ذوات القوم غيره مطلقاً ، ويقال : هذا وجه الثوب لما هو أجوده ، ويقال : هذا وجه الرأي أي أصحّه وأقومه ، ويقال : أتيت بالخبر على وجهه ، أي : على حقيقته ، إلى غير ذلك مما يقال فيه الوجه ، فإذا كان هو المستقرّ في اللغة وجب أنْ يحمل الوجه في حقِّ الباري على وجهٍ يليق به وهو أنْ يكون صفة

---

(١) تقدّمت ترجمته في ص : (٣١٦) .

(٢) هو حَمْدُ بن محمد بن إبراهيم البُسْتي ، أبو سليمان الخطابي ، الإمام الحافظ اللغوي صاحب التصانيف ، ومنها : كتاب معالم السنن ، وغريب الحديث ، وإصلاح غلط المحدثين ، مات سنة ٣٨٨ هـ . انظر معجم الأدباء : (٤٢٨/٢) ، ووفيات الأعيان : (٢١٤/٢) ، وسير أعلام النبلاء : (٢٣/١٧) ، والبلغة للفيروزابادي ص : (٩٤) .

زائدة على قولنا ذات ، فلايقال : إنَّ وجهه ذاته ؛ لأنَّ في هذا التأويل إبطال الصفة [1] .

وصفة الوجه من الصفات الذاتية الخبرية الثابتة بالكتاب والسنة ، وقد ورد ذكرها في مواضع كثيرة من القرآن والسنة .

فمن القرآن الكريم :

١- قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[2] .

٢- قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾[3] .

٣- قوله تعالى : ﴿ وَمَاآتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيْدُوْنَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾[4] .

٤- قوله تعالى : ﴿ وَمَاتُنْفِقُوْنَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾[5] .

٥- قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِيْنَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾[6] .

وغير ذلك من الآيات الدالة على ثبوت صفة الوجه لله تعالى .

---

(١) انظر الاعتقاد والهداية للبيهقي ص : (٥٣) ، ومختصر الصواعق المرسلة ص : (٣٣٠) .

(٢) سورة القصص ، الآية : (٨٨) .

(٣) سورة الرحمن ، الآيتان : (٢٦ ، ٢٧) .

(٤) سورة الروم ، الآية : (٣٩) .

(٥) سورة البقرة ، الآية : (٢٧٢) .

(٦) سورة الرعد ، الآية : (٢٢) .

ومن السنة النبوية الشريفة :

١- روى الإمام البخاري بسنده عن عبد الله بن قيس[1] رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْن أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ »[2] .

٢- روى الإمام البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في الثلاثة الذين حُبِسُوا في الغار، فقال كل واحد منهم : « اللهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَانَحْنُ فِيْهِ ... »[3] .

٣- روى الإمام مسلم بسنده عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلاً تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً »[4] .

---

(١) هو عبد الله بن قيس بن سُلَيم ، أبو موسى الأشعري التميمي المقرىء ، الإمام الكبير صاحب رسول الله صلى الله عله وسلّم . مات أبو موسى سنة ٤٤ هـ وقيل غير ذلك . انظر سير أعلام النبلاء : (٣٨٠/٢) ، والإصابة في تمييز الصحابة : (١١٩/٤) .

(٢) الصحيح : كتاب التوحيد ـ باب قول الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (٤٣٣/١٣ ح ٧٤٤٤) ، وانظر صحيح مسلم : كتاب الإيمان ـ باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٦٣/١ ح ١٨٠) .

(٣) الصحيح : كتاب الإجارة ـ باب من استأجر أجيراً فترك أجره فعمل فيه المستأجر فزاد (٥٢٥/٤ ح ٢٢٧٢) ، وانظر صحيح مسلم : كتاب الذكر والدعاء ـ باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال (٢٠٠٩/٤ ح ٢٧٤٣) .

(٤) الصحيح : كتاب الوصية ـ باب الوصية بالثلث (١٢٥٠/٣ ح ١٦٢٨) ، وانظر صحيح البخاري : كتاب الفرائض ـ باب ميراث البنات (١٦/١٢ ح ٦٧٣٣) .

٤- وقد روى الأئمة تفسير المزيد في قوله تعـــالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَـــادَةٌ ﴾[١] بالنظـــر إلى وجـــــــــــــه الله الكريم عن كثير من الصحابة[٢] .

فظهر لنا بجلاء أنَّ الصحيح إثبات الوجه ـ في الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشـريفة ـ لله عزَّ وجلَّ حقيقـةً على مايليق به ، وعدم تأويله بالذات أو بغيرها ؛ لأنَّ التـأويل : حَمْـل الكلام على غير معنـاه الحقيقي ، ولايصح ذلك إلا بقـرينة مانعة من حمله على الحقيقة ، وليس هنا أيّ قرينة صحيحة تمنع ذلك ، والله تعالى أعلم .

---

(١) سورة يونس ، الآية : (٢٦) .

(٢) انظر كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد : (٢٤٣/١ ح ٤٤٣) ، (٢٥٧/١ ح ٤٧٢) ، (٢٥٨/١ ح ٤٧٣) ، (٢٦٢/١ ح ٤٨٤) ، والشـــريعة للآجري ص : (٢٥٢) وتفسير ابن كثير : (٤٩٧/٣) ، وعقائد السلف ص : (٥١٦) .

صِفَةُ الرَّحْمَةِ

العرض :

قال أبو السعود في تفسير البسملة ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيْمِ ﴾ :

« والرَّحمة في اللغة : رقّة القلب والانعطاف ، ومنه الرحم ؛ لانعطافها على مافيها ، والمراد ههنا : التفضل والإحسان ، وإرادتهما بطريق إطلاق اسم السبب بالنسبة إلينا على مسببه البعيد أو القريب ، فإنَّ أسماء الله تعالى تُؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال دون المبادىء التي هي انفعالات ، والأول من الصفات الغالبة حيث لم يطلق على غيره تعالى ، وإنما امتنع صرفه إلحاقاً له بالأغلب في بابه من غير نظرٍ إلى الاختصاص العارض ، فإنه كما حظر وجود فعلى حظر وجود فعلانة ، فاعتباره يوجب اجتماع الصرف وعدمه ، فلزم الرجوع إلى أصل هذه الكلمة قبل الاختصاص بأن تقاس إلى نظائرها من باب فعل يفعل »[١] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾[٢] :

«والمراد برحمته الوحي ، كما في قوله سبحانه : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُوْنَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾[٣] ، عبّر عنه باعتبار نزوله على المؤمنين بالخير ، وباعتبار إضافته إليه تعالى بالرحمة »[٤] .

---

(١) إرشاد العقل السليم : (١١/١) .

(٢) سورة البقرة ، الآية : (١٠٥) .

(٣) سورة الزخرف ، الآية : (٣٢) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (١٤٢/١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ يَرْجُوْنَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُوْرٌ رَحِيْمٌ ﴾[1] :

« رحمة الله ، أي : ثوابه ، أثبت لهم الرجاء دون الفوز بالمرجو للإيذان بأنهم عالمون بأنَّ العمل غير موجب للأجر ، وإنما هو على طريق التَّفضُّل منه سبحانه لا لأَنَّ في فوزهم اشتباهاً »[2] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيْبٌ مِنَ الْمُحْسِنِيْنَ ﴾[3] :

« في كلِّ شيءٍ ، ومن الإحسان في الدعاء أنْ يكون مقروناً بالخوف والطمع ، وتذكير قريب ؛ لأنَّ الرحمة بمعنى الرحم ، أو لأنه صفة لمحذوف ، أي : أمر قريب ، أو على تشبيهه بفعيل ، الذي هو بمعنى مفعول ، أو الذي هو مصدر كالنقيض والصهيل ، أو للفرق بين القريب من النسب ، والقريب من غيره ، أو لاكتسابه التذكير من المضاف إليه ، كما أن المضاف يكتسب التأنيث من المضاف إليه »[4] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (٢١٨) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٢١٨/١) .

(٣) سورة الأعراف ، الآية : (٥٦) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٢٣٣/٣) .

النقـــد :

ذكر أبو السعود عدة تأويلات لصفـة الرحمـة ، وهي مخالفـة للمنهج الصحيح الذي سار عليه الأئمة وعلماء الأمة من السلف الصالح .

فالرحمـــة صفة ثابتة بالكتاب والسنـــة من اسميه الرحمن والرحيم اللذين تكرّرا في الكتاب والسنة مرات عديدة ، كما وردت هذه الصفة مضافة إلى اللّهِ عزَّ وجلَّ .

ومن أدلة الكتاب :

١ ـ قول الله تعالى : ﴿ الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ ﴾ [(١)].

٢ ـ قول الله تعـالى : ﴿ أُوْلَئِـــكَ يَرْجُوْنَ رَحْمَـــــةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُوْرُ رَحِيْمُ ﴾ [(٢)] .

ومن أدلة السنة :

١ ـ روى الإمـام البخاري بسنـده عن أبي هـريرة رضي الله عنـه قال : قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : « لَـمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ ،

---

(١) سورة الفاتحة ، الآيتان : (١ ، ٢) .

(٢) سورة البقرة ، الآية : (٢١٨) .

فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِيْ » [1] .

٢ - روى الإمام البخاري بسنده تشهّد عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في الصلاة مرفوعاً : « التَّحِيَّاتُ للهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ ، السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ... » [2] .

وعند أهل السنة والجماعة إثبات الصفات وحقائق الأسماء ، فالأسماء حقائق وهي متضمنة للصفات ، فالرحمن مِن صفته الرحمة ، والرحيم مَن يرحم بالفعل ، وتأويل صفة الرحمة إلى غير معناها الحقيقي باطل ، وإنَّ الدافع لمن أوَّل هذه الصفة إلى المجاز وغيره هو الخوف من التشبيه ، فقالوا : الرحمة رقَّة في القلب . فهل يريدون بذلك رحمة المخلوق أم رحمة الخالق ؟ فإنَّ الرحمة صفة الرحيم ، وهي في كلِّ موصوف بحسبه ، فإنْ كان الموصوف حيواناً له قلب فرحمته من جنسه رقَّة قائمة بقلبه ، وإنْ كان ملكاً فرحمته تناسب ذاته ، فإذا اتصف أرحم الراحمين بالرحمة حقيقة لم يلزم أنْ تكون رحمته من جنس رحمة المخلوق .

وإنَّ ظهور آثار صفة الرحمة في الوجود كظهور أثر صفة الربوبية والملك والقدرة ، فإن ما لله على خَلْقه من الإحسان والإنعام شاهد برحمة تامَّة وسعت كلَّ شيء ، كما أنَّ الموجودات كلّها شاهدة له بالربوبية التامَّة

---

(١) الصحيح : كتاب بدء الخلق - باب ماجاء في قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ (٣٣١/٦ ح ٣١٩٤) ، وبنحوه انظر صحيح الإمام مسلم : كتاب التوبة - باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢١٠٧/٤ ح ٢٧٥١) وفيه بلفظ : « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ » ، « تَغْلِبُ » .

(٢) الصحيح ؛ كتاب الاستئذان - باب السلام اسم من أسماء الله تعالى (١٥/١١ ح ٦٢٣٠) ، وانظر صحيح الإمام مسلم : كتاب الصلاة - باب التشهد في الصلاة (٣٠١/١ ح ٤٠٢) .

الكاملة ، وما في العالم من آثار التدبير والتصريف الإلهي شاهد بملكه سبحانه ، فجعل صفة الرحمة واسم الرحمة مجازاً كجعل صفة الملك والربوبية مجازاً ، ولافرق بينهما في شرعٍ ولاعقلٍ ولا لغةٍ[1] .

فصفة الرحمة يجب الإيمان بها على أنها صفة حقيقية ، لا تشبه صفات المخلوقين ، ولا تُمَثَّل ولا تُعَطَّل ولا تُرَدّ ولا تُجْحَد ولاتُؤوَّل بتأويلٍ يخالف ظاهرها [2] .

---

(١) انظر مختصر الصواعق المرسلة ص : (٢٩٦ - ٣٠٦) .

(٢) انظر قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر ص : (٦٩) .

صِفَةُ الْعُلُوِّ وَالْفَوْقِيَّةِ

العرض :

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيْمُ الْخَبِيْرُ ﴾[1] :

« تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقدرة »[2] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَخَافُوْنَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُوْنَ مَايُؤْمَرُوْنَ ﴾[3] :

« أي : يخافونه جل وعلا خوف هيبة وإجلال ، وهو فوقهم بالقهر ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾[4] ، أو يخافون أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم ، والجملة حال من الضمير في : ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُوْنَ ﴾[5]، أو هو بيان له وتقرير ؛ لأن من يخاف الله سبحانه لايستكبر عن عبادته »[6] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾[7] :

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : (١٨) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١١٦/٣) .

(٣) سورة النحل ، الآية : (٤٩) .

(٤) سورة الأنعام ، الآية : (١٨) .

(٥) سورة النحل ، الآية : (٤٩) .

(٦) إرشاد العقل السليم : (١١٩/٥) .

(٧) سورة فاطر ، الآية : (١٠) .

« بيان لمايطلب به العزّة ، وهو التوحيد والعمل الصالح ، وصعودهما إليه مجاز عن قبوله تعالى إيّاهما ، أو صعود الكتبة بصحيفتهما ، وتقديم الجار والمجرور عبارة عن كمال الاعتداد به ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾[1] ، أي : إليه يصل الكلم الطيب الذي به يطلب العزّة لا إلى الملائكة الموكّلين بأعمال العباد فقط ، وهو يعزّ صاحبه ، ويعطي طلبته بالذات ، والمستكن في يرفعه للكلم ، فإنّ مدار قبول العمل هو التوحيد ، ويؤيده القراءة بنصب العمل أو للعمل ، فإنه يحقق الإيمان ويقويه ، ولاينال الدرجات العالية إلا به ، وقرىء يصعد من الإصعاد على البناءين ، والمصعد هو الله سبحانه ، أو المتكلم به ، أو الملك »[2] .

وقال عند قوله تعالى : ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾[3] :

« أي الملائكة الموكلين بتدبير هذا العالم ، أو الله سبحانه على تأويل ﴿ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ : أمره وقضاؤه ، أو على زعم العرب حيث كانوا يزعمون أنَّه تعالى في السماء ، أي : أأمنتم مَن تزعمون أنه في السماء ، وهو متعالٍ عن المكان »[4] .

---

(١) سورة الشورى ، الآية : (٢٥) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (١٤٥/٧) .

(٣) سورة الملك ، الآية : (١٦) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (٧/٩) .

النقــد:

ذكر أبو السعود الفوقيّة في الآيات المذكورة آنفاً ، وفسّرها بأنها فوقية القهر والغلبة ، كما أوّلها بعض أهل الكلام إلى فوقية المكانة والرُّتبة والعَظَمة والعِزّة[1] .

وهذا قول بالمجاز ، وتأويل منافٍ لسياق الكلام ؛ لأنَّ حقيقة الفوقية علوّ ذات الشيء على غيره ، والآيات صريحة في فوقية الذات .

ويبدو أنَّ أبا السعود قد نقل عبارات البيضاوي بتمامها عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ من سورة الملك[2] ، وكلاهما قد وافق ماجاء في الكشاف للزمخشري حيث قال : في تأويل هذه الآية وجهان :

« أحدهما : من ملكوته في السماء ؛ لأنها مسكن ملائكته ، وثم عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ، ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه .

والثاني : أنهم كانوا يعتقدون التشبيه ، وأنه في السماء ، وأن الرحمة والعذاب ينزلان منه ، وكانوا يدعونه من جهتها ، فقيل لهم على حسب اعتقادهم : أأمنتم مَن تزعمون أنه في السماء ، وهو متعالٍ عن المكان أن

---

(١) مثل الملا علي القاري الحنفي حيث قال في كتابه شرح الفقه الأكبر ص (١٧١) : « وأما علوه تعالى على خلقه المستفاد من نحو قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ فعلو مكانة ومرتبة ، لا علو مكان » ، وانظر تعليقات الكوثري على الأسماء والصفات للبيهقي ص : (٤٠٦) .

(٢) انظر أنوار التنزيل للبيضاوي : (٥١١/٢) . والعبارات بتمامها أيضاً في مدارك التنزيل لأبي البركات النسفي : (٢٧٦/٤) .

يعذبكم ... »[1] .

وقال ابن فُوْرَك[2]: « واعلم أنَّا إذا قلنا : إنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ فوق ماخلق ، لم يرجع به إلى فوقية المكان والارتفاع على الأمكنة ... بل قولنا : إنه فوقها يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه يراد به أنه قاهر لها ، مستولٍ عليها ، إثباتاً لإحاطة قدرته بها ، وشمول قهره لها ، وكونها تحت تدبيره ، جارية على حسب علمه ومشيئته .

والوجه الثاني : أنْ يراد أنه فوقها على معنى : أنه مباين لها بالصفة والنعت ، وأنَّ مايجوز على المحدثات من العيب والنقص والعجز والآفة والحاجة ، لا يصح شيء من ذلك عليه ، ولا يجوز وصفه به ، وهذا متعارف في اللغة أن يقال : فلان فوق فلان ، ويراد بذلك رفعة المرتبة والمنزلة ، واللَّه عزَّ وجلَّ فوق خَلْقه على الوجهين جميعاً »[3] .

فالعلو والفوقية صفة ذاتية للَّه عزَّ وجلَّ ثابتة بالكتاب والسنة ، والعلو ثلاثة أقسام :

١- علو الشأن .

---

(١) الكشاف : (١٣٨/٤) .

(٢) هو محمد بن الحَسَن بن فُورَك الأنصاري الأصبهاني ، أبو بكر . واعظ عالم بالأصول والكلام ، من فقهاء الشافعية . مات سنة (٤٠٦ هـ) . انظر سير أعلام النبلاء : (٢١٤/١٧) ، والأعلام : (١٢٠/٦) .

(٣) مشكل الحديث ص : (٦٤ ، ٦٥) .

٢- علو القهر .

٣- علو الفوقية (علو الذات) .

وأهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ الله تعالى في السماء فوق جميع مخلوقاته ، مستوٍ على عرشه ، عالٍ على خلقه ، بَائِنٌ منهم ، غير مختلط بهم ، علمه في كل مكان ، لا يخلو منه مكان ، يعلم أعمالهم ، ويسمع أقوالهم ، ويرى حركاتهم وسكناتهم ، لا تخفى عليه خافية[١] .

وأما أدلة علو الله تعالى في القرآن الكريم ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام السلف الصالح ، فهي كثيرة جداً ، وقد تتبعها بعضهم فوجدها أكثر من ألف دليل[٢] .

فمن الكتاب :

١- قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾[٣] .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾[٤] .

٣- قوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾[٥] .

---

(١) انظر إثبات صفة العلو لابن قدامة ص : (١١٥) ، وقطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر لصديق حسن خان ص : (٥٠) ،

(٢) انظر الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح : (٨٤/٣) ، والصواعق المرسلة لابن قيم الجوزية - تحقيق د. الدخيل الله : (١٢٧٩/٤) ، واجتماع الجيوش الإسلامية ص : (٣٣١) .

(٣) سورة الأعلى ، الآية : (١) .

(٤) سورة الأنعام ، الآية : (١٨) .

(٥) سورة النحل ، الآية : (٥٠) .

٤- قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾[1] .

٥- قوله تعالى : ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾[2] .

وغير هذه الآيات كثير جداً ...

ومن السنة :

١- ما رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ »[3].

٢- ما رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِيْنَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ . يَقُوْلُ : مَنْ يَدْعُوْنِي فَأَسْتَجِيْبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِيْ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ »[4] .

---

(١) سورة فاطر ، الآية : (١٠) .

(٢) سورة الملك ، الآية : (١٦) .

(٣) الصحيح : كتاب المغازي ـ باب بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٦٦٦/٧ ح ٤٣٥١) ، وانظر صحيح الإمام مسلم : كتاب الزكاة ـ باب ذكر الخوارج وصفاتهم (٧٤٢/٢ ح ١٠٦٤) .

(٤) الصحيح :كتاب التهجد ـ باب الدعاء والصلاة من آخر الليل (٣٥/٣ ح ١١٤٥) ، وفي مواضع أخرى برقم : (٦٣٢١) ، (٧٤٩٤) ، وانظر صحيح الإمام مسلم : كتاب صلاة المسافرين وقصرها ـ باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل (٥٢١/١ ح ٧٥٨) .

٣- ما رواه الإمام مسلم بسنده عن معاوية بن الحكم السُّلَمي[1] أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال للجارية : « أَيْنَ اللَّهُ ؟ » قالت : في السماء . قال : « مَنْ أَنَا ؟ » قالت : أنت رسول الله . قال : « أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ »[2] .

٤- ما رواه الإمام مسلم بسنده ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وهو حديث المعراج الطويل ، وفيه تجاوز النبي صلى الله عليه وسلم سماءً سماءً حتى انتهى إلى ربِّه تعالى فقرَّبه وأدناه ، وفرض عليه الصلوات خمسين صلاة ، فلم يَزَلْ يتردَّد بين موسى عليه السلام وبين ربِّه تبارك وتعالى ، ينزل من عند ربه إلى عند موسى فيسأله كم فرض عليه ، فيخبره ، فيقول : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فيصعد إلى ربه فيسأله التخفيف[3] .

٥- ما رواه البخاري ، وهو حديث الإسراء عن أنس رضي الله عنه ، وفيه : ثم عَلاَ بِهِ - يعني جبريل - فَوْقَ ذَلِكَ بِمَا لاَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ اللَّهُ ... فَأَوْحَى اللَّهُ فِيمَا أَوْحَى خَمْسِيْنَ صَلاَةً عَلَى أُمَّتِكَ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، ثُمَّ هَبَطَ حَتَّى بَلَغَ مُوْسَى ، فَاحْتَبَسَهُ مُوْسَى ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّد مَاذَا عَهِدَ إِلَيْكَ رَبُّكَ ؟ قَالَ : عَهِدَ إِلَيَّ خَمْسِيْنَ صَلاَةً كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، قَالَ : إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تَسْتَطِيْعُ ذَلِكَ ، فَارْجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ رَبُّكَ وَعَنْهُمْ ... فَقَالَ : يَا رَبِّ

---

(١) معاوية بن الحكم السُّلَمي ، له صحبة ، ويُعدُّ في أهل الحجاز ، وكان يسكن في بني سُلَيم ، وينزل المدينة . انظر تهذيب الكمال للمزّي : (١٧٠/٢٨) ، والكاشف للذهبي : (١٥٦/٣) ، والإصابة لابن حجر : (١١١/٦) .

(٢) الصحيح : كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب تحريم الكلام في الصلاة (٣٨١/١ ح ٥٣٧) ، وانظر مسند الإمام أحمد (٤٤٧/٥) .

(٣) انظر الصحيح : كتاب الإيمان - باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات وفرض الصلوات (١٤٥/١ ح ١٦٢) .

خَفِّف عَنَّا ... الحديث[1] .

فهذه النّصوص وغيرها تدلّ دلالةً قاطعةً لا تحتمل المجاز والتأويل بوجه من الوجوه على أنَّ اللّه عزَّ وجلَّ فوق العالم حقيقة .

وللصحابة والتابعين ومَن سار على نهجهم آثار كثيرة عن علوّ اللّه تعالى وفوقيته ، وقد جمعها الإمام ابن قُدَامَــــة المَقْدسي[2] في كتابه : « إثبات صفــة العلو » ، والحافظ الذهبي[3] في كتابه : « العلو للعلي الغفـار » ، والإمـام العـلاّمة ابن قَيّم الجَوزيَّة في كتـابه «اجتماع الجيوش الإسلاميـة على غزو المعطِّلة والجهمية »، وغيرهم من الأئمة وعلماء الأمة رحمهم الله تعالى .

وقد أولى شيخ الإسلام ابن تيميَّة مسألة العــلو والفوقية اهتماماً كبيراً ، وأطال النّفَس جداً في بيـــان أدلتها والرَّد على نفـاتهـا ومنـاقشتهم ، ولايكاد يخلو كتاب من كتبه العقدية مِن عَرْضٍ لها إثباتاً أو رداً على الخصوم فيها[4] .

---

(١) انظر الصحيح : كتاب التوحيـــــد ـ باب ما جاء في قوله عز وجل : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ (٤٨٦/١٣ ح ٧٥١٧) .

(٢) هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن قُدَامة المَقْدسي الجَمَّاعِيلي الدِّمشقي الصَّالحي الحنبلي ، موفّق الدِّين أبو محمد ، شيخ الإسلام ، الإمام العلاّمة ، صاحب المُغْنِي ، عالِم أهل الشام في زمانه . مات سنة ٦٢٠ هـ . انظر سير أعلام النبلاء : (٢٢ /١٦٥) ، والبداية والنهاية : (١٠٧/١٣) .

(٣) هو محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، شمس الدِّين أبو عبد الله ، الحافظ المؤرِّخ المحقِّق ، تركماني الأصل ، مولده ووفاته في دمشق ، تصانيفه تقارب المائة . مات سنة ٧٤٨ هـ انظر : فوات الوفيات : (١٨٣/٢) ، وشذرات الذهب : (١٥٣/٦) ، والأعلام : (٣٢٦/٥) .

(٤) انظر درء تعارض العقـل والنقـل : الجزء السادس بأكمله ، و (٧/ ١ـ ١٤٠) مـن الكتـاب نفسه ، وبيان تلبيس الجهمية أو نقض أساس التقديس : (٥٠٢/١ـ ٦٢٩) ، والجزء الثاني بكامله من الكتاب نفسه ، والقاعدة المراكشية ص : (٣٥ـ ٧٩) ، وهي ضمن مجموع الفتاوى : (١٦٤/٥ـ ١٩٣) .

وقد جاء في مختصر الصواعق المرسلة إبطال إنكار حقيقة فوقيته سبحانه وتعالى وحملها على المجاز من سبعة عشر وجهاً [1] .

فتأويل نصوص الفوقيَّة إلى فوقية القهر والغلبة أو الرُّتبة والمنزلة وغيرها ، هو صرف للَّفظ عن حقيقته وظاهره بدون دليل ، ولا شكَّ أنَّ اللَّه تعالى له فوقية القهر والقدر والمنزلة والعظمة ، ولكن حصر معنى الفوقية له تعالى بذلك باطل مخالف للنصوص ؛ لأنَّ له سبحانه وتعالى أيضاً فوقية الذات ، ولأنَّ حصر معنى الفوقية في الآيات بالمعنى الذي ذكروه فيه تنقص للرَّبِّ تعالى ، حيث زعموا أنَّ المقصود بكون الرَّب تعالى فوق عباده ، أي : أنه خير منهم وأفضل .

وهذا المعنى إنما يقال في المتقاربين في المنزلة ، وأنَّ أحدهما أفضل من الآخر ، وأما إذا لم يتقاربا بوجه فإنه لا يصح فيهما ذلك ، وإذا كان يقبح كلّ القبح أنْ تقول : الجوهر فوق قشر البصل ، وإذا قلت ذلك ضحكت منك العقلاء ، للتفاوت العظيم الذي بينهما ، فالتفاوت الذي بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم .

والله سبحانه لم يمتدح نفسه ابتداء بأنه أفضل من أحد من خلقه ، وإنما ذكر التفضيل في سياق الرّد على من عبد معه غيره ، وأشرك في إلٰهيته ، فبيَّن سبحانه أنه خير من تلك الآلهة ، كقوله : ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2] .

ثم إنَّ هذا المعنى الذي ذكروه وإنْ صحَّ واحتمل في سياق بعض الكلام ،

---

(١) انظر مختصر الصواعق المرسلة ص : (٣٥٥ـ ٣٦٣) .

(٢) سورة النمل ، الآية : (٥٩) .

إلا أنه لا يصح في مثل قوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾[1] ، فلا يعرف في اللغة ألبتَّه استعمال « فوق » مقروناً بـ « من » بمعنى فوقية الخيرية ، فلا يصح أن يقال : « الذهب من فوق الفضة » ، ولا « العالِم من فوق الجاهل » ، على معنى الخيرية والأفضلية ، وعليه فلا يصح تفسير قوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ على هذا المعنى ، بل الآية صريحة في فوقية الذات[2] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة : « فهذا كتاب الله مِن أوّله إلى آخره ، وسُنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم من أولها إلى آخرها ، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين ، ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو إما نصّ وإما ظاهر في أنَّ الله سبحانه وتعالى هو العليُّ الأعلى ، وهو فوق كلِّ شيء ، وهو عالٍ على كلِّ شيء ، وأنه فوق العرش ، وأنه فوق السماء ...

ثم عن السلف في ذلك من الأقوال ما لو جمع لبلغ مِئِين أو ألوفاً ، ثم ليس في كتاب الله ، ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا عن واحد من سلف الأمة ، لا من الصحابة ولا من التابعين بإحسانٍ ، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف حرف واحد يخالف ذلك لا نصاً ولا ظاهراً »[3] .

والحاصل أنّ كل ما في الكتاب والسنة من الأدلَّة الدَّالَّة على قربه ومعيَّته

---

(١) سورة النحل ، الآية : (٥٠) .

(٢) انظر مختصر الصواعق المرسلة ص : (٣٥٥ ، ٣٥٦) .

(٣) الفتوى الحموية الكبرى ، تقديم محمد عبد الرزاق حمزة ص : (١٦ ، ١٩) ، وهي ضمن مجموع الفتاوى : (٥/١٢ ، ١٥) .

لا ينافي ما ذكر من علوّه وفوقيته ، فإنه سبحانه عليٌّ في دنوّه ، وقريب في علوّه ، والأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جداً [1] .

والعلوُّ والفوقية صفة كمال ، لا نقص فيه ، ولا يستلزم نقصاً ، ولا يوجب محذوراً ، ولا يخالف كتاباً ولا سنة ولا إجماعاً ، فنفي حقيقته يكون عين الباطل والمحال الذي لا تأتي به شريعة أصلاً ، وما نقله أبو السعود عن غيره من القول بالمجاز ، ومن تأويلات منافية لسياق الكلام مخالف لمنهج السلف الصالح في إثبات حقيقة العلوّ والفوقية ، والله أعلم .

---

(١) انظر قطف الثمر ص : (٥١) .

صِفَتَا الْغَضَبِ وَالرِّضَا

العـــرض :

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾[1] :

« والغضب هيجان النفس لإرادة الانتقام ، وعند إسناده إلى الله سبحانه يراد به غايته بطريق إطلاق اسم السبب بالنسبة إلينا على مسبّبه القريب إن أريد به إرادة الانتقام ، وعلى مسبّبه البعيد إنْ أُرِيد به نفس الانتقام ، ويجوز حمل الكلام على التمثيل بأنْ يشبه الهيئة المنتزعة من سخطه تعالى للعصاة ، وإرادة الانتقام منهم لمعاصيهم بما ينتزع من حال الملك إذا غضب على الذين عصوه ، وأراد أن ينتقم منهم ويعاقبهم ، وعليهم مرتفع [بالمغضوب][2] قائم مقام فاعله ، والعدول عن إسناد الغضب إليه تعالى كالإنعام جرى على منهاج الآداب التنزيلية في نسبة النعم والخيرات إليه عزَّ وجلَّ دون أضدادها ، كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِيْ خَلَقَنِيْ فَهُوَ يَهْدِيْنِ ۝ وَالَّذِيْ هُوَ يُطْعِمُنِيْ وَيَسْقِيْنِ ۝ وَإِ ذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِيْنِ ﴾[3] ... »[4] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوْا يَكْفُرُوْنَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾[5] :

« من الله : متعلق بمحذوف هو صفة لغضب مؤكد لما أفاده

---

(١) سورة الفاتحة ، الآية : (٧) .

(٢) في النّص : « بالمغصوب » بالصاد المهملة ، والصواب ما أثبتُّه .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات : (٧٨ ـ ٨٠) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (١٩/١) .

(٥) سورة البقرة ، الآية : (٦١) .

التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ، أي : بغضب كائن من الله تعالى ، أو صاروا أحقاء به ... »[1] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾[2] :

« وغضب الله عليه : فعطف على مقدر يدلُّ عليه الشرطية دلالة واضحة ، كأنه قيل بطريق الاستئناف تقريراً وتأكيداً لمضمونها حكم الله بأن جزاءه ذلك ، وغضب عليه ، أي : انتقم منه »[3] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾[4] :

« الرجس : العذاب من الارتجاس الذي هو الاضطراب ، والغضب : إرادة الانتقام ، وتنوينهما للتفخيم والتهويل »[5] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾[6] :

---

(١) إرشاد العقل السليم : (١٠٧/١) . وبنحو ذلك قال عند تفسير الآية رقم : (١١٢) من سورة آل عمران ، والآية رقم : (١٦) من سورة الأنفال . انظر : (٧٢/٢) ، (١٢/٤) من تفسيره على التوالي .

(٢) سورة النساء ، الآية : (٩٣) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (٢١٧/٢) .

(٤) سورة الأعراف ، الآية : (٧١) .

(٥) إرشاد العقل السليم : (٢٣٩/٣) .

(٦) سورة طه ، الآية : (٨١) .

« أي : فتلزمكم عـقـــوبتي ، وتجب لكم ، مـــن حَلَّ الدَّين إذا وجب أداؤه »[1] .

وقال أبو السعود في صفة الرضا في تفسير قوله تعالى : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِيْنَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا أَبَداً رَضِـــيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوْا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ ﴾[2] :

« استئناف آخر لبيان أنه عزَّ وجلَّ أفاض عليهم غير ماذكر من الجنَّات مالاقدر لها عنده ، وهو رضوانه الذي لاغاية وراءه »[3] .

وقال في تفسير قوله تعـــالى : ﴿ وَالسَّـابِقُوْنَ الأَوَّلُوْنَ مِـنَ المُهَـاجِرِيْنَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِيْنَ اتَّبَعُوْهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوْا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِيْ تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ ﴾[4] :

« أي : رضي الله عنهم بقبول طاعتهم ، وارتضاء أعمالهم »[5] .

وقال في تفسير قوله تعـالى : ﴿ لاَ تَجِـدُ قَوْمـاً يُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّوْنَ مَـنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ وَلَوْ كَانُوْا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَـاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيْرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوْبِهِمُ الإِيْمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوْحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِيْ

---

(١) إرشاد العقل السليم : (٣٣/٦) .

(٢) سورة المائدة ، الآية : (١١٩) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (١٠٣/٣) .

(٤) سورة التوبة ، الآية : (١٠٠) .

(٥) إرشاد العقل السليم : (٩٧/٤) .

مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ المُفْلِحُوْنَ ﴾[1] :

« استئناف جارٍ مجرى التعليل لما أفاض عليهم من آثار رحمته العاجلة والآجلة »[2].

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾[3] :

« استئناف مبين لما يتفضل عليهم زيادة على ماذكر من أجزية أعمالهم »[4] .

---

(١) سورة المجادلة ، الآية : (٢٢) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٢٢٤/٨) .

(٣) سورة البينة ، الآية : (٨) .

(٤) إرشاد العقل السليم : (١٨٧/٩) .

النقــد :

ذكر أبو السعــود الأقــوال المذكــورة آنفــاً عن صفـــة الغضــب ، وهي كما يأتي :

- أنَّ الغضب هيجان النفس لإرادة الانتقام[1] .

- انتقامه ممن عصـاه .

- إرادة الانتقام .

- العقوبة .

وفي صفة الرضا ذكر تأويلها إلى الثواب أو قبول الطاعات ونحو ذلك .

وهذه الأقوال المذكورة آنفاً هي في الحقيقة صرف لصفـتي الغضب والرضا عن ظاهـرهما ، ولاشك أنَّ هذه التـأويلات باطلة ، وبعيـدة عن المعـاني التي أراد منّا الشرع أنْ نفهمها ونعتقدها من النصوص ، بل إنَّ المعاني اللغوية التي يفسرون بها النصوص غير مُسَلَّمة لهم .

فمثلاً : تأويلهم الغضب بأنه غليان دم القلب - أو هيجان النفس - لطلب الانتقام،فهذا كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة : «ليس بصحيح في حقنا ، بل الغضب قد يكون لدفع المنافي قبل وجوده ، فلا يكون هناك انتقام أصلاً .

وأيضـاً : فغليان دم القلب يقـارنه الغضب ، ليس أنَّ مجـرد الغضب هو غليان دم القلب ، كما أن الحياء يقارنه حمرة الوجه ، والوجل يقـارنه صفرة

---

(١) انظر أنـوار التنزيل : (١١/١) ، ومـدارك التنزيل : (٦/١) ، وعمـدة القاري : (١١٥/٢٥) ، ومشكل الحديث لابن فـورك ص : (٢٥٩) .

الوجه ، لا أنه هو ؛ وهذا لأنَّ النفس إذا قام بها المؤذي فإن استشعرت القدرة فاض الدم إلى خارج ، فكان منه الغضب ، وإن استشعرت العجز عاد الدم إلى داخل فاصفرّ الوجه كما يصيب الحزين .

وأيضاً : فلو قدّر أنَّ هذا هو حقيقة غضبنا لم يلزم أن يكون غضب الله تعالى مثل غضبنا ، كما أنَّ حقيقة ذات الله ليست مثل ذاتنا ، فليس هو مماثل لنا لا لذاتنا ولا لأرواحنا ، وصفاته كذلك »[1] .

وأما تفسير الغضب بالعقوبة ، فهذا تفسير للصفة ببعض آثارها المخلوقة ، وهو غير الصفة ، وتفسير الغضب بإرادة الانتقام إلغاءٌ لحقيقة هذه الصفة ومعناها ، وجعل معاني صفات عدة في معنى صفة واحدة [2] .

وقول القائل : انفعالات نفسية .

فيقال : كل ما سوى الله مخلوق منفعل ، ونحن وذواتنا منفعلة ، فكونها انفعالات فينا لغيرنا نعجز عن دفعها ، لا يوجب أنْ يكون الله منفعلاً لها عاجزاً عن دفعها ، وكان كل ما يجري في الوجود فإنه بمشيئته وقدرته ، لا يكون إلا ما يشاء ، ولا يشاء إلا ما يكون ، له الملك وله الحمد[3] .

وقد ناقش شيخ الإسلام مَن ينفي ويؤوّل هذه الصفة وغيرها من الصفات الفعلية مناقشة علمية فقال :

---

(١) الرسالة الأكملية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص : (٥٣) ، وهي ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام : (٦/١١٩) .

(٢) انظر موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة: د. سليمان الغصن : (٢/٥٥٥).

(٣) انظر الرسالة الأكملية ص : (٥٤) .

« القول في بعض الصفات كالقول في بعض ... فإنْ كان المخاطب ممن يقرّ بأنَّ اللّه حي بحياة ، عليم بعلم ، قدير بقدرة ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، متكلم بكلام ، مريد بإرادة ، ويجعل ذلك كله حقيقة ، وينازع في محبته ورضاه وغضبه وكراهيته ، فيجعل ذلك مجازاً ، ويفسره إما بالإرادة ، وإما ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات .

قيل له : لافرق بين ما نفيته وبين ما أثبته، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر.

فإن قلت : إن إرادته مثل إرادة المخلوقين .

فكذلك محبته ورضاه وغضبه ، وهذا هو التمثيل .

وإن قلت : له إرادة تليق به ، كما أن للمخلوق إرادة تليق به .

قيل لك : وكذلك له محبة تليق به ، وللمخلوق محبة تليق به ، وله رضا وغضب يليق به ، وللمخلوق رضا وغضب يليق به .

وإن قال : الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام .

قيل له : والإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة ، أو دفع مضرة .

فإن قلت : هذه إرادة المخلوق .

قيل لك : وهذا غضب المخلوق .

وكذلك يُلزَم بالقول في كلامه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته ، إن نفى عن الغضب والمحبة والرضا ونحو ذلك ماهو من خصائص المخلوقين، فهذا

منتفٍ عن السمع والبصر والكلام وجميع الصفات .

وإن قال : إنه لا حقيقة لهذا إلا ما يختص بالمخلوقين فيجب نفيه عنه .

قيل : وهكذا السمع والبصر والكلام والعلم والقدرة »[1] .

وقال ابن أبي العز الحنفي[2] في صفتي الغضب والرضا : « ولا يقال : إن الرضا إرادة الإحسان ، والغضب إرادة الانتقام ، فإن هذا نفي للصفة ، وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه ، وإن كان لا يريده ولا يشاؤه ، وينهى عما يسخطه ويكرهه ويبغضه ، ويغضب على فاعله ، وإن كان قد شاءه وأراده ، فقد يحب عندهم ويرضى مالا يريده ، ويكره ويسخط ويغضب لما أراده .

ويقال لمن تأوّل الغضب والرضا بإرادة الإحسان : لِمَ تأوّلْتَ ذلك ؟

فلابد أنْ يقول : إنَّ الغضب غليان دم القلب ، والرضى الميل والشهوة ، وذلك لا يليق بالله تعالى .

فيقال له : غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب ، لا أنه الغضب »[3] .

وقال الإمام أبو حنيفة : « وغضبه ورضاه صفتان من صفاته تعالى

---

(١) التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص : (٣١ ، ٣٢) .

(٢) هو علي بن علي بن محمد بن أبي العِزّ الحنفي الدمشقي ، فقيه ، كان قاضياً بدمشق ثم بالدِّيار المصرية . له مصنَّفات منها : شرح الطحاوية ، التنبيه على مشكلات الهداية ، والنور اللامع فيما يعمل به في الجامع . مات سنة ٧٩٢ هـ . انظر الأعلام : (٣١٣/٤) .

(٣) شرح الطحاوية لعلي بن أبي العز الحنفي بتحقيق د. عبد الرحمن عميرة : (٢١٤/٢) .

بلا كيف »[1] .

وقال أيضاً : « لا يوصف الله تعالى بصفات المخلوقين ، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف ، وهو قول أهل السنة والجماعة ، وهو يغضب ويرضى ، ولا يقال : غضبه عقوبته ، ورضاه ثوابه ، ونَصِفُه كما وَصَف نفسه »[2] .

وقال أبو القاسم الأصبهاني : « قال علماؤنا : يوصف الله بالغضب ، ولا يوصف بالغيظ . قيل : الغيظ بمنزلة الحسرة ، وقيل : إنا نغتاظ من أفعالنا ، ولا نغضب منها »[3] .

وقال ابن أبي العز : « وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى ؛ لامتناع مسمى ذلك في المخلوق ، فإنه لابد أن يثبت شيئاً لله تعالى على خلاف ما يعهده حتى في صفة الوجود ، فإن وجود العبد كما يليق به ، ووجود الباري تعالى كما يليق به ، فوجوده تعالى يستحيل عليه العدم ، ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم ، وما سمى به الرب وسمى به مخلوقاته مثل الحي والعليم والقدير ، أو سمى به بعض صفاته كالغضب والرضى ، وسمى به بعض صفات عباده ، فنحن نعقل بقلوبنا معاني هذه الأسماء في حق الله تعالى ، وأنه حق ثابت موجود ، ونعقل أيضاً

(١) الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة بشرح الملا علي القاري ص : (٥٩) .

(٢) الفقه الأبسط للإمام أبي حنيفة بتحقيق الكوثري ص : (٥٦) ، نقلاً عن : الماتريدية للسلفي : (٢/٤٥٢ ، ٤٥٣) .

(٣) الحجة في بيان المحجة لقوام السنة أبي القاسم إسماعيل الأصبهاني ، تحقيق : د. محمد بن محمود أبو رحيم : (٢/٤٥٧) .

معاني هذه الأسماء في حق المخلوق ، ونعقل أن بين المعنيين قدراً مشتركاً ، لكن هـذا المعنى لا يوجد في الخـارج مشتركاً ، إذ المعنى المشترك الكلي لا يوجد مشتركاً إلا في الأذهـان ، ولا يوجد في الخارج إلا معيناً مختصاً فثبت في كل منهما كما يليق به »(١).

فيظهر مما تقدم أنَّ اللوازم التي ذكرها المؤوِّلون لصفتي الغضب والرضا وغيرهما من الصفات ، والتي جعلوها سبباً في تأويلهم ، لا يمكن أن تخطر ببال من عرف عظمة الله ، وقدّره حقَّ قدره ، وأنَّ هذه اللوازم وإنْ كانت قد تلزم في حقِّ بعض المخلوقين ، فإنها غير لازمة في حقِّ الله تعالى ، وأنَّ هذه التأويلات لاتخلو إما أنْ تكون تفسيراً للصفة ببعض آثارها ، أو تفسيراً لها بصفة أخرى ، أو تأويلاً لها بمعانٍ بعيدة ، تشهد النصوص المتنوعة للصفة المعينة ببطلانها وتكلفها ، وخروجها عن معنى سياق الكلام(٢) .

يقول ابن أبي العز الحنفي : « ومذهب السلف وسائر الأئمة : إثبات صفة الغضب والرضا والعداوة والولاية والحب والبغض ، ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة ، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى »(٣) .

والسلف الصالح يثبتون صفتي الغضب والرضا لله عزَّ وجلَّ بوجه يليق بجلاله وعظمته ، لا يكيّفون ، ولا يُشبِّهون ، ولا يُؤوِّلون ، فصفتا

---

(١) شرح الطحاوية لعلي بن أبي العز الحنفي بتحقيق د. عبد الرحمن عميرة : (٢/٢١٥) .

(٢) انظر موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة : د. سليمان الغصن : (٢/٥٥٧) .

(٣) شرح الطحاوية : (٢/٢١٣) .

الغضب والرضا عندهم صفتان فعليتان خبريتان ثابتتان لله عزّ وجلّ بالكتاب والسنة ، واستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة :

فمن القرآن الكريم :

قول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيْهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيْماً ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْا فِيْهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيْ وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِيْ فَقَدْ هَوَىٰ ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوْا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُوْرِ ﴾[5] .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِيْنَ إِذْ يُبَايِعُوْنَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾[6] .

---

(١) سورة النساء ، الآية : (٩٣) .

(٢) سورة النور ، الآية : (٩) .

(٣) سورة طه ، الآية : (٨١) .

(٤) سورة المجادلة ، الآية : (١٤) .

(٥) سورة الممتحنة ، الآية : (١٣) .

(٦) سورة الفتح ، الآية : (١٨) .

وقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً ﴾[1] .

ومن السنة الشريفة :

ما رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي »[2] .

وروى الإمام البخاري أيضاً بسنده حديث الشفاعة الطويل عن أبي هريرة رضي الله عنه وفيه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال على لسان آدم ونوح عليهما السلام : إنّ « رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ »[3] .

وروى الإمام مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةً من الفراش ، فالتمسته ، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد ، وهما منصوبتان ، وهو يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ »[4] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : (٣) .

(٢) الصحيح : كتاب بدء الخلق - باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ (٣٣١/٦ ح ٣١٩٤) ، وانظر صحيح الإمام مسلم : كتاب التوبة - باب في سعة رحمة الله تعالى ، وأنها سبقت غضبه (٢١٠٧/٤ ح ٢٧٥١) .

(٣) الصحيح : كتاب أحاديث الأنبياء - باب قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ﴾ (٤٢٨/٦ ح ٣٣٤٠) ، وانظر صحيح الإمام مسلم : كتاب الإيمان - باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٨٤/١ ح ١٩٤) رقم : (٣٢٧) .

(٤) الصحيح : كتاب الصلاة - باب مايقال في الركوع والسجود : (٣٥٢/١ ح ٤٨٦) .

وروى الإمام مسلم أيضاً بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثاً ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثاً ، فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوْهُ ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيْعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيْلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ »[1] .

فيظهر مما تقدم أنَّ أبا السعود قد وافق الماتريدية وغيرهم في تأويل صفتي الغضب والرضا ؛ ذلك أنهم إذا قرؤوا صفتي الغضب أو الرضا في كتاب الله تعالى أو في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فَهِمُوا أنها انفعالات نفسيَّة يجب تنزيه الله تعالى عنها ، وقالوا إنما يصار إلى المجاز لاستحالة الحقيقة على الله تعالى ؛ لأنها عبارة عن حالة نفسانية ، فالكلّ في حقِّ الله تعالى مُحال[2] .

وهذا التأويل مخالف للمنهج الصحيح الذي سار عليه السَّلف الصالح في باب الصفات ، والله تعالى أعلم .

---

(١) الصحيح : كتاب الأقضية - باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة : (١٣٤٠/٣ ح ١٧١٥) .

(٢) انظر كتاب التوحيد للماتريدي ص : (٥٣) ، وإشارات المرام للبياضي ص : (١١٠ ، ١٨٧) .

الإتيـــان والمجيء

العـــرض :

قال أبو السعود في تفسير قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾[1] :

« أن يأتيهم اللّه ، أي : أَمْـره وبأْسـه ، أو يأتيهم الله بأمـره وبأسـه ، فحذف المأتي به لدلالة الحال عليه والالتفات إلى الغيبة للإيذان بأنَّ سوء صنيعهم موجب للإعراض عنهم ، وحكاية جنايتهم لمن عداهم من أهل الإنصاف على طريقة المباثة[2] ، وإيراد الانتظار للإشعار بأنهم لانهماكهم فيما هم فيه من موجبات العقوبة كأنهم طالبون لها ، مترقبون لوقوعها »[3] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾[4] :

« استئناف مسوق لبيان أنه لايتأتى منهم الإيمان بإنزال ماذكر من البيِّنات والهُدى ، وأنهم لايرعوون عن التمادي في المكابرة واقتراح ماينافي الحكمة التشريعية من الآيات الملجئة ، وأن الإيمان عند إتيانها مما لافائدة له أصلاً ، مبالغـــة في التبليغ والإنذار ، وإزاحة العلل والأعذار ، أي : مـــاينتظرون ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ حسبما اقترحوا بقولهم : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (٢١٠) .

(٢) بَثَّ الشيءَ والخبرَ يَبُثُّهُ ويَبِثُّهُ بَثّاً وأَبَثَّهُ، بمعنى : نَشَره وفرّقه . انظر لسان العرب : (٢٠٨/١) مادة (بثث) ، والقاموس المحيط : (١٦٦/١) باب الثاء فصل الباء .

(٣) إرشاد العقل السليم : (٢١٢/١ ، ٢١٣) .

(٤) سورة الأنعام ، الآية : (١٥٨) .

عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾[1]، وبقولهم : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً ﴾[2] ، وبقولهم : ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾[3] ونحو ذلك ، أو إلا أن تأتيهم ملائكة العذاب ، أو يأتي أمر ربك بالعذاب »[4].

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾[5] :
« فأتى الله ، أي : أمره وحكمه »[6] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾[7] :
« فأتاهم الله ، أي : أمر الله تعالى وقدره المقدور لهم ، من حيث لم يحتسبوا ولم يخطر ببالهم ...

وقيل : الضمير في (أتاهم) و(لم يحتسبوا) للمؤمنين ، أي : فأتاهم نصر الله . وقرىء : فآتاهم ، أي : فآتاهم العذاب أو النصر »[8] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾[9] :

« أي ظهرت آيات قهره ، مثل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان من

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : (٢١) .
(٢) سورة الإسراء ، الآية : (٩٢) .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : (٨) .
(٤) إرشاد العقل السليم : (٢٠٣/٣) .
(٥) سورة النحل ، الآية : (٢٦) .
(٦) إرشاد العقل السليم : (١٠٧/٥) .
(٧) سورة الحشر ، الآية : (٢) .
(٨) إرشاد العقل السليم : (٢٢٥/٨ ، ٢٢٦) .
(٩) سورة الفجر ، الآية : (٢٢) .

أحكام هيبته وسياسته . وقيل : جاء أمره تعالى وقضاؤه على حذف المضاف للتهويل »[1] .

النقد :

سَلَك أبو السعود مسلك الماتريدية وغيرهم في تأويل صفتي الإتيان والمجيء ، حيث قالوا : إنَّ المراد بالإتيان : إتيان أمره وبأسه ، أو يأتيهم الله بأمره وبأسه ، أو يأتي أمر ربك بالعذاب ، أو إتيان ملائكته[2] .

وقالوا : إنَّ المراد بالمجيء : مجيء آيات قهره ، وأمره ، وقضائه ، وعطائه ، وحكمه ، وسلطانه ، وغيرها [3] .

فالماتريدية تنفي ثبوت اتِّصاف الله عزَّ وجلَّ بالإتيان والمجيء ، وحجَّتهم في ذلك أنَّ إثباتهما يستلزم التَّشبيه والتَّجسيم .

قال أبو منصور الماتريدي في تفسير قول الله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ [4] :

---

(١) إرشاد العقل السليم : (٩/١٥٧) .

(٢) انظر إرشاد العقل السليم : (١/٢١٢) ، (٣/٢٠٣) ، وانظر كذلك تأويلات أهل السنة لأبي منصور الماتريدي : (١/٨٣ - ٨٥) ، والكشاف للزمخشري : (١/٣٥٣) ، ومدارك التنزيل للنسفي : (١/١١٦) ، وأنوار التنزيل للبيضاوي : (١/١١٤ - ١١٥) ، وشرح المواقف ص : (٣٩) ، وعمدة القاري : (٢٥/١٢٥) .

(٣) انظر إرشاد العقل السليم : (٩/١٥٧) ، وانظر كذلك كتاب التوحيد لأبي منصور الماتريدي ص : (٥٣) ، والكشاف : (٤/٢٥٣) ، ومدارك التنزيل : (٢/٨٠٥)، وأنوار التنزيل : (٢/٥٩٥) ، وشرح المواقف ص : (٣٩) ، وإشارات المرام للبياضي ص : (١٨٩) .

(٤) سورة البقرة ، الآية : (٢١٠) .

« قيل فيه بوجوه : قيل : أنْ يأتيهم الله بأمره ... وقيل : يأتيهم الله ، أي : أمر الله ... والأصل في هذا ونحوه أنَّ إضافة هذه الأشياء إلى الله عزّ وجلّ لا توجب حقيقة وجود تلك الأشياء منه على ما يوجد من الأجسام ؛ لما يجوز إضافته إلى ما لا يوجد منه تحقيق ذلك ، نحو ما يقال : جاءني أمر فظيع ، وجاء الحقُّ وزهق الباطل ، وجاء فلان بأمر كذا ، وجاءكم رسول . فذكر المجيء والإتيان لا على تحقيق وجود ذلك منه ، فعلى ذلك يخرج ما أضاف الله عزّ وجلّ إلى نفسه من المجيء والإتيان والاستواء منه على تحقيق ما يكون من الأجسام ، وفي الشاهد أن ملوك الأرض يضيفون إلى أنفسهم ما عمل بأمرهم من غير أن يتولّوها بأنفسهم ، وكذلك أضاف جلّ ذكره أمر القيامة إلى نفسه لفضل ذلك الأمر . ثم الأصل أنَّ الإتيان والانتقال والزوال في الشاهد إنما يكون لخلّتين : إما لحاجة بَدَت فيحتاج إلى الانتقال من حال إلى حال ، والزوال من مكان إلى مكان ليقضيها ، أو لسآمة ووحشة تأخذه فينتقل من مكان إلى مكان لينفي عن نفسه تلك ، وهذان الوجهان في ذي المكان ، والله تعالى يتعالى عن المكان ، كان ولا مكان ، فهو على ما كان ، فالله تعالى يتعالى عن أَنْ تمسّه حاجة ، أو تأخذه سآمة ، فبطل الوصف بالإتيان والمجيء والانتقال من حال إلى حال أو من مكان إلى مكان »[1] .

وقال أبو المعين النسفي :

« لا يجوز أنْ يُوصف الله بالمجيء والذهاب ؛ لأنهما من صفات المخلوقين ، وأمارات المحْدَثين ، وهما صفتان منفيتان عن الله ، ألا ترى أن

---

(١) تأويلات أهل السنة لأبي منصور الماتريدي : (٤٣٥/١ - ٤٣٧) ، وانظر أيضاً كتاب التوحيد له ص : (٥٣) .

إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه كيف استدلّ بالمتنقّل من مكان إلى مكان أنه ليس بربّ حيث قال : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾[1] ...

ومعنى قوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾[2] : يعني بعدما أثبتنا من الدلائل أنه لا شبيه له ، ولا مجيء له ينظرون إتيانه في ظُلل من الغمام ، ويعتقدون هذا ليؤمنوا به ، وهذا في الصفات مُحال »[3] .

وقولهم هذا يشبه قول المعتزلة ، حيث قال القاضي عبد الجبار بعد نفي صفة المجيء : « والمجيء لا يُتصوّر إلَّا من الأجسام »[4] .

فتأويلهم الإتيان بتقدير محذوف ، والإضمار الذي ادّعوه لم يدلّ عليه اللفظ ، وادّعاء حذف ما لادليل عليه يرفع الثقة من الخطاب ، ويفتح الباب لكل مُبْطِل على ادّعاء إضمار ما يصحِّح باطله[5] .

ومما يدل على بطلان تأويلهم وتقديرهم قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾[6] ، ففرق بين إتيان الملائكة وإتيان الرّب وإتيان بعض آيات الرّب ، ومع هذا التقسيم يمتنع أن يكون القسمان واحداً ، كيف وقد اطردت نسبة المجيء والإتيان إليه

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : (٧٦) .

(٢) سورة البقرة ، الآية : (٢١٠) .

(٣) بحر الكلام للنسفي ص : (٢٣) ، نقلاً عن الماتريدية للحربي ص : (٣٣٦) .

(٤) شرح الأصول الخمسة : (٢/٢٢٩) .

(٥) انظر موقف المتكلّمين : (٢/٥٥٠) .

(٦) سورة الأنعام ، الآية : (١٥٨) .

سبحانه ، ولو كان مستحيلاً عليه كالأكل والشرب والنوم والغفلة لم يطلق سبحانه على نفسه ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا بقرينة ولا بدونها ، فضلاً عن أن تطرد نسبتها إليه ، وقد علمنا اطّراد نسبة المجيء والإتيان والنزول والاستواء إليه مطلقاً من غير قرينة تدلُّ على أنَّ الذي نسب إليه ذلك غيره من مخلوقاته[1] .

روى الإمام أبوعثمان الصابوني[2] عن محمد بن الحسن الشيباني[3] أنه قال : « قال حماد بن أبي حنيفة[4] : قلنا لهؤلاء[5] : أرأيتم قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾[6] ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿ هَلْ يَنْظُرُوْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ ﴾[7] ، فهل يجيء ربُّنا كما قال ؟ وهل يجيء الملك صفاً صفاً ؟ قالوا : أما الملائكة فيجيئون صفاً صفاً ،

---

(١) انظر مختصر الصواعق المرسلة ص : (٢٩٤ ، ٢٩٥) ، وجاء فيه أن ابن القيم قد أبطل قولهم بأنه من المجاز ، وأبطل تقديرهم المترتب على ذلك القول من عشرة أوجه .

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد ، أبو عثمان النّيسابوري الصَّابوني ، الإمام المحدّث المفسِّر الواعظ ، لقَّبه أهل السنة في خراسان بشيخ الإسلام ، له عقيدة السلف والفصول في الأصول . مات سنة ٤٤٩ هـ . انظر سير أعلام النبلاء : (٤٠/١٨) ، والأعلام : (٣١٧/١) .

(٣) هو محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني ، أبو عبد الله ، من موالي بني شيبان . إمام بالفقه والأصول ، وهو الذي نشر علم الإمام أبي حنيفة . مات سنة ١٨٩ هـ . انظر سير أعلام النبلاء : (١٣٤/٩) ، والجواهر المضية في طبقات الحنفية : (١٢٢/٣) ، والأعلام : (٨٠/٦).

(٤) هو حماد ابن الإمام أبي حنيفة ـ النعمان بن ثابت ـ التميمي الكوفي ، كان ذا علم وصلاح وورع ، تولى قضاء الكوفة ، مات حماد سنة ١٧٦ هـ انظر سير أعلام النبلاء : (٤٠٣/٦)، والجواهر المضية في طبقات الحنفية : (١٥٣/٢) ، والفوائد البهية ص : (٦٩) .

(٥) يعني : الجهمية .

(٦) سورة الفجر ، الآية : (٢٢) .

(٧) سورة البقرة ، الآية : (٢١٠) .

وأما الرَّب تعالى فإنا لا ندري ما عنى بذلك ؟ ولا ندري كيف جيئته ؟

فقلنا لهم إنّا لم نكلّفكم أنْ تعلموا كيف جيئته ، ولكنا نكلّفكم أنْ تؤمنوا بمجيئه . أرأيتم من أنكر أن الملك [يجيء] [1] صفاً صفاً ما هو عندكم ؟ قالوا : كافر مكذّب .

قلنا : فكذلك من أنكر أن الله سبحانه [يجيء][1] فهو كافر مكذب »[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة : « أما كون إتيانه ومجيئه ونزوله ليس مثل إتيان المخلوق ومجيئه ونزوله ، فهذا أمر ضروري متفق عليه بين علماء السنة ومَن له عقل ، فإنَّ الصفات والأفعال تتّبع الذات المتصفة الفاعلة ، فإذا كانت ذاته مباينة لسائر الذوات ليست مثلها ، لزم ضرورة أنْ تكون صفاته مباينة لسائر الصفات ليست مثلها ، ونسبة صفاته إلى ذاته كنسبة صفة كل موصوف إلى ذاته ، ولا ريب أنَّه العَليُّ الأعلى العظيم ، فهو أعلى من كل شيء ، وأعظم من كل شيء ، فلا يكون نزوله وإتيانه بحيث تكون المخلوقات تحيط به أو تكون أعظم منه وأكبر ، هذا ممتنع »[3] .

ولا يحكم على إتيان الله تعالى ومجيئه أنْ يكون كإتيان خَلْقه ومجيئهم ، وأنه يلزم إتيانه ومجيئه ما يلزم إتيانهم ومجيئهم - كما قال أستاذنا الدكتور أحمد بن ناصر الحمد - : « لأنَّ اللّٰه تبارك وتعالى وصف نفسه بصفات ، ووصفه رسوله صلى الله عليه وسلم بصفات ، وكلّ ذلك حقٌّ . ولا يعتقد مَن يثبت صفات الله تعالى أنها مشابهة لصفات خَلْقه ، وإن كان

(١) في النص : « لا يجيء » ، وهو تحريف ظاهر .
(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث ص : (٢٣٤ ، ٢٣٥) .
(٣) مجموع الفتاوى : (١٦/٤٢٢) .

هناك اشتراك في الاسم فهو لا يعدو اللفظ ، أما حقيقة الصفة وقيامها بالمتصف بها ، فصفات الله تعالى لائقة بكماله وجلاله وعظمته ، ولا يجوز نفيها خوفاً من التشبيه ؛ لأنه لا مشابهة بين صفات الخالق وصفات المخلوق ، كما لا مشابهة بين ذاته المقدسة وذواتهم ، ولأن صفات الخَلْق مناسبة لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم ، وصفاته مناسبة لعظمته وبقائه وقدرته وغناه سبحانه وتعالى »[1] .

وقال الإمام أبو سعيد الدارمي في ردّه على المريسي : « وادّعيت أيها المريسي في قول الله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُوْنَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ المَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾[2] ، وفي قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾[3] ، فادّعيت أنَّ هذا ليس منه بإتيان لما أنه غير متحرّك عندك ، ولكن يأتي يوم القيامة بزعمك ، وقوله : ﴿ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾[4] ، ولا يأتي هو بنفسه ، ثم زعمت أنَّ معناه كمعنى قوله : ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾[5] ، و ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾[6] . يقال لهذا المَرِّيْسِي : قاتلك الله ما أجرأك على الله وعلى كتابه بلا علم ولا بصرٍ ، أنبأك الله أنه إتيان ، وتقول ليس إتياناً ، إنما هو مثل قوله : ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾[7] ، لقد ميّزت بين ما جمع الله ، وجمعت بين

---

(1) ابن حزم وموقفه من الإلهيات ص : (٣٨٢) .

(2) سورة الأنعام ، الآية : (١٥٨) .

(3) سورة البقرة ، الآية : (٢١٠) .

(4) سورة البقرة ، الآية : (٢١٠) .

(5) سورة النحل ، الآية : (٢٦) .

(6) سورة الحشر ، الآية : (٢) .

(7) سورة النحل ، الآية : (٢٦) .

ما ميّز الله ، ولا يجمع بين هذين في التأويل إلا كل جاهل بالكتاب والسنة ؛ لأنَّ كلّ واحد منهما مَقْرون به في سياق القراءة لا يجهله إلا مثلك »[1] .

ثم قال : « وقد اتفقت كلمة المسلمين أنَّ الله تعالى فوق عرشه فوق سمٰواته ، وأنه لا ينزل قبل يوم القيامة لعقوبة أحدٍ من خَلْقه ، ولم يشكّوا أنه ينزل يوم القيامة ليَفْصِل بين عباده ، ويحاسبهم ويثيبهم ، وتشقّق السمٰوات يومئذٍ لنزوله ، وتنزل الملائكة تنزيلاً ، ويَحمل عرش ربك فوقهم ثمانية ، كما قال الله ورسوله ، فلما لم يشكّ المسلمون أنَّ الله لا ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة لشيءٍ من أمور الدنيا ، علموا يقيناً أن ما يأتي الناس من العقوبات إنما هو أمره وعذابه ، فقوله : ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾[2] ، يعني مكره من قبل قواعد بنيانهم ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾[3]، فتفسير هذا الإتيان خرور السقف من فوقهم .

وقوله : ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾[4] ، مكر بهم فقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ... فتفسير الإتيان مقرون بهما خرور السقف والرعب ، وتفسير إتيان الله يوم القيامة منصوص في الكتاب مفسّر ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۞ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۞ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۞ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۞ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ

---

(١) نقض الإمام أبي سعيد على المريسي العنيد ، بتحقيق : د. رشيد الألمعي : (٣٣٨/١ - ٣٤٠) .

(٢) سورة النحل ، الآية : (٢٦) .

(٣) سورة النحل ، الآية : (٢٦) .

(٤) سورة الحشر ، الآية : (٢) .

عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۞ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ - إلى قوله - : ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [1] ، فقد فسّر الله تعالى المغنيين تفسيراً لا لبس فيه ، ولا يشتبه على ذي عقل ، فقال فيما يصيب به من العقوبات في الدنيا : ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾ [2] ، فحين قال : ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا ﴾ عَلِم أهل العِلْم أنَّ أمرَه ينزل من عنده من السماء ، وهو على عرشه ، فلما قال : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّوْرِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ... ﴾ [3] الآيات التي ذكرنا ، وقال أيضاً : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيْلاً ﴾ [4] و﴿ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُوْرُ ﴾[5] و ﴿ دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً ۞ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾[6] علم بما قصّ الله من الدليل ، وبما حدّ لنزول الملائكة يومئذٍ أنَّ هذا إتيان الله بنفسه يوم القيامة لِيَلِيَ محاسبة خَلْقِه بنفسه ، لا يَلِي ذلك أحدٌ غيره ، وأنَّ معناه مخالف لمعنى إتيان القواعد لاختلاف القضيتين »[7] .

وقال أيضاً مبيّناً فساد الاحتجاج بقول إبراهيم عليه السلام :﴿ هَذَا رَبِّيْ

---

(1) سورة الحاقة ، الآيات : (١٣ - ٢٩) .

(2) سورة يونس ، الآية : (٢٤) .

(3) سورة الحاقة ، الآية : (١٣) وما بعدها .

(4) سورة الفرقان ، الآية : (٢٥) .

(5) سورة البقرة ، الآية : (٢١٠) .

(6) سورة الفجر ، الآيتان : (٢١ - ٢٢) .

(7) نقض الإمام أبي سعيد على المريسي العنيد : (١/٣٤٠ - ٣٤٣) .

﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ [1] على نفي الإتيان والمجيء :

« ويلك ومَن قال مِن خَلْق الله تعالى : أنّ الله تعالى إذا نزل أو تحرّك ، أو نزل ليوم الحساب أَفَل في شيء كما تأفل الشمس في عين حمئة ؟ إنّ الله لا يأفل في خَلْق سواه إذا نزل أو ارتفع كما تأفل الشمس والقمر والكواكب ، بل هو العالي على كل شيء ، المحيط بكل شيء في جميع أحواله من نزوله وارتفاعه ، وهو الفعّال لما يريد ، لا يأفل في شيء ، بل الأشياء كلّها تخشع له ، والمواضع والشمس والقمر والكواكب خلائق مخلوقة إذا أفلت أفلت في مخلوق ، في عين حمئة ، كما قال الله ، والله أَعْلَى وأَجَلّ ، لايحيط به شيء ، ولا يحتوي عليه شيء » [2] .

وقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيميّة بطلان احتجاجهم بقول الخليل عليه الصلاة والسلام : ﴿ لَآ أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ [3] : من عدّة أوجه ، منها :

١- « أنّا لا نُسلِّم أنّ الأفول هو التغير ، ولم يذكر على ذلك حجة ، بل لم يذكر إلا مجرّد الدعوى » [4] .

٢- وقال أيضاً : « إنّ هذا خلاف إجماع أهل اللغة والتفسير ، بل هو خلاف ما علم بالاضطرار من الدين والنقل المتواتر للغة والتفسير ، فإن الأفول هو المغيب . يُقال : أَفَلَتِ الشمسُ تَأْفِلُ وتَأْفُلُ أُفُولاً إذا غابت ، ولم يقل أحدٌ قطُّ إنه هو التغير ، ولا أن الشمس إذا تغيّر لونها يقال إنها

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : (٧٦) .

(٢) نقض الإمام أبي سعيد على المريسي العنيد : (٣٥٨/١) .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : (٧٦) .

(٤) مجموع الفتاوى : (٢٨٤/٦) .

أفلت ، ولا إذا كانت متحرّكة في السماء يقال إنها أفلت ، ولا أن الريح إذا هبّت يقال لها إنها أفلت ، ولا أن الماء إذا جرى يقال إنه أفل ، ولا أن الشجر إذا تحرّك يقال إنه أفل ، ولا الآدميين إذا تكلّموا أو مشوا وعملوا أعمالهم يقال إنهم أفلوا ؛ بل ولا قال أحد قط إن من مرض أو اصفرّ وجهه أو احمرّ يقال إنه أفل .

فهذا القول من أعظم الأقوال افتراء على الله ، وعلى خليل الله ، وعلى كلام الله عزّ وجلّ، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم المبلّغ عن الله ، وعلى أمة محمد جميعاً ، وعلى جميع أهل اللغة ، وعلى جميع مَن يعرف معاني القرآن »[1].

٣- وقال أيضاً : « إنَّ قصة الخليل عليه السلام حُجَّة عليكم ، فإنه لما رأى كوكباً وتحرّك إلى الغروب فقد تحرّك ، ولم يجعله آفلاً ، ولما رأى القمر بازغاً رآه متحرّكاً ، ولم يجعله آفلاً ، فلما رأى الشمس بازغة علم أنها متحركة ، ولم يجعلها آفلة ، ولما تحرّكت إلى أن غابت ، والقمر إلى أن غاب لم يجعله آفلاً »[2].

٤- وقال في موضع آخر : « أخبر الله في كتابه أنه من حين بزغ الكوكب والقمر والشمس ، وإلى حين أفولها لم يقل الخليل : لا أحب البازغين ، ولا المتحرّكين ، ولا المتحوّلين ، ولا أحب مَن تقوم به الحركات ولا الحوادث ، ولا قال شيئاً مما يقوله النفاة حين أفل الكوكب

---

(١) مجموع الفتاوى : (٢٨٤/٦ - ٢٨٥) .

(٢) المرجع السابق : (٢٨٥/٦) .

والشمس والقمر »[1] .

٥- وقال أيضاً : « فإنْ كان إبراهيم إنما استدلّ بالأفول على أنه ليس ربّ العالمين - كما زعموا - لزم من ذلك أن يكون ما يقوم به الأفول من كونه متحرّكاً منتقلاً تحلّه الحوادث ، بل ومن كونه جسماً متحيزاً لم يكن دليلاً عند إبراهيم على أنه ليس بربِّ العالمين ، وحينئذٍ فيلزم أن تكون قصة إبراهيم حُجَّة على نقيض مطلوبهم ، لا على تعيين مطلوبهم ، وهكذا أهل البدع لا يكادون يحتجّون بحجة سمعية ولا عقلية إلا وهي عند التأمل حجة عليهم لا لهم [2] »[3] .

٦- وقال في موضع آخر : « ولقائل أن يقول : إنْ كان الخليل صلى الله تعالى عليه وسلم احتجّ بالأفُول على نفي كونه ربَّ العالمين ، لزم أنه لم يكن ينفي عنه حلول الحوادث ؛ لأنَّ الأفول هو المغيب والاحتجاب باتفاق أهل التفسير واللغة ، وهو مما يعلم من اللغة اضطراراً ، وهو حين بزغ قال : هذا ربي ، فإذا كان من حين بزوغه إلى حال أفوله لم ينف عنه الربوبية دلّ على أنه لم يجعل حركته منافية لذلك ، وإنما جعل المنافي الأفول ، وإن كان الخليل صلى الله عليه وسلم إنما احتجّ بالأفول على أنه لا يصلح أنْ يُتَّخذ ربّاً يشرك به ،

---

(١) المرجع السابق : (٢٥٣/٦) .

(٢) لشيخ الإسلام ابن تيميّة رسالتان : إحداهما بعنوان : « قاعدة في أنَّ كلّ آية يحتجّ بها مبتدع ففيها دليل على فساد قوله » ، والثانية بعنوان : « قاعدة في أنَّ كلّ دليل عقلي يحتجّ به مبتدع فيه دليل على بطلان قوله » ، في نحو مائة ورقة ، ولم أقف عليهما . انظر العقود الدريّة من مناقب شيخ الإسلام ابن تيميّة لابن عبد الهادي ص : (٣٩) ، وأسماء مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية لابن قيم الجوزية ص : (٢١) رقم : (٣٠ ، ٣١) .

(٣) مجموع الفتاوى : (٢٥٤/٦) .

ويُدْعى من دون الله ... »[1] .

فعقيدة أهل السنة والجماعة : أنَّ الإتيان والمجيء صفتان فعليتان ثابتتان بالكتاب والسنة .

فأما الأدلة من الكتاب :

فقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُوْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالمَلاَئِكَةُ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُوْنَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ المَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾[4] .

قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسير الآية الأولى في صفة إتيان الرب تبارك وتعالى : « لا صفة لذلك غير الذي وصف به نفسه عزّ وجلّ من المجيء والإتيان والنزول ، وغير جائز تكلّف القول في ذلك لأحد إلا بخبر من الله جلّ جلاله ، أو من رسول مُرسَل . فأما القول في صفات الله وأسمائه ، فغير جائز لأحد من جهة الاستخراج إلا بما ذكرنا »[5] .

وقال الدكتور محمد خليل هراس في شرح الواسطية بعد أن ذكر شيخ الإسلام

---

(١) درء تعارض العقل والنقل : (٢١٦/٢) .

(٢) سورة البقرة ، الآية : (٢١٠) .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : (١٥٨) .

(٤) سورة الفجر ، الآية : (٢٢) .

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن : (٣٤٢/٢ رقم ٤٠٤١) .

الآيات السابقة : « في هذه الآيات إثبات صفتين من صفات الفعل له سبحانه ، وهما صفتا الإتيان والمجيء ، والذي عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بذلك على حقيقته ، والابتعاد عن التأويل الذي هو في الحقيقة إلحاد وتعطيل »[1] .

وأما الأدلة من السنة :

فمنها ما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ قَالَ : إِذَا تَلَقَّانِي عَبْدِي بِشِبْرٍ تَلَقَّيْتُهُ بِذِرَاعٍ ، وَإِذَا تَلَقَّانِي بِذِرَاعٍ تَلَقَّيْتُهُ بِبَاعٍ ، وَإِذَا تَلَقَّانِي بِبَاعٍ جِئْتُهُ أَتَيْتُهُ بِأَسْرَعَ »[2].

ففي هذا الحديث الشريف جاءت صفتا الإتيان والمجيء مقترنتين في حديث واحد ، قال الإمام النووي[3] : « هكذا هو في أكثر النسخ : « جئته أتيته » ، وفي بعضها « جئته بأسرع » فقط ، وفي بعضها « أتيته » ، وهاتان ظاهرتان ، والأول صحيح أيضاً ، والجمع بينهما للتوكيد ، وهو حسن ، لاسيما عند اختلاف اللفظ ، والله أعلم »[4] .

---

(١) شرح العقيدة الواسطية ص : (٦٢ -٦٣) .

(٢) الصحيح ، كتاب الذكر والدعاء - باب الحث على ذكر الله : (٢٠٦١/٤ ح ٢٦٧٥ - ٣) .

(٣) هو يحيى بن شرف بن مري الحزامي الحوراني النووي الشافعي ، أبو زكريا ، مُحيي الدِّين ، علاّمة في الفقه والحديث ، مولده ووفاته في نوا من قرى حوران بسورية ، من كتبه تهذيب الأسماء واللغات والمنهاج في شرح صحيح مسلم ومنهاج الطالبين . مات سنة ٦٧٦ هـ . انظر طبقات الشافعية للسبكي: (٣٩٥/٨)، والنجوم الزاهرة: (٢٧٨/٧) ، والأعلام : (١٤٩/٨) .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي : (٤/١٧) .

وروى الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يَقُوْلُ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِيْ بِيْ ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِيْ ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِيْ أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً »(١) .

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَقُوْلُ : مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئاً فَلْيَتَّبِعْهُ ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيْتَ الطَّوَاغِيْتَ ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيْهَا مُنَافِقُوْهَا . فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي صُوْرَةٍ غَيْرِ صُوْرَتِهِ الَّتِيْ يَعْرِفُوْنَ ، فَيَقُوْلُ : أَنَا رَبُّكُمْ ، فَيَقُوْلُوْنَ : نَعُوْذُ بِاللَّهِ مِنْكَ . هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا ، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ ، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي صُوْرَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُوْنَ ، فَيَقُوْلُ : أَنَا رَبُّكُمْ »(٢) .

وروى الإمام البخاري أيضاً بسنده عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ - إلى قوله : - قال : « فَيَأْتِيهِمُ الجَبَّارُ فِي صُوْرَةٍ غَيْرِ صُوْرَتِهِ الَّتِيْ رَأَوْهُ فِيْهَا أَوَّلَ

---

(١) الصحيح ، كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ : (٣٩٥/١٣ ح ٧٤٠٥) ، وانظر صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء - باب الحث على ذكر الله تعالى : (٢٠٦١/٤ ح ٢٦٧٥ - ١) .

(٢) الصحيح ، كتاب الإيمان - باب معرفة طريق الرؤية : (١٦٣/١ ح ١٨٢) ، وانظر صحيح البخاري ، كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ : (٤٣٠/١٣ ح ٧٤٣٧) .

مَــرَّةٍ ، فَيَقُــوْلُ : أَنَـا رَبُّـكُــمْ »[1] .

والحاصل أنَّ الإتيان والمجيء صفتان ثابتتان لله تبارك وتعالى على الحقيقة ، وكما تليقان به عزّ وجلّ ، ولا يجوز التأويل فيهما ؛ لأنَّ ذلك مخالف لصريح النصوص الشرعية من الكتاب والسنة الصحيحة الثابتة ، كما تقدم آنفاً . فأبو السعود قد جانب طريق السلف الصالح من أهل السنة والجماعة في اعتقاده وتأويله لهاتين الصفتين ، والله تعالى أعلم .

---

(١) الصحيح ، كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ : (٤٣٩/١٣ ح ٧٤٣٩) ، وانظر صحيح مسلم ، كتاب الإيمان - باب معرفة طريق الرؤية : (١٦٧/١ ح ١٨٣) .